الباب الثانى

أنا...

فى العلوم الإنسانية

الفصل السادس

أنـــا فـــى المـــرآة

ـ تأملات فلسفية

ـ حوارى مع الفيلسوف كارل بوبر ـ الفلسفة المادية والخَلق

- تهاوى المادية
- بين الانبثاق والخلق خطوة
- انهيار الاختزال والحتمية
- الماديون يعارضون الانبثاق
- كيف تنتج المادةُ الحياةَ والعقل

- مع كارل بوبر، وتسلسل النظرة إلى الذات الإنسانية

- ثنائية الروح والجسم قبل التاريخ
- جولة حضارية وفلسفية

- الفلسفة اليونانية

- الروح/ العقل موجود مادى
- التصور الأخلاقى للروح/ العقل
- إضفاء الصبغة اللامادية على الروح/ العقل

- الفلسفة الحديثة

- مبدأ التفاعل لديكارت
- منهج ديكارت لمعرفة الإنسان لذاته وللإله
- مذهب التوازى لسبينوزا
- مذهب ليبنتز: التناسق سابق التقدير
- المذهب المادى بعد الديكارتيين
- الداروينية

- الذات الإنسانية فى الفكر الشرقى القديم

- الديانة الهندوسية

- العقائد الهندوسية
- لماذا خُلقنا؟ ـ وحدة الوجود
- الذات الإنسانية فى الفكر الهندوسى

- البوذية

- مفهوم المعاناة فى الفكر البوذى
- الاستنارة والطريق إلى اللاذات
- وَهْم الذات الإنسانية
- النيرفانا

- الإنسان المصرى القديم والذات الإنسانية

- ثنائية الوجود وثنائية الذات الإنسانية
- عالم الموتى، بين طبقية ومساواة
- الأخلاق الفاضلة، الطريق إلى الخلود

- القارئ الكريم

كيف نظر الإنسانُ إلى نفسه؟...

كيف نظر العقلُ إلى الإنسان؟...

كيف نظرت الفلسفةُ إلى الذات الإنسانية؟...

سؤال واحد، يطرح نفسه بأشكال مختلفة... ولا يتكامل حديث «أنا» عن «نفسها» دون الإجابة عنه.

منذ فجر التاريخ، ومنذ أن وعى الإنسان بنفسه، نشطت فى عقله مَلَكَةٌ فطرية مُلِحَةً تدفعه للبحث عن أصل كل شىء. فبدأ بالتفكر فى **علة ما حوله**؛ من أين تأتى الشمس فى الصباح، وأين تذهب بعد غروبها؟ مصدر وسبب المطر، ثورة البراكين، برودة الطقس، اشتعال النار، نمو النبات... ثم انتقل الإنسان إلى **التفكر فى ذاته**؛ ما الذى أصاب رفيقى فَخَرَّ صريعًا دون أن يمسه مكروه؟ وهل تلاشى تمامًا أم رحل إلى مكان آخر؟ ما الفرق بين طفل وُلد حيًّا وآخر وُلد مَيْتًا؟ لماذا أُحب هذا الشخص وأكره الآخر؟ كيف توصل أخى إلى حل تلك المعضلة فى الوقت الذى عجزت فيه أنا؟...

للإجابة عن تلك **التساؤلات حول الطبيعة، وحول الذات الإنسانية**، صاغ الإنسان البدائى **الأساطير**، التى صارت تُعرف بـ «**فلسفة ما قبل الفلسفة**». وعندما تقدم الإنسان فى المعرفة، وصار أكثر قدرة على التمييز بين المعقول واللامعقول وأكثر قدرة على التفكير المنهجى، **بزغت الفلسفة**، التى يمكن اعتبارها أعظم إنجازات العقل البشرى، ولِمَ لا؟.. أليست هى «**حب الحكمة**»...

تأملات فلسفية

يقول **الفيلسوف الكبير إيمانويل كانت**[1] فى كتابه الأشهر «نقد العقل الخالص»؛ إن شيئين يملآن عقلَه بالإعجاب والإجلال المتجددين والمتزايدين على الدوام: **السموات**

(١) **إيمانويل كانت Immanuel Kant**، ولد فى ألمانيا (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤م)، من أكثر فلاسفة نظرية المعرفة تأثيرًا فى عصر التنوير، يتبع طريقًا وسطًا بين التجريبية والعقلانية. دعا إلى تصحيح المفاهيم الميتافيزيقية. وقد أثَّر كانت فى مجرى الفكر البشرى كله، فكان معظم الفلاسفة المحترفين فى أوروبا الغربية، وإنجلترا، وأمريكا ـ على مدى مائة سنة بعد وفاته ـ من تلاميذه.

المرصعة بالنجوم من فوقه، والقانون الأخلاقى فى داخله. فالسماء ترمز عنده إلى معرفتنا عن العالم الفيزيائى ومكاننا فى هذا العالم. والأخلاق تتصل بالذات غير المرئية؛ بالشخصية الإنسانية خاصة حرية الاختيار. الشىء الأول يلغى أهمية الإنسان إذا نظرنا إليه كجزء من العالم الفيزيائى. والثانى يُعلِى قيمتَه إلى غير حد بوصفه كائنًا ذكيًا ومسئولًا.

قد يفهم البعض من نظرة «كانت» المترددة بين نجوم السماء وبين الذات الإنسانية، أن على الإنسان أن يتبنى إما النظرة المادية وإما النظرة الإنسانية. ولكنى فى الحقيقة أرى بين النظرتين علاقة تبادلية، **فنظرة الإنسان لـ «ذاته» تتوقف إلى حد بعيد على نظرته لـ «ما حوله»**. فإذا كانت نظرة الإنسان للوجود ـ فى مرحلة من مراحل الحضارة الإنسانية أو فى مجتمع من مجتمعاتها ـ تتسم بالمادية، فستكون تلك أيضًا نظرته لذاته. أما إذا كان يرى الوجود كجذع شجرة تمتد جذورها فى عالم الغيب وتتفرع أغصانها وتورق وتُزهر فى سماء الأبدية، فلا شك أنه سيرى نفسه كقطرة ماء تسرى فى عروق تلك الشجرة، فى رحلة تمتد من الجذور، عبر الجذع، إلى الأغصان والأوراق والأزهار.

معنى ذلك، أن الإنسان عندما ينظر فى المرآة فإنه يرى ذاته **كجزء من صورة تتناسب مع الوجود المحيط به**، فلا يمكن ـ مثلًا ـ أن ترى نفسك فى المرآة كطائر يرفرف بجناحيه داخل تربة من الطين الأسود، فالطائر يرفرف فى سماء مفتوحة. والعكس أيضًا صحيح، فديدان الأرض لا تستطيع أن تزحف فى الفضاء.

وبينما أنا غارق فى تأملاتى، بحثت عمن يمكن أن يستعرض لنا نظرة الإنسان إلى نفسه، مَنْ مِن الفلاسفة (فرسان هذا المضمار) الأقدر على ذلك؟. المشكلة، أن الفلسفة (كما أراها) أشبه ببستان للزهور، ألقى بعضُ مرتاديه حول أسواره شيئًا من النفايات. لذلك، كما يمكن أن تقع عيناك على إحدى زهور البستان، فيمكن أيضًا أن تصطدم بأى من النفايات!. نقلت حيرتى إلى أستاذتى الدكتورة يمنى طريف الخولى[1] فدلتنى من فورها على أستاذها **الفيلسوف الكبير كارل بوبر**، عملاق فلسفة العلوم فى القرن العشرين، وقالت؛ هو من تبحث عنه، بل وأهدتنى بعضًا من كتبه.

(١) د. **يمنى طريف الخولى**: أستاذة فلسفة العلوم، ورئيسة قسم الفلسفة بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة. لها العديد من المؤلفات والكتب المترجمة فى هذا المجال.

حوارى مع الفيلسوف كارل بوبر

الفلسفة المادية والخَلْق

(شكل ـ ١)
كارل بوبر **Carl Popper**
فيلسوف العلوم الأشهر
فى القرن العشرين

قصدت إلى **كارل بوبر**[١] **Carl Poper** (شكل ـ ١)، وجلست بين يديه صامتًا مطرقًا رأسى، فأنا ممن يعرفون أقدار الرجال. قطع العملاق الصمت، وبدد بنظراته الدافئة ما بداخلى من رهبة وتردد انعكستا على وجهى، وسألنى: ما الذى يشغلك ويحيرك؟

أجبته، سيدى: إذا كان الشاغل الأكبر للفلسفة منذ أشرقت شمسها هو: الخالق والمخلوق، فأنا يشغلنى هذه الأيام قضية: كيف نظر الإنسان إلى ذاته.

ابتسم كارل بوبر ابتسامة هادئة تجمع بين سكينة الواثقين واندهاش الفلاسفة العظماء وطفولتهم، وقال: يا عزيزى، إن قضيتك تلك تتغلغل فى نسيج الفلسفة كله، فمن أين تريد أن أبدأ؟. قلت لبوبر: فلنجعل بدايتنا: **مدى تأثير نظرة الإنسان إلى الوجود فى نظرته لذاته.**

تهاوِى المادية

قال بوبر: لا شك أن هناك تأثيرًا قويًّا متبادلًا بين نظرة الإنسان للوجود ونظرته لذاته، حتى إنك عندما تتابع الكتابات الفلسفية المادية قد لا تلاحظ أن الفيلسوف قد انتقل من الحديث عن مادية الوجود إلى الحديث عن مادية الإنسان، والعكس أيضًا صحيح. **ومع تبدل نظرة الإنسان الفلسفية والعلمية إلى المادة تبدلت نظرته إلى ذاته الإنسانية**، لذلك إذا أردنا أن ندرك تطور النظرة الثانية علينا أن نفهم تطور الأولى.

(١) **كارل بوبر Carl Popper**: ولد فى ڤيننا عام ١٩٠٢ ومات فى لندن عام ١٩٩٤. من أعظم فلاسفة العلوم فى القرن العشرين. والداه يهوديان، ويصف نفسه بأنه لا أدرِىّ Agnoistic. درس الرياضيات والتاريخ وعلم النفس والفيزياء والموسيقى. حصل عام ١٩٦٥ على لقب سير، وعمل بين عامى ١٩٤٩ ـ ١٩٦٩ أستاذًا للمنطق والمناهج العلمية بجامعة لندن.

كان الفيلسوف الكبير بيرتراند رسل[1] يعتبر أن العلم والفلسفة وُلِدَا على يد اليونانيين القدماء،[2] وأنه يمكن التأريخ لذلك الميلاد بالفيلسوف اليونانى طاليس فى القرن السادس قبل الميلاد. ومنذ ذلك الحين ـ ولقرون عديدة ـ ظل العلم والفلسفة ينظران إلى «المادة» باعتبارها **شيئًا ما يشغل مكانًا**، وأنها **جوهر** substance (موجود حقيقى مستقل تُفَسَّر به الأشياء) وأنها **نهائية** ultimate (لا يحتاج وجودها إلى تفسير)، وأنها **ماهوية** Essential (تحمل داخلها خواصها التى تميزها). إذًا، تنظر **الفلسفة المادية التقليدية والفيزياء الكلاسيكية** إلى «**المادة**» باعتبارها **جسم جوهر، يشغل مكانًا، غير قابل (ولا يحتاج) لتفسير آخر، بل تُفَسَّر به الأشياء. و«يتفاعل»** هذا الجسم مع الأجسام الأخرى بـ «**الدفع Push**»، الذى هو فعلٌ بالتلامس. واعتبر الفلاسفة أن الدفع «علة» حركة الأجسام، ونظروا إلى «**العالم**» باعتباره آلة هائلة تتكون من مجموعة من الأجسام يدفع بعضها بعضًا كتروس الساعة.

ثم جاءت **الفيزياء الحديثة** لتُبطل تدريجيًّا هذا الرأى عن المادة، بعد أن طرحت نظريات تفسيرية لوجودها ولخواصها[3]، ومن ثم **لم تعد المادة جوهرًا نهائيًّا**. أى أن الفيزياء التى أقنعتنا من قبل بمفهوم المادية هى التى قدمت أهم الأدلة ضد المادية الكلاسيكية.

لقد كان أول صدع فى المادية الكلاسيكية هو **تصور إسحق نيوتن عن الجاذبية**، فهى قوة «**جذب**» وليست قوة «دفع»، وهى **فعل عن بُعد** (لا فعل بالتلامس). وقد تطلب الخروج من هذا المأزق أن أضاف الفلاسفة «**الشد الجاذبى**» ـ كما سبق أن أضافوا الدفع ـ كأحد صفات المادة الأساسية التى لا يلزمها تفسير آخر.

كذلك كان أحد أهم الأحداث فى مسار تجاوز المادية لذاتها هو اكتشاف طومسون **للإلكترون**، والذى وصفه بأنه شظية دقيقة من الذرة. بذلك **أصبحت الذرة مكونة من جسيمات وأصبحت قابلة للانقسام**، على عكس التعريف المادى الكلاسيكى الذى يرى أنها وِحدة مصمتة غير قابلة للانقسام.

---

(١) **برتراند راسل Bertrand Russell**: وُلد فى ويلز بالمملكة المتحدة (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠م). فيلسوف ورجل منطق عظيم، من علماء الرياضيات، ومن المناهضين للحروب وللتوسع الاستعمارى، حصل على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٥٠.

(٢) نتبنى رأيًا مخالفًا لذلك، طرحه فلاسفة آخرون، وهو أن حضارات أقدم كثيرًا من الحضارة اليونانية حققت إنجازات فلسفية وعلمية كبيرة. بل إن الكثيرين من فلاسفة اليونان تعلموا لسنوات عديدة فى مصر، وأشهر هؤلاء أفلاطون وفيثاغورث.

(٣) مثال ذلك تقديم التفسير لحالات المادة (الصلابة ـ السيولة ـ الغازية)، وللمرونة، والتماسك، وشغل المكان،...

كذلك فسرت **النظرية الكهربائية للذرة** (النواة موجبة الشحنة والإلكترونات سالبة الشحنة) صفتى الدفع والشد بين الأجسام، بذلك لم تعد هاتان الصفتان خاصيتين جوهريتين للمادة لا تفسير لهما، بل أصبحتا **قابلتين للتفسير**.

كما أظهرت الفيزياء الحديثة **إمكانية تحول المادة إلى طاقة** (فى الانفجارات الذرية) وتحول الطاقة إلى مادة، مما ينفى عن المادة صفة الثبات وعدم القابلية للتغير، أى أن المادة (طاقة معبأة) **قابلة للتحول** وليست جوهرًا لأنها غير ثابتة، بل يمكن أن تُدَمَّر ويمكن أن تُخَلَّق.

بذلك استُبدل الرأى القائل بأن الحيوانات والبشر آلات بالمعنى الميكانيكى (روبوتات) بتصور الحيوانات والبشر كآلات كهروكيميائية.

لقد أصبحت **الفيزياء الحديثة تهيب بنا أن نتخلى عن مفهوم الكيان المادى الدائم الثابت عبر الزمن**، وأن نعتبر أن ليس هناك جوهر حامل لخصائص الشىء وصفاته. إن العالم اليوم لا يبدو كتجمع من الأشياء، بل **كمجموعة متفاعلة من الأحداث Events أو العمليات Processes**. وكما تتعامل الفيزياء مع **الجسيمات**، فقد صارت تتعامل أيضًا مع شتى صور **النشاط الإشعاعى**، بل وأيضًا مع **طاقة الفراغ** الهائلة غير المتميزة[1]. معنى ذلك أن الفيزياء **تحتم علينا عند تفسير بنية المادة أن نتخلى عن المادية**.

انهيار الاختزال والحتمية

قلت لكارل بوبر مستفسرًا؛ من المناهج التى يستخدمها العلماء لدراسة الظواهر المختلفة، «**المنهج الاختزالى ـ Reductionism**»، الذى يقوم بتحليل أية ظاهرة أو قضية إلى عناصرها الأولية، ثم دراسة كل عنصر على حدة، واعتبار **أن خواص الكل هى مجموع خواص عناصره**. لذلك قام البيولوجيون عند دراسة «**ظاهرة الحياة**» بتحليل الكائن الحى إلى عناصره: أجهزة الجسم ثم الأنسجة ثم الخلايا ثم الجزيئات العضوية ثم الذرات ثم المُكَوِّنات تحت الذرية (البروتونات ـ النيوترونات ـ الإلكترونات)، وقالوا لنا لم نعثر إلا على مادة، ليس هناك إلا المادة لتفسير الحياة. لقد فات هؤلاء أن ظاهرة الحياة التى يدرسونها **بمنهجهم الاختزالى تكون قد اختفت تمامًا** عندما قاموا بعملية الاختزال والتحليل، وأنهم قد **حولوا البيولوجيا إلى فيزياء**.

(١) عبر عن ذلك ج. أ. هويلر (عام ١٩٧٣) بقوله: إن فيزياء الجسيمات تحت الذرية ليست هى نقطة البداية الصحيحة للفيزياء، لكن نقطة البداية هى فيزياء الفراغ Vacuum Physics. وقد شرحنا طاقة الفراغ فى الفصل الرابع على لسان عالم الفيزياء ويليام تيلر.

أجابنى بوبر: لا شك أن هذا المثال يبين خطأ ما يؤمن به أصحاب المنهج الاختزالى، من أن الأشياء (أو الأحداث أو الظواهر) فى كل مستوى يمكن أن تُفَسَّر فى ضوء ما يحدث فى المستوى الأدنى، أى أن المستوى الأدنى يمكنه أن يُفَسِّر المستوى الأعلى، وهو الفهم الذى أطلقوا عليه اصطلاح «**العِلِّية الصاعدة**[1] **upward causation**». ففى المثال السابق، لا شك أن المستوى الأدنى (خصائص جزيئات المادة وذراتها) لا تفسر ظاهرة الحياة. ومن الأمثلة الأخرى لـ(تَعَطُّل العلية الصاعدة) أن الحيوان قد يبقى حيًا بعد موت الكثير من خلاياه أو بتر طرف من أطرافه.

وفى مقابل العلية الصاعدة، يمكن للمستويات الأعلى أن تؤثر (فى بعض الحالات) فى المستويات الأدنى، ونطلق على هذا التأثير اصطلاح «**العِلِّية الهابطة Downward Causation**»، ومثالها تلك الآلات التى نصممها بحيث إذا زادت السرعة (المستوى الأعلى) يتم تقليل الوقود (المستوى الأدنى) حتى تعود السرعة لمعدلها السابق. وتمارس العِلِّية الهابطة دورًا هامًا فى الوظائف المختلفة فى جسم الإنسان؛ فإذا زاد معدل السكر فى الدم مثلًا (المستوى الأعلى) أدى ذلك إلى انخفاض إفراز هورمون الإنسولين (المستوى الأدنى) حتى يعود السكر إلى مستواه الطبيعى، وتسمى هذه العملية بالتغذية المرتجعة feed back.

إن تعَطُّل مفهومى العِلِّية الصاعدة والعِلِّية الهابطة (فى كثير من الأحيان) يدعم **رفضى لاعتبار أن عالمنا الفيزيائى عالم حتمى يسير فى اتجاه واحد تفرضه البنية الذرية**. بل إن الفيزياء الحديثة (فيزياء الكم) أثبتت من خلال مفهوم اللاحتمية أن هناك (على المستوى تحت الذرى) احتمالات مختلفة لوقوع الحدث الفيزيائى الواحد، مما قضى على مفهوم الحتمية المادية تمامًا[2].

كيف تُنتج المادةُ الحياةَ والعقل

أعجبنى كثيرًا طرح كارل بوبر لتطور النظرة إلى المادة، وسألته: كيف فَسَّرَ الماديون ظهور الحياة والوعى والعقل من المادة بصفاتها، سواء الصفات الكلاسيكية أو الصفات التى انكشفت للفيزياء الحديثة؟

(١) اصطلاح «العِلِّيَة» مشتق عن «علة»، وعلة الشىء بمعنى سببه.

(٢) ذكرنا فى الفصل الرابع أن هناك شواهد فيزيائية تشير إلى أن مفهوم اللاحتمية ـ الخاص بالجسيمات تحت الذرية ـ يوجد أيضًا على مستوى الذرات والجزيئات! ومن ثم لم تَعُد هناك حاجة لنوعين من الفيزياء، بل إن فيزياء الكم تحكم العالم الكبير كما تحكم العالم تحت الذرى!

أجابنى بوبر: ترى المدرسة المادية (بدءًا من الفلسفة اليونانية القديمة[1] حتى الماديين المعاصرين[2]) أنه **لا توجد إلا ذرات تتحرك فى فضاء فارغ**، وأن التغيرات الوحيدة الممكنة هى حركة الذرات واصطدامها ببعضها واتحادها، بما فى ذلك الذرات بالغة الدقة التى تُكَوِّن أرواحنا، ومن ثم فإن التغيير الحقيقى مستحيل ووهم. معنى ذلك أنه **لا يوجد إلا كيانات مادية**، وأن ليس هناك أحداث أو خبرات عقلية لا مادية، أى أنه **لا جديد تحت الشمس**.

وكمحاولة لتفسير ظاهرتى الحياة والعقل فى إطار منظور تفاعل الذرات المادى، طرح بعض الفلاسفة الماديين منظورًا شديد الغرابة، لا يفسر المشكلة، بل يزيدها غموضًا، أطلقوا عليه اسم «**مذهب شمول النفس Panpsychism**». ويرى هذا المنظور **أن المادة متأصل فى بنيتها خاصية تشبه الحياة والعقل**، وأن هذه الخاصية تظل كامنة فى المادة غير الحية، ثم تُفَعَّل لتصبح حياةً فى الكائنات الحية ثم وعيًا وعقلًا مع تطور الحيوانات العليا. لقد أراح هذا المنظور الماديين، إذ فسر لهم انبثاق القدرات العقلية فى المادة دون الاحتياج لتَدَخُّل من خارجها، وهو ما عبر عنه الماديون بأن «**كوننا مغلق**»، **مكتفٍ بذاته، ليس فى حاجة لتدخلات خارجية**، أى أنه ليس كونًا مفتوحًا للتدخلات الإلهية والميتافيزيقية.

قلت لبوبر: ألا ترى ـ سيدى ـ أن الماديين الذين قالوا بشمول النفس، ليؤكدوا أن عالمنا مغلق مكتف بما فيه، فإنهم قد **أَضْفَوا على المادة صفات عاقلة واعية حساسة فوق ما يحلم به المتدينون؟**

أجابنى بوبر: نعم، لذلك أرى أن مذهب شمول النفس ليس مذهبًا ماديًّا، بل هو أقرب إلى المذهب الروحى الرافض للمادية.

بين الانبثاق والخلق خطوة

قلت لبوبر: إننى (كبيولوجى) أرى **أن الحياة والوعى والعقل ظواهر جديدة تمامًا على الكون المادى** (أى خطأ مفهوم أن لا جديد تحت الشمس)، وأن المادية تعجز عن تفسير تلك الظواهر، وأرى أنها تحتاج إلى إيجاد جديد تمامًا، وهو ما يسميه المتدينون «**الخَلق**» **من قِبَل خالق يتمتع بهذه الصفات**، ولا يكون هذا الموجد إلا إلهًا. أى أن كوننا ليس كونًا ماديًّا مغلقًا، بل هو «**كون مفتوح للتدخلات الإلهية**». فكيف يرى الفلاسفة هذا الطرح العلمى الدينى؟

(١) يمثل الفلسفة اليونانية المادية الفيلسوف العظيم بارمنيدس، منذ ٢٥٠٠ سنة، واقتفى أثره مؤسسًا النظرية الذرية ليوسيبوس وديمقريطس.

(٢) مثل الفيلسوف كواين.

ابتسم كارل بوبر وقال: يمكننا أن نحلل تلك القضية إلى مستويين، المستوى الأول هو: هل تُعتبر ظواهر الحياة والوعى والعقل **إيجادًا جديدًا تمامًا**، أم أنها بعض النواتج التى كان يمكن التنبؤ بها من دراسة خواص المادة (العِلِّية الصاعدة)؟ وإذا أقررنا أن هذه الظواهر جديدة، عندها يأتى السؤال التالى: **كيف جَدَّت هذه الظواهر؟**

واستطرد محدثى الكبير مجيبًا على تساؤليه بثقة كبيرة: أُشهدك أننى أذهب إلى أن الحياة، والخبرات الواعية للحيوانات، ثم العقل والوعى الإنسانى بالذات وبالوجود، وما ترتب على ذلك من إبداع، هى ظواهر جديدة كل الجِدَّة، وهو ما أصفه بأن تطور العالم كان «**تطورًا انبثاقيًّا Emergent**»، بل إننى استخدم أيضًا اصطلاح المتدينين بأنه ـ كان «**تطورًا خالِقًا Creative**».

أخرج كارل بوبر من أحد أدراج مكتبه نسخة من كتابه (الذات ودماغها)[1] وفتح أحد صفحاته وأشار إلى مخطط بها، وقال: إننى أنظر إلى العالم باعتباره متكون من ثلاثة مستويات، تمثل **مراحل تطور الكون**.

العالم ـ ٣ **(عالم منتجات العقل الإنسانى)**	(٦) الأعمال الفنية والعلمية (شاملة التكنولوجيا) (٥) اللغة البشرية، نظريات النفس والموت
العالم ـ ٢ **(عالم الخبرات الذاتية)**	(٤) الوعى الإنسانى بالذات وبالموت (٣) الإحساس (الوعى الحيوانى)
العالم ـ ١ **(عالم الأشياء الفيزيائية)**	(٢) الكائنات العضوية الحية (١) العناصر الأثقل، السوائل والبلورات (صفر) الهيدروجين والهيليوم

فى هذا المخطط أرمز إلى **عالم الأشياء الفيزيائية (العالم المادى) بـ «العالم ـ ١»**، وأرمز إلى **عالم الخبرات الذاتية (عالم النفس) بـ «العالم ـ ٢»**، كما أرمز إلى **عالم منتجات العقل الإنسانى بـ «العالم ـ ٣»**. ويشمل هذا العالم الأخير الشعر والفن والموسيقى والتكنولوجيا والنظريات العلمية والأساطير وحكايا الأشباح... إننى أرى **أن العالم ـ ٣ إبداع جديد تمامًا، إنه انبثاق أو خلق**.

وينبغى ملاحظة أن الكثير من موضوعات (العالم ـ ٣) كالأفكار، تتجسد فى (العالم ـ ١)

(١) كتاب The Self and its Brain تأليف كارل بوبر وسير جون إكلز عالِم بيولوجيا الأعصاب الكبير والحائز على جائزة نوبل. وترجم الكتاب إلى اللغة العربية د. عادل مصطفى تحت اسم «**الذات ودماغها**»، وقامت بنشره دار رؤية ـ عام ٢٠١٢. **وعن هذا الكتاب أخذنا ما نطرح هنا من أفكار على لسان كارل بوبر.**

كلوحات فنية وسيارات وطائرات. كما أن بعضها يوجد بشكل مُشَفَّر، مثل التسجيلات وكل ما يُكتب باللغات المختلفة (التى هى شفرات). والبعض الآخر من موضوعات (العالم ـ ٣) قد يوجد كموضوعات للعالم ـ ٢، ومثال ذلك ما يرتبط بإبداعاتنا الفكرية من مشاعر وأحاسيس. كذلك يمكن أن يحوى العالم ـ ٣ موضوعات افتراضية لا يمكن تجسيدها ولا تشفيرها، مثال ذلك ما يُعرف بالأرقام الافتراضية التى ليس لها وجود حقيقى مثل $\sqrt{-٤}$ [1]!

طلبت من الفيلسوف الكبير أن يزيدنى إيضاحًا لفكرة التطور الخالق أو التطور الانبثاقى. فقال؛ **لا أنكر غموض الفكرة**، لكنى سأحاول إلقاء المزيد من الضوء عليها.

فى بداية التكوين، لم يكن فى الوجود إلا عنصرى الهيدروجين والهيليوم. فى ذلك الوقت لم يكن بمقدور عالِم مُلِم بقوانين الطبيعة السارية آنذاك (لو افترضنا وجوده) أن يتنبأ بخصائص العناصر الأثقل التى لم تظهر بعد، ولا مجرد أن يتنبأ بظهورها، كما لم يكن بمقدوره التنبؤ بخصائص أو حتى بظهور أبسط الجزيئات المُرَكبة كالماء.

بعد ذلك ظهرت فى الكون بشكل متتالٍ مركبات وظواهر جديدة تمامًا، منها تَكَوُّن المركبات العضوية البسيطة من العناصر الكيميائية، ثم تَكَوُّن مركبات الحياة (جزيئات البروتين والرنا RNA والدنا DNA وأيضًا السكريات والدهون)، ثم ظهرت الكائنات وحيدة الخلية، ثم الكائنات عديدة الخلايا، ثم حدث الانتقال من التكاثر اللاجنسى إلى التكاثر الجنسى، ثم الترقى فى سلم التطور البيولوجى ونشأة الأصناف الأكثر تعقيدًا من الكائنات النباتية والحيوانية، ثم ظهور الوعى البدائى فى الحيوانات العليا، وأخيرًا نشأة الإنسان الحديث بما يتمتع به من وعى خاص وقدرات عقلية متميزة. إنى أرى **أن ظهور كل هذه المركبات والظواهر كان أمرًا غير متوقع على الإطلاق، ويستحيل التنبؤ به من خلال معرفة تركيب وتفاعل جسيمات المادة، لقد كانت كل خطوة انبثاقًا جديدًا Emergent phenomenon، بالمقارنة بالخطوة السابقة لها.**

سألت كارل بوبر: ما هو المقياس الذى تحتكم إليه لتعتبر أن وجودًا ما عمل إبداعى انبثاقى؟

أجابنى بوبر: عندما أقول إن للعالم قدرة إبداعية فإن الدليل على ذلك أننا «**كنا غير قابلين للتنبؤ بنا قبل ظهورنا**»، بل كان **يتعذر التنبؤ بانبثاق الحياة على الأرض من إدراك خصائص مكونات المادة الحية**. ومن ثم فإن (**عدم القابلية للتنبؤ**) هو المقياس الذى نحكم به على الانبثاق والإبداع الجديد:

(١) الجذر التربيعى للرقم (٤) هو (٢)، أما الرقم ($\sqrt{-٤}$) فليس له جذر تربيعى حقيقى.

سألت كارل بوبر: أنت **تتفق مع المتدينين** فى أنه لا يمكن التنبؤ بظواهر الحياة والوعى والعقل من خلال معرفة بنية العالم المادى، واعتبرتها **ظواهر جديدة تمامًا**، وبالتالى طرحت فكرة «**التطور الخالق أو التطور الانبثاقى**» **وهى مجرد** وصف لما حدث دون تفسير كيفية حدوثه، فلماذا لا تقبل التفسير البسيط والمباشر الذى يؤمن به المتدينون، وهو أن **الإله قد خلق هذه العوالم الجديدة تمامًا على عالم المادة؟**

ابتسم كارل بوبر لملاحظتى وقال: إن الفلسفة عندما تسعى لتفسير الظواهر فقد ألزمت نفسها أن يكون ذلك فى إطار ما تحت أيدينا من أسباب، وألا تلجأ إلى الأسباب الميتافيزيقية إلا إذا أعجزها تمامًا العثور على تفسيرات من عوالمنا الملموسة، أى **أن الفلسفة تجتهد فى أن تظل نظرتها إلى الكون باعتباره كونًا مغلقًا، وليس كونًا مفتوحًا للتدخلات الخارجة عنه**، كما ذكرنا من قبل.

بالطبع لم يقنعنى هذا التبرير لكارل بوبر، فأساطين الفلسفة اليونانية الثلاثة (سقراط ـ أفلاطون ـ أرسطو)، وكذلك الديكارتيون **كانوا من المؤمنين بوجود الإله** وبدوره فى عملية الخلق.

الماديون يعارضون الانبثاق

سألت كارل بوبر: إن فكرة الانبثاق قريبة جدًّا من فكرة الخلق الإلهى، فهل تَقَبَّلها الماديون أم عارضوها؟ فأجابنى قائلًا: لقد **واجهت الفكرة اعتراضات كثيرة من قِبَل الماديين.**

إن فكرة التطور «الخالق Creative» أو «الانبثاقى Emergent» بسيطة للغاية، وإن تكن آلياتها غامضة. إنها تعنى أن فى مسار نشأة الكون وتطوره تتكون أشياء أو تقع أحداث جديدة، غير قابلة للتنبؤ، وذات خواص غير متوقعة. وقد ركز المعارضون على **رفض فكرة (استحالة التنبؤ)**، وينتمى هؤلاء لثلاث مدارس رئيسية:

الأولى: المدرسة الحتمية، وقد جَسَّد لابلاس[1] رأيها بقوله: «ينبغى أن نعتبر الحالة الحاضرة للعالم نتيجة لحالته السابقة، وسبب لحالته التالية. فإذا افترضنا إمكانية معرفة جميع القوى التى تُسَيِّر الطبيعة، وحالة جميع العناصر المُكَوِّنة لها فى لحظة معينة، فبالنسبة لعقولنا لن يكون هناك أى شىء غير معلوم علم اليقين، وسيكون المستقبل، كالماضى، حاضرًا أمام عيوننا».

وأنا أرى أن لابلاس لا يستطيع أن يقدم أى دليل علمى على افتراضه هذا.

(١) **لابلاس Pierre Simon Laplace**: ١٧٤٩ ـ ١٨٢٧م، الرياضى والفلكى الفرنسى ـ كان معاصرًا لنابليون بونابرت.

الثانية: المذهب الذرى، الذى يرى أن الاختلاف بين الموجودات يرجع إلى الاختلاف فى تنظيم الذرات وتفاعلها، ومن ثم يمكن التنبؤ بمولد وخصائص أى منظومة محتَمَلة من خلال معرفة خصائص الذرات. وقد بينا (فى مثال الحياة) خطأ هذا المذهب، ويمكن إدراك هذا الخطأ أيضًا من تأمل الاختلافات الجوهرية بين أفكار وسلوك شخص وآخر، بالرغم من تطابق البنية والوظائف الذرية للدماغ.

الثالثة: مذهب شمول النفس، الذى طرحناه منذ قليل، وطرحنا اعتراضاتنا عليه.

وأضاف بوبر قائلًا؛ إن ما ذكرنا منذ قليل من تهاوى المادية وانهيار مفهومى الاختزال والحتمية، يُقَوِّض نقد الماديين لفكرة التطور الانبثاقى، وبذلك يثبت أن ظواهر عديدة أهمها الحياة والوعى والعقل الإنسانى، وكذلك اللغة الإنسانية، ظواهر انبثاقية جديدة تمامًا على عالم المادة.

هززت رأسى وابتسمت معجبًا بطرح كارل بوبر الذى اتسم بالوضوح والتبسيط لقضايا فلسفية وفيزيائية شديدة التعقيد، وهذا دائمًا شأن الكبار الذين يُلِمون جيدًا بأبعاد تخصصاتهم. ثم انتقلنا إلى المرحلة التالية من الحوار:

مع كارل بوبر
وتسلسل النظرة إلى الذات الإنسانية

قلت لكارل بوبر: سيدى، لقد أكدتَ ارتباط نظرة العقل للذات الإنسانية بنظرته للمادة، ثم أثبتَ تهاوى النظرة المادية الجذرية للوجود وللإنسان. لقد آن الأوان لمناقشة تطور نظرة العقل البشرى للذات الإنسانية.

ثنائية الروح والجسم قبل التاريخ

قال بوبر: لتكن بدايتنا موغلة فى القِدَم بقدر ما يسمح العلم؛ نستطيع أن نرصد إدراك **إنسان نياندرتال**[1]، الذى ظهر منذ قرابة ٢٠٠,٠٠٠ سنة، لثنائية الروح ـ الجسم. فعادات الدفن التى مارسها هؤلاء تؤكد أنهم كانوا يعتقدون فى البعث بعد الموت، إذ كانوا يدفنون مع موتاهم عطايا يرونها مفيدة فى الرحلة إلى عالم آخر. فقد عُثر فى كهف شانيدار فى شمال

(١) **إنسان نياندرتال Homo - neandertalis**، آخر أنواع الجنس البشرى ظهورًا قبل الإنسان العاقل الحديث، وقد عاصره أسلافنا لفترة ٣٠,٠٠٠ سنة قبل أن ينقرض منذ قرابة ٣٥,٠٠٠ سنة.

العراق على مقبرة دُفن فيها أحدهم على فراش من أغصان مزين بالزهور، كما عُثر على هيكلين عظميين لإنسانين مُعَوَّقين، يظهر من رقدتهما أن جماعتهما كانت تحتملهما وتساعدهما فى هذه الحياة وتعدهما للحياة الأخرى.

كما تظهر ثنائية الروح والجسم المادى وتفاعلهما فى **الديانات البدائية والأساطير والمعتقدات السحرية**. ففى **الشامانية**[1] نجد أن روح الشامان يمكن أن تترك الجسم وتذهب فى رحلة، وعند الأسكيمو تذهب الروح إلى القمر بينما يبقى الجسم فى نوم عميق أو غيبوبة حيًّا دون طعام.

وأضاف بوبر: وفى أقدم مصادرنا الأدبية وبخاصة عند **هوميروس**[2]، نجد ثنائية الجسم والعقل واضحة. فنجد الكثير من الألفاظ التى تشير إلى الروح/ العقل/ الوعى، كالشعور والإدراك والتفكير. وهناك أوصاف للروح بأنها طيف أو شبح ذو شكل مماثل للجسم، ولكنها أرق منه وأقل مادية، فهى كالبخار أو النَفَس[3]، أى أنها أشبه بالهواء.

ويمكن أن نعتبر أن الأساطير والملاحم والمعتقدات الدينية البدائية هى محاولات لتفسير العالم الذى نعيش فيه، ولتفسير تفاعلنا مع هذا العالم. ومنها ندرك أن الإنسان البدائى قد **وَعَى ثنائية الروح/ العقل ـ الجسم** عندما نظر إلى نفسه، وأنه اعتبر أن **الروح هى محرك الجسم وسر حياته**.

جولة حضارية وفلسفية

قلت لكارل بوبر، أراك ـ سيدى ـ فى حديثك عن نظرة العقل للذات الإنسانية، قد انتقلت من الحديث عن الحضارات البدائية إلى الحديث عن هوميروس، **وأغفلت مفاهيم حضارات راسخة** سادت قبل هوميروس وقبل الفلسفة اليونانية، كالحضارة المصرية القديمة، وحضارات بين النهرين، وحضارات الهند والصين وأمريكا الجنوبية، فلماذا؟

أجابنى بوبر: تُعتبر نظرة الإنسان لذاته فى الحضارات التى ذكرتها **مزيج من نظرة العقل**

(١) **الشامانية Shamanism**: ظاهرة دينية نشأت فى التبت، وموجودة فى أنقى أشكالها فى سيبريا وآسيا الوسطى وعند السكان الأصليين بالأمريكتين. والشامان سحرة دينيون يقولون إن لديهم القدرة على السيطرة على الأرواح ومعالجة المرضى والتواصل مع الموتى، ويؤمنون بوجود عالم محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف.

(٢) **هوميروس Homer**: شاعر ملحمى إغريقى، يُعتقد أنه مؤلف ملحمتى الإلياذة والأوديسة اللتين تدوران حول حروب طروادة ـ ربما عاش عام ٨٥٠ ق. م. تقريبًا.

(٣) جاء ذكر الروح/ العقل عند هوميروس بثلاثة ألفاظ: **تايموس** Thymos: قوام الروح ـ الروح البخارى ـ المادة النشطة الفعالة الشاعرة المفكرة المرتبطة بالدم، وهى تتركنا حين يُغمَى علينا أو مع النَفَس الأخير قبل الموت.
سايك Psyche: وهى البقية التعسة التى تبقى عندما نموت، أو الشبح غير المفكر الذى يبقى بعد الموت.
نوس noos – nous: وهى تقابل العقل mind أو الفهم understanding

والفكر الدينى، أما أكمل محاولات النظر العقلى إلى الذات الإنسانية بمعزل عن الديانات فنراها فى الفلسفة اليونانية، التى يمكن الرجوع بميلادها إلى القرن السادس قبل الميلاد على يدى **طاليس**[1] **اليونانى**. فهذه الفلسفة هى الأولى فى التاريخ التى تفرغ فيها أصحاب العقول الحكيمة للتأمل فى الوجود وفى النفس البشرية، حيث تركت طبقية المجتمع لفئات أخرى المهام العسكرية والحِرَفية والخِدَمِّية.

ويمكن التأريخ لنهاية الفلسفة اليونانية **بشيوع الفكر المسيحى فى القرن السادس الميلادى**، فمنذ ذلك الحين اصطبغت الفلسفة بالفكر الدينى ولم تعد عملًا عقليًّا مجردًا، وظلت على هذا الحال حتى نهاية العصور الوسطى فى أوروبا، قبل أن تعود ـ مرة أخرى ـ عملًا وعقليًّا مجردًا فى ظل الفلسفة الحديثة على يَدَىَّ **رينيه ديكارت**.

ولا شك أنك تعلم **أن الفلسفة الإسلامية** لم تكن عملًا عقليًّا رائدًا، كما لم تكن طرحًا للقضايا الوجودية بالمنظور الإسلامى الصحيح، لكنها كانت محاولة للتوفيق بين الفلسفة اليونانية ـ خاصة مفاهيم أرسطو وأفلوطين[2] ـ وبين المنظور الإسلامى، ويرجع ذلك إلى تأثر ـ بل انبهار ـ الفلاسفة المسلمين بهاتين القمتين. أما الفلسفة الإسلامية الخالصة فتجدها فى **علم الكلام ورسائل إخوان الصفا**.

وأضاف بوبر: لذلك فسأكتفى فى طرحى لنظرة العقل (الفلسفة) للذات الإنسانية على اجتهادات **الفلاسفة اليونانيين ثم الفلاسفة المعاصرين**، وذلك لقصر الطرح على إنجاز العقل البشرى المجرد فى هذا المجال. ولا شك أن الإحاطة بهاتين المرحلتين أمر مستحيل، لذلك سيقتصر طرحى على بعض النماذج التى تمثل **محطات هامة** فى مسار الفكر الإنسانى.

وافقت كارل بوبر على رؤيته لمسار الفلسفة، وقلت له: فلنبدأ بالفلسفة اليونانية التى تعتبرها الرائدة فى النظر العقلى الصِرْف للذات الإنسانية.

---

(١) **طاليس Thales** (٦٢٤ ـ ٥٤٦ ق. م.).

(٢) **فيلسوف الإسكندرية أفلوطين** (٢٠٤ ـ ٢٦٩م)، يُعرف منهجه بالأفلاطونية الحديثة التى مزج فيها بين فلسفة أفلاطون اليونانى وبين الفكر المسيحى.
وعندما تصدى أفلوطين لكيفية الخلق، تردّى فى هوة من الأوهام حين رأى أن الله لا يمكن أن يخلق العالم مباشرة، لأنه لو خلقه مباشرة لاضطر للاتصال به، وهو منزه عن ذلك، كما أن الواحد لا يصدر عنه العالم المتعدد! وللخروج من هذا المأزق طرح **نظرية الفيض وتعدد الوسائط**؛ فهو يرى أن تفكير الله فى نفسه فاض عنه (العقل)، ومن العقل انبثقت (نفس العالم)، ومنها انبثقت (النفوس البشرية) كما انبثقت (الطبيعة). بذلك تصبح نفس العالم وسيط بين العقل وبين العالم المحسوس. لقد أخذ كبار الفلاسفة الإسلاميين الكثير عن أفلوطين، فتجد فلسفاتهم مليئة بهذه الترهات (الفيض ـ الانبثاق ـ العقول ـ النفوس ـ...) التى ليس لها أى أصل إسلامى. ويطلق الفلاسفة الإسلاميين على الأفلاطونية الحديثة اسم مذهب (الإسكندرانيين) ويسمون أفلوطين (**الشيخ اليونانى**).

الفلسفة اليونانية[1]

بدأ كارل بوبر عرضه لنظرة الفلسفة اليونانية للذات الإنسانية بقوله: لقد تميزت نظرة الإنسان لذاته فى معظم مراحل الفلسفة اليونانية **بإدراك ثنائية الروح/ العقل ـ الجسم**، وإن كانت هذه الثنائية قد مرت ـ فى تفاصيلها ـ **بثلاث مراحل**:

(١) **الفلسفة اليونانية**: يؤرخ المؤرخون لبداية الفلسفة اليونانية بالفيلسوف **طاليس** فى القرن السادس قبل الميلاد، ويحددون نهايتها بالقرن السادس ميلاديًّا حين انتشرت المسيحية.

ويمكن تقسيم هذه الفترة إلى أربع مراحل.

المرحلة الأولى: ما قبل سقراط. وكانت الفلسفة فيها تعنى بدراسة الكون الطبيعى الملموس.

المرحلة الثانية: عصر السوفسطائيين وسقراط. وفيه بدأ السوفسطائيون تعليم الناس التغلب على الخصم بالحق وبالباطل. وكانوا يُحَقِّرون العقل ويعتمدون على براهين الحواس، ثم وصل بهم الأمر إلى إنكار المحسوسات ثم إنكار الإنسان لنفسه! وقام سقراط بمحاربة هذه المدرسة والقضاء عليها وإعادة الاحترام للعقل.

المرحلة الثالثة: مرحلة أفلاطون وأرسطو. نشط فيها الاهتمام بالغيبيات والإلهيات وعالم ما وراء الطبيعة.

المرحلة الرابعة: مرحلة ما بعد أرسطو. وفيها انتقلت الفلسفة من البحث فى الغيبيات إلى البحث العملى فى الإنسان (أخلاقه ـ سعادته ـ سلوكه). ونشطت فى هذه المرحلة مدرستان: **الرواقيون**، وكانوا من الشكاكين فى مسائل الألوهية، والشكاكين فى قدرة العقل على التمييز بين الحق والباطل. **والأبيقوريون**، الذين أعادوا الاهتمام إلى الإدراك الحسى، واعتبروا السعادة هى الحصول على اللذة الحسية. ويُنظر إلى المرحلة الرابعة كمرحلة تدهور واضمحلال.

ويمثل أرسطو وأفلاطون وسقراط **الثالوث الفلسفى الأعظم فى الفلسفة اليونانية القديمة**، وكان الثلاثة من الفلاسفة المؤلَّهة، وكان أرسطو تلميذًا لأفلاطون، الذى كان تلميذًا لسقراط.

أرسطو Aristotle: (٣٨٤ ق. م. ـ ٣٢٢ ق. م). من أعظم الفلاسفة عبر العصور، يلقب بالمعلم الأول، وكان أستاذًا للإسكندر الأكبر. إبداعاته فى المجالات العلمية (الفيزياء ـ الفلك ـ البيولوجيا) تنافس إبداعاته فى العلوم الإنسانية (الفلسفة ـ السياسة ـ الأخلاق ـ المسرح ـ الموسيقى ـ الإلهيات). وهو واضع أسس القياس فى علم المنطق؛ لذلك عُرِف بالقياس الأرسطى. وقد تبنت الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى الأفكار العلمية لأرسطو، ووضعتها فى منزلة مقدسة لا يجوز للعلماء الخروج عنها، وكان ذلك سبب ما واجه جاليليو وغيره من العلماء من اضطهاد كَنَسى.

أفلاطون Plato: (٢٤٨ ق. م ـ ٣٤٧ ق. م). فيلسوف اليونان العظيم المهتم بالأخلاق والـمُثل العليا، وقد عبر عما ينبغى أن تكون عليه حياة الناس فى المدينة الفاضلة فى كتابه «الجمهورية». وهو مؤسس أكاديمية أثينا، التى تُعتبر أول مدرسة للدراسات العليا فى الغرب القديم. وله اهتمام بالرياضيات. كما دَوَّن محاوراته مع أستاذه سقراط بأسلوب نقل إلينا أفكارهما، ولولا هذه المحاورات ما نقل التاريخ لنا شيئًا عن سقراط.

سقراط Socrates: (٤٧٠ ق. م ـ ٣٩٩ ق. م). صاحب إضافة عظيمة للفلسفة، فبعد أن كانت تقتصر على دراسة الأصل المادى للكون والحياة (التراب ـ الماء ـ الهواء ـ النار)، أضاف إليها الاهتمام بالأخلاق والقيم العليا. وأعاد الاحترام للعقل. وله اهتمام كبير بالمنطق وأصول المعرفة. سجل له التاريخ موقفه الشهير عندما حكمت عليه محكمة أثينا بالإعدام عن طريق تجرع السم، بتهمة إفساد عقول الشباب!! فرفض الهرب من السجن بالرغم من الفرصة المتاحة، حتى يعطى الشباب القدوة فى الامتثال لنظام الدولة، التى قَبِل أن يحيا تحت قانونها، ولأنه يؤمن بأن الفيلسوف لا ينبغى أن يخاف من الموت الذى يحرر الروح من سجن الجسد.

المرحلة الأولى: الروح/ العقل موجود مادى

بالرغم من أن فلاسفة هذه المرحلة نظروا إلى الروح نظرة مادية، إلا أنهم وضعوها فى **منزلة استثنائية داخل العالم المادى**. فهذا **أنكسيمينيس**[١] يرى أن **الروح نَفَس بخارى**، وأنها هواء يدخل من «الكُل» إلى داخل الحيوانات عندما يتنفسون، وكلمة «**الكُل**» تعنى أن **العالم متشرب بخامة روحية واحدة**. وقد اختارت هذه المدرسة أن تكون الروح **جزءًا من الهواء**؛ لأنه الأرهف والأخف بين الأشكال المعروفة للمادة.

وكان **أنكساجوراس**[٢] يميز تمييزًا حادًا بين العقل وبين جميع الجواهر المادية الأخرى. فهو يرى أن العقل هو أكثر الأشياء تخلخلًا وأكثرها نقاءً، وأن **لديه المعرفة المتصلة بكل شىء، بل هو المتحكم فى كل ذى حياة**.

وقد فسر **هيراقليطس**[٣] (أبعد الماديين عن النظرة الميكانيكية) الجواهر المادية جميعًا (وبخاصة الروح) باعتبارها «**عمليات مادية** Material processes»؛ فجميع الأشياء المادية فى تدفق دائب يحكمه القانون (Logos). وقد نظر إلى الروح باعتبارها **نارًا**، فالنار هى الأفضل والأقوى والأنقى والأرهف.

وتمسكت مدرسة **المفكرين الطبيين** بمادية وثنائية الروح/ العقل ـ الجسد. ويُعتبر **ألكميون**[٤] أول مفكر إغريقى يحدد موضع الإحساس والفكر (اللذين يميز بينهما تمييزًا حادًا) فى **الدماغ**[٥]. كما تحدث عن مسارات تؤدى من أعضاء الحس إلى الدماغ.

وتُعتبر **رسالة أبقراط الطبية**[٦] بعنوان «عن المرض المقدس» On the Sacred disease هى الأهم فى هذا الشأن، ففيها يؤكد أن **الدماغ** تخبر الأعضاء كيف تعمل، وأن الدماغ هو الرسول إلى الوعى[٧]، وأن الهواء (الروح) هو الذى يمنح الدماغ الذكاء.

(١) **أنكسيمينيس Anaximenes**: (٥٨٥ ـ ٥٢٨ ق. م).

(٢) **أنكساجوراس Anaxagoras**: (٥٠٠ ـ ٤٢٨ ق. م).

(٣) **هيراقليطس Heraclitus**: (٥٣٥ ـ ٤٧٥ ق. م).

(٤) **ألكميون من كروتون Alcmaeon of croton**: فيلسوف وطبيب يونانى (٥١٠ ـ ؟ ق. م).

(٥) تمسكت بهذا المفهوم مدرستى أبقراط وأفلاطون، أما أرسطو فقد تمسك بمفهوم أقدم، فاعتبر أن القلب هو جهاز الحس العام، وبالتالى هو مركز الوعى، واعتبر أن دور الدماغ هو تبريد الدم باستخدام الهواء (مثل راديا‌تور السيارة).

(٦) **أبقراط Hippocrates**: الطبيب اليونانى العظيم (٤٦٠ ـ ٣٧٠ ق. م). يلقب بأبى الأطباء لتأسيسه علوم الطب على المنهج العلمى. ووضع قسم أبقراط الذى يؤديه الأطباء حتى الآن عند ممارستهم للمهنة، مؤكدين التزامهم الأخلاقى تجاه المرضى وزملائهم ومهنتهم.

(٧) الكلمة المقابلة للوعى هى sunesis، وتُترجم نفس الكلمة أيضًا إلى الذكاء والحكمة والفهم.

النظرية الذرية

ولا يمكن دراسة النظرة المادية لثنائية الروح/ العقل ـ الجسم دون الاستماع لكلمة **ديمقريطس**[1] صاحب **النظرية الذرية**، فهو الأعظم والأكثر اتساقًا بين المفكرين الماديين. وقد فسر جميع العمليات الطبيعية والجسدية والعقلية والنفسية **تفسيرًا ميكانيكيًّا** يعتمد على حركة الذرات واصطدامها، وعلى اتحادها (تركيبها) وانفصالها (تفكيكها). ويرفض ديمقريطس تمييز الروح بأصل مختلف عن الجسم كالهواء أو النار، ويرى (من خلال فيزيائه الذرية) أن **الروح تتكون من أصغر الذرات المادية**، وهى مستديرة وقادرة على الانسياب خلال أى شىء، وقادرة على تحريك الذرات الأخرى عن طريق اصطدامها بها.

ويرى ديمقريطس أن ذرات الروح تتوزع فى كل أجزاء الجسم، وأن للروح جزأين؛ الأول هو العاقل وموقعه **القلب**، بينما يتفرق الجزء الآخر فى **باقى الجسم**.

سألت بوبر: ذكرت فى بداية حديثك عن الفلسفة اليونانية أن فلاسفتها يؤمنون بثنائية الروح/ العقل ـ الجسم، ألا ترى فى النظرية الذرية لديمقريطس نوعًا من الواحدية؟

ابتسم بوبر وقال: صحيح أن **ديمقريطس كان ماديًّا ذريًّا أُحاديًّا**، لكنه فى نفس الوقت كان **يتبنى نوعًا من الثنائية!** انظر إليه وهو يخص العقل/ القلب بجزء معين من الروح، كما يطالب بأن يهتم البشر بوضع قانون (أو تصور أو نظرية) عن الروح أكثر من اهتمامهم بقوانين الجسد، ذلك لأن كمال الروح يُصلح خلل الجسد، ولكن القوة الجسدية بدون تعقل لا تُصلح الروح. وكان يقول؛ مَن اختار خيرات الروح فقد اختار ما هو الأكثر ألوهية، ومن اختار خيرات الجسد فقد اختار الأكثر بشرية، وكان يُعَلِّم تلاميذه أن مَن ارتكب ظلمًا هو أكثر تعاسة ممن يقع عليه الظلم.

المرحلة الثانية: إضفاء الصبغة اللامادية على الروح/ العقل

إذا كانت المذاهب السابقة ترى أن ماهية[2] الروح هى جوهر مادى، فقد نظرت مذاهب لاحقة إلى الروح باعتبارها **لا جسمية**. وربما كانت أكثر الماهيات بُعدًا عن الجسمية هى ما تطرحه «**النظرية الفيثاغورثية**»[3].

(١) **ديمقريطس Democritus**: فيلسوف يونانى (٤٦٠ ـ ٣٧٠ ق. م).

(٢) «**ماهية**» **الشىء Essence** هى طبيعة الشىء. أى ما يتعين أن يكون عليه الشىء ليكون هو، أو ليكون من النوع الذى هو منه.

(٣) تُنسب إلى الفيلسوف والرياضى اليونانى الكبير فيثاغورس Pythagorus (٥٨٠ ـ ٤٩٧ ق. م)، وقد درس فى مصر سنوات عديدة.

ففى هذه النظرية، تأخذ **الأعداد والعلاقات بينها** (كالنسب Ratios والتآلفات Harmonies) مكان الأصول الجوهرية فى المدارس المادية (كالهواء والنار)، وهذا تغير جذرى.

ولتبسيط هذا المعنى نشير إلى **النظرية الفيثاغورثية الرياضية الخاصة بالمثلث قائم الزاوية**، فهى تنص على أن مجموع مربعى ضلعى المثلث يساوى مربع الوتر: (أ ب)^{٢} + (ب جـ)^{٢} = (أ جـ)^{٢}.

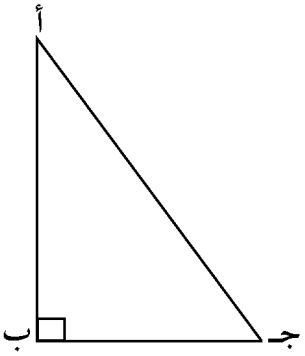

فعلى سبيل المثال (٤)^{٢} + (٣)^{٢} = (٥)^{٢}.

١٦ + ٩ = ٢٥

إن هذه العلاقة الرياضية هى «**الحقيقة الجوهرية**» **وراء المثلث قائم الزاوية**، وبدونها ما كان لهذا المثلث وجود. ونفس الشىء يقال عن **الأنغام الموسيقية** التى تحددها تخانات وأطوال الأوتار، وكذلك الأوزان الشعرية.

لذلك يرى الفيثاغورثيون **أن الحقيقة بصفة عامة هى العدد، وأن النسب والعلاقات الرياضية بين الأعداد هى مصدر الظواهر والأشياء الطبيعية.** أى **أن الموجودات الطبيعية مجرد محاكاة للأعداد الحقيقية.** وبعبارة أخرى؛ **تُصَب الموجودات الطبيعية فى قوالب رياضية تشكل ماهيتها.** وعلى ذلك فإن **المبادئ الرياضية هى القوانين التى تنظم الطبيعة وتتحكم فيها.** ومن ثم **لا يمكننا تفسير الطبيعة المادية للوجود إلا من خلال الرموز الرياضية.**

وعند تطبيق هذا المفهوم على **الروح**، تقابلنا نظريتان اندرجتا تحت اسم الفيثاغورثية. الأولى، ترى أن الروح الخالدة للإنسان هى تآلف أو تناغم لأعداد مجردة، وأن هذه الأعداد وعلاقاتها **سابقة على الجسد وباقية من بعده**[١]. وترى النظرية الثانية أن الروح هى **تآلف أو تناغم للجسد** مثل تآلف أو تناغم أوتار القيثارة[٢].

ويمكن النظر إلى هاتين النظريتين باعتبارهما متكاملتين وتصفان نوعين من الروح؛ الأولى تصف **روحًا خالدًا أعلى**، والأخرى **روحًا أدنى يرتبط بالجسد.**

وتبعًا لمفهوم الفيثاغورثيين، يمكن تصور أن **الجسد يتم تشكيله بناء على صورة مسبقة تحددها الروح** (تآلف ونسب الأعداد).

(١) تنسب هذه النظرية لفيثاغورث نفسه، أو لـ فيلولاوس الفيثاغورثى المعاصر لديمقريطس وسقراط.
(٢) تنسب هذه النظرية إلى سيمياس من تلامذة فيلولاوس.

ويشارك الفيثاغورثيين النظر إلى الروح/ العقل، باعتبارها **ماهية لا جسمية**، كل من سقراط وأفلاطون وأرسطو وأفلوطين والقديس أوغسطين وغيرهم من المفكرين الدينيين والديكارتيين.

بين أفلاطون وأرسطو

وأضاف بوبر: وإذا كانت **الروح** عند الفيثاغوريين هى العلاقات بين الأعداد، فإن الروح **عند أفلاطون** هى **الماهية التى يتشكل تبعًا لهيئتها وقوانينها الجسد**، وتعرف هذه الماهية عند أفلاطون **بالصور أو الأفكار أو المُثُل**. ونظرية **أرسطو** للروح قريبة من ذلك، فهو يصف الروح بأنه **كمالٌ أول للجسم الحى**، والكمال الأول هو تقريبًا صورته أو ماهيته. والفرق الرئيسى بين النظريتين أن الروح عند أرسطو يكدح تجاه غاية وهدف يسعى نحو الكمال. أما الروح عند أفلاطون فقد خلقه الله على أفضل ما يكون، ومن ثم لا يسعى نحو شىء أفضل، أى أنه روح محافظ[1].

أما عن **علاقة الروح/ العقل ـ الجسم** فينظر إليها أفلاطون من **زاوية أخلاقية وليست ميكانيكية**. فهو يعتبر أن الجسم بمثابة سجن للروح، وفى نفس الوقت ينبغى أن يكون الروح/ العقل حاكمًا على الجسم وشهواته، وفى النهاية يصف أفلاطون الروح بأنه رُبَّان الجسم.

وفى علاقة الروح/ العقل ـ الجسم **يستلهم أرسطو البيولوجيا وليس الأخلاق**، فهو يرى وجود **التفاعل** بين وعينا الذاتى وبين أحاسيسنا الجسمية، وكذلك بين الغرائز (الأجزاء الدنيا غير العاقلة من الروح) وبين العقل (الأجزاء العليا من الروح).

والمدهش، أن أفكار أرسطو تَسْتَبِق ـ فى بعض النواح ـ **التطور البيولوجى**. فهو يحدد ثلاث مستويات للروح؛ **الروح الغاذية** الموجودة فى كل الكائنات ابتداء من النباتات، **والروح الحاسة** التى هى مصدر الحركة والموجودة فى كل الحيوانات، **والروح العاقلة** التى لا توجد إلا فى الإنسان، وهذه الأخيرة واعية بذاتها وخالدة. أى أنه يقول بروح تتطور مع تَعَقُّد الكائنات.

ثالثًا: التصور الأخلاقى للروح/ العقل

فى تطور النظرة إلى الروح والعقل والنفس يلعب تطور النظرة الأخلاقية دورًا عظيمًا.

فعند **هوميروس**، تقابلنا مشكلة. فالروح الخالدة للأفراد العاديين **تحيا فى وضع فظيع محبط**، إنها تُعاقَب من غير جرم، وتعانى لا لشىء، إلا لأن المعاناة جزء من كونها ميتة.

(١) يجمع التصور الإسلامى بين النظرتين. فالروح الذى يسعى نحو الكمال عند أرسطو يقابله (**النفس**)، أما روح أفلاطون الذى خلقه الله على أفضل ما يكون فيقابله (**الروح**) الذى هو نفخة إلهية.

وقد أدت **الديانة الأورفية**[1] إلى تغير هذا الاعتقاد، فصار هناك وعد بعالم أفضل لمن آمن بالدين الحق ومارس الطقوس الصحيحة. ومع **سقراط وديمقريطس** تتأكد الفكرة وتتسامى النظرة، حيث **يؤتَى الفعل الأخلاقى من أجل ذاته فحسب**، فهو ليس ثمنًا يُدفع من أجل مقابل موعود فى حياة قادمة. وقد أدرك سقراط بوضوح أن المادية لا تتعارض مع التعاليم الأخلاقية والإنسانية المستنيرة، وقد أثبت ذلك حين آثر أن يموت بشرب السم كما حكم عليه قضاة أثينا على أن يفر من السجن ويولى الأدبار.

وقد انعكس هذا الموقف الأخلاقى على **أفكار الفيثاغورثيين**، فهم يؤمنون ببقاء الروح وتناسخها أو مسخها. فالروح تُكافأ أو تُعاقَب على فعلها تبعًا لسلوكها الحياتى. أما عند أرسطو، فيتلخص البُعد الأخلاقى للعلاقة بين الروح/ العقل ـ الجسم فى قوله: أَيًّا تَغَيُّر يعترى حالة النفس فإنه يفضى إلى تغير فى شكل الجسد، والعكس صحيح.

وختم بوبر حديثه عن الفلسفة اليونانية قائلًا: إذا أردنا **أن نُلَخِّص نظرة الفلسفة اليونانية للذات الإنسانية**، وجدنا معظم الفلاسفة يعتبرونها **بنية ثنائية من روح/ عقل وجسم**. وإذا كان لا اختلاف فى نظرتهم إلى الجسد باعتباره مكون مادى، فقد **تراوحت نظرتهم للروح ما بين المادية واللامادية**. كما يوجد بين هذين المكونين **تأثير متبادل وعلاقة تفاعلية** غير ميكانيكية، باستثناء الفلاسفة الذريين الذين اعتبروا هذا التفاعل تفاعلًا ميكانيكيًّا.

الفلسفة الحديثة[2] Modern philosophy

قلت لكارل بوبر؛ ذكرت أنك بعد الحديث عن الفلسفة اليونانية، ستحدثنا عن بعض النماذج التى اهتمت بقضيتنا فى الفسلفة الحديثة، فأيها ستختار؟

قال بوبر: من السمات البارزة للفلسفة الحديثة **شدة تباين اجتهادات فلاسفتها**، فتراوحت ما بين مادى مُغْرِق فى المادية، وروحانى مغرق فى الروحانية، وهناك مَن لم يكتف بإنكار وجود الروح/ العقل بل شطح إلى إنكار وجود نفسه بالكلية. لذلك سأحدثك عن شخصيات قَدمَّت إسهامات مهمة باقية فى مجال الذات الإنسانية.

(١) الديانة الأورفية Orphism: مجموعة من المعتقدات الدينية اليونانية القديمة، ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد. وقد صاغ الشاعر أورفيس هذه المعتقدات فى قصائده، فنسبت إلى اسمه.

(٢) ظهرت **الفلسفة الحديثة** فى أوروبا الغربية فى القرن السابع عشر، ويعتبر رينيه ديكارت هو مؤسسها، وتنتهى فى بدايات القرن العشرين، حين استُبدلت بفلسفة ما بعد الحداثة Post - Modernism، التى أسسها الفيلسوف الألمانى لودويج ودجنشتين Ludwig Wittgenstein. وتشمل الفلسفة الحديثة عددًا من المدارس، منها المادية الجذرية، والعقلانية، والمثالية، والتجريبية، والوجودية،...

مبدأ التفاعل لديكارت R. Descartes

وأضاف بوبر؛ إن الدارس للفلسفة الغربية الحديثة لا بد أن يكون مدخله عبر مؤسسها وبوابتها الرئيسية، وأبو الفلسفة العقلانية، **الفيلسوف الأشهر رينيه ديكارت**[1].

وإذا بدأنا عرضنا **بكوزمولوجيا ديكارت (نظرته إلى الكون)** نجد أنه ينظر إلى العالم بوصفه **آلة ميكانيكية أوتوماتيكية ضخمة ذات ترس**، وأن جميع النباتات والحيوانات جزء من هذه الآلية الميكانيكية.

ويرى ديكارت أن **الجسد الإنسانى** يتميز على هذه الآلية بأن له **حركة إرادية**، وينظر إلى **العقل الإنسانى باعتباره الاستثناء الوحيد فى العالم كموجود لا مادى قادر على التحكم فى حركات الجسم المادية، وقادر أيضًا على إدراك القوى الفيزيائية المادية** (الضوء والصوت والملموسات..)، لذلك يعتبر ديكارت أن **الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يتمتع بحياة حقيقية**.

أما بخصوص مشكلة التفاعل بين الروح/ العقل والجسم، وكيف يتسنى لوجود غير مادى أن يؤثر فى عالم مادى يعمل بآليات عمل الساعة ويعتمد على الدفع الميكانيكى، يطرح ديكارت ما يُعرف بـ «**مبدأ التفاعل**». يبدأ ديكارت طرحه بأن يُعَرِّف **الجسم (المادة)** بأنه شىء ممتد فى المكان ثلاثى الأبعاد، أما **العقل غير المادى فهو غير ممتد لكنه متموضع فى المكان**. ومن ثم **فالنفس** ـ عند ديكارت ـ جوهر مفكر يتموضع فى الغدة الصنوبرية، ويتحكم فى **الروح الحيوانى** (الذى هو جزء من الجهاز الجسمى الميكانيكى). وهذه الروح عبارة عن سوائل من صنف نادر جدًّا يقوم فى الحيوانات والإنسان بالكثير من العمل الآلى للدماغ، وينتقل فى الأعصاب ليربط الدماغ بأعضاء الحس والعضلات والأطراف. ويمكن النظر لهذا التصور كاستباق من ديكارت لمفهوم الإشارات العصبية الكهربائية.

وفى نفس الوقت يعترف ديكارت بأننا لا نستطيع أن نعرف كيف يتم هذا التواصل بين الروح والمادة، وبالتالى يؤكد أنه **آية من آيات الخلاق الحكيم القادر**.

قلت لبوبر: لا شك أن معظم الفلاسفة قد تلقوا مبدأ التفاعل لديكارت بالقبول، أولًا لوجاهته العقلية، وثانيًا لمنزلة ديكارت عندهم. لكن هل ثَمَّ مُعتَرض؟

(١) **رينيه ديكارت Rene Descartes**: الفيلسوف الفرنسى الكاثوليكى (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠م). يتبنى (مع سبينوزا وليبنتز) الفلسفة العقلانية (المنطقية) Ratisnalism. وإسهاماته فى الرياضيات لا تقل عن إسهاماته فى الفلسفة. ويُعد أبو الفلسفة الحديثة، حتى إن كل فيلسوف جاء بعد ديكارت ـ وحتى الآن ـ تأثر به إيجابًا أو سلبًا، وكلهم يرددون مفاهيم ديكارتية مؤيدين أو معترضين. وقد اشتهر عنه قوله (أنا أفكر ـ إذًا أنا موجود).

أجابنى بوبر: كان هناك من رَأَى **استحالة التفاعل بين الروح (كجوهر لا مادى) والجسم (كجوهر مادى)**. وقد رد ديكارت هذا الاعتراض بأن استحالة التفاعل بين جوهرين مختلفين **افتراض زائف لا يمكن إثباته** بأية وسيلة كانت. كما تصدى بعض الديكارتيين لهذا الاعتراض بأن الله يتدخل بشكل مباشر فى بعض المواقف (المناسبات) لإنجاز بعض المهام، ومنها هذا الموقف. ويُطلق على هذا التفسير «**مبدأ المناسبة occasionalism**».[1] **والفيزياء الحديثة** فى جانب رأى ديكارت، إذ أثبتت أن الأجسام تؤثر فى بعضها من خلال وسيط هو مجالات الطاقة (حقول Fields)، فالجسم يُعَدِّل فى المجالات المحيطة، عندئذ يؤثر المجال المُعَدَّل على جسم آخر، وهكذا. أى أنه **ليس ضروريًّا أن يقتصر التأثير على المتشابهات**، كما اعتقد منتقدو ديكارت.

قلت للفيلسوف الكبير؛ أرى جوانب شبه كثيرة فى نَظْرَتَىّ ديكارت وسلفه العظيم أرسطو تجاه الكون والإنسان، فهل توافقنى على ذلك؟

أجابنى بوبر: لا شك أن كلا الفيلسوفين الكبيرين يتفقان فى جوانب ويختلفان فى جوانب، فهما يتفقان فى قولهما بمذهب لا مادية الروح ومذهب التفاعل المتبادل بين الروح/ العقل والجسم، وأيضًا فى أخذهما بفكرة التفسير الماهوى[2]. أما بالنسبة لجوانب الاختلاف، فإن عالم ديكارت **عالم ميكانيكى لا حياة فيه** (حتى النباتات والحيوانات)، والاستثناء الوحيد هو **الإنسان** الذى يتمتع بحياة حقيقية. أما عالم أرسطو فيسعى كله (الجمادات ـ النباتات ـ الحيوانات ـ الإنسان) **نحو أهداف وغايات**.

منهج ديكارت لمعرفة الإنسان لذاته وللإله

قلت لبوبر، نسمع كثيرًا قولًا يُنسب لديكارت، وهو (**أنا أفكر ـ إذًا أنا موجود**)، فما مدى حجية هذا البرهان وكيف توصل إليه؟

أجابنى بوبر: عندما نظر ديكارت إلى **وسائل المعرفة**، رأى أنها عبارة عن **الحواس الخمس** التى تُدرِك المحسوسات، وكذلك **العقل** الذى تُدرَك به المعقولات. ووجد أن الحواس والعقل كثيرًا ما يخطآن، ومن ثم لم يبق لنا وسائل نثق بها ونعتمد عليها فى معرفة الحقيقة. بعد هذا **الشك فى وسائل المعرفة**، عاد ديكارت **وجعل من البرهان على الشك برهانًا على اليقين**، وعَبَّر

(١) من الفلاسفة القائلين بذلك: جلوبرج كورديموى ـ دى لافورج ـ مالبرانش.

(٢) **التفسير الماهوى**: نسبة إلى ماهية الشىء، وهى طبيعته. والمقصود منه أن الشىء يحمل الصفات التى تحدد طبيعته.

عن ذلك ببيان ساحر وحجة بالغة حين قال: مهما شككتُ فى حواسى وعقلى، وشككتُ فى وجود العالم فإنه ستبقى لى حقيقة واحدة لا يمكن الشك فيها، بل إنها تزداد يقينًا كلما ازددت شكًا، وهذه الحقيقة هى «**أننى أشك**»، والشك تفكير، إذًا **أنا أفكر**. والتفكير لا يكون إلا من **ذات مفكرة، التى هى أنا**، وحتى لو حاولت أن أشك فى أنى أفكر، **فهذا الشك نفسه دليل على أنى أفكر**. ولما كان التفكير يحتاج إلى وجود ذات مفكرة، إذًا فإدراكى العقلى بأنى موجود إدراك صادق، مثلما أن إحساسى بأنى موجود إحساس صادق.

من هذه القاعدة (أنا أفكر ـ إذًا أنا موجود)[1] أثبت ديكارت **صدق الحواس وصدق العقل، ومن ثَمَّ أثبت وجود الذات الإنسانية.**

ويضيف ديكارت **دليلًا آخر على وجود الذات الإنسانية** من خلال **تقسيمه للأفكار** إلى ثلاثة أقسام: **أفكار مباشرة** تتجمع لدينا بشكل مباشر من المُدرَكات الخارجية للحواس، بدون إعمال الذهن. وأفكار صُنعية تشكلها عقولنا مما نتلقاه. وأفكار فطرية[2] مركوزة فى عقولنا. ويرى ديكارت أن القسمين الأولين عرضة للخطأ، أما الأفكار الفطرية (فى حالة سلامة العقل) فسالمة من الخطأ لأنها جزء أساسى من تكوين عقولنا، واعتمادًا عليها نبنى أحكامنا اليقينية كلها. ومن أهم هذه الأحكام، اليقين الفطرى بأننا موجودون.

ولإثبات الوجود الإلهى، ينطلق ديكارت من قاعدتين فطريتين بديهيتين يقينيتين، وهما أن «الشىء لا يصدر من لا شىء»، وأن «الشىء لا يمكن أن يكون أكبر من مُسببه»، ويترقى ديكارت من هاتين البديهيتين إلى الاستدلال على وجود الله بـ «**دليل الحدوث**» و«**دليل الوجوب**»، فيقول: أنا موجود حادث، وأنا لم أَخلق نفسى، إذًا لا بد لى من خالق. وهذا الخالق لا بد أن يكون واجب الوجود (غير محتاج إلى من يوجده أو يحفظ له وجوده)، وهذا الخالق لا يمكن أن يكون إلا إله بارئ لكل شىء وأكبر من كل ما بَرَأ.

أعجبتنى الحُجِّية والبساطة والوضوح فى استدلال ديكارت على وجود الذات الإنسانية ووجود الذات الإلهية، ووجدت أن أدلة الربوبية عنده تتمشى تمامًا مع «**علم الكلام**» **الإسلامى**، بل إن ديكارت ـ فى أكثر من موضع ـ يعلن أنه أخذ عن علم الكلام.

(١) (Je pense donc Je suis)
(I Think - Therefore I am)

(٢) من أمثلة الأفكار الفطرية البديهية أن الجزء أصغر من الكل، وأن لكل شىء حادث سببًا.

مذهب التوازى لسبينوزا Spinoza [1]

ثم أضاف بوبر، وكبديل لمذهب التفاعل، طرح الفيلسوف الديكارتى سبينوزا «**مذهب التوازى**» **Paralleism**، الذى يرى أن ليس ثمة تفاعل بين العقل والجسم، بل هناك **تواز يوهم بالتفاعل**. فعندما يود عقل الإنسان (الإرادة) أن يحرك ذراعه ـ مثلًا ـ فإن الطرف يتحرك دون أن تكون هناك علاقة سببية، والعكس بالعكس؛ فإذا تحرك عضو يظن العقل أنه صاحب القرار. بينما فى الحقيقة هناك **تواز بين الإرادة والفعل، دون علاقة سببية**، ويؤمن سبينوزا أن ذلك كله **يتم بتدخل الرب**. ويعتبر المتدينون أن هذه المعجزات المتكررة. التى تحدث فى أتفه المناسبات تُجَرد المعجزات الدينية الحقيقية من طابعها الإعجازى ودورها الإيمانى، ومن ثم فقد رفضها المسيحيون المخلصون كما رفضها الشُكَّاك والملاحدة.

ثم قدم سبينوزا طرحًا **يحافظ على مفهوم التوازى دون الاحتياج للمعجزات المتكررة**، ويعتمد هذا الطرح على تعريف ديكارت لـ «الجوهر» بأنه الشىء الذى لا يعتمد وجوده على أى شىء آخر، ومن ثم **فالجوهر الوحيد (عند ديكارت وسبينوزا) هو الرب وليس الجسم ولا العقل**. وقد اعتبر سبينوزا أن العقل/ الوعى/ الفكر، وكذلك الامتداد/ المادة/ الجسمية صفتين متوازيتين **(وجهين) لهذا الجوهر الوحيد**، ومن ثَمَّ لا لزوم للجوء لتفسير المعجزات المتكررة.

ويشرح سبينوزا علاقة المادة/ الجسم والعقل (فى ظل مفهوم التوازى) بأنهما يمضيان متوازيين مثل **الوجهين الداخلى والخارجى لقشرة البيضة**. وفى المادة غير الحية، لا يكون الوجه الداخلى للقشرة واعيًا، ومع اندماج الذرات فى جزيئات عملاقة مكونة المادة الحية تنبثق من الوجه الداخلى للقشرة ذاكرة الجزيئات، وفى الحيوانات العليا تنبثق ذاكرة الوعى. وهذا المذهب يحقق للماديين ـ فى أسلوب بسيط ـ الراحة الفكرية، فهو يتبنى أن لا جديد تحت الشمس، وأن كل شىء كامن فى المادة.

وختم بوبر كلامه عن سبينوزا قائلًا: لعلك لاحظت مما ذكرتُ أن سبينوزا من القائلين **بوحدة الوجود Panthiesm** [2]، أى أن كل ما فى الوجود هو الله، إذ إن الوجود المادى والوجود غير المادى وجهان لجوهر واحد هو الإله.

---

(١) **سبينوزا B. spinoza**: الفيلسوف والرياضى الألمانى اليهودى (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧م) لُقب بأمير الفلاسفة. من المدرسة العقلانية مثل ديكارت.

(٢) لنا عودة فى هذا الفصل لمفهوم وحدة الوجود عند الحديث عن الهندوسية.

مذهب ليبنتز Leibniz [1]: التناسق سابق التقدير

وأضاف كارل بوبر: وهناك طرح آخر للمدرسة الدينية فى الفلسفة الحديثة بخصوص بنية الذات الإنسانية. فقد كان الفيلسوف ليبنتز ديكارتيًّا فى نظرته للروح/ العقل والجسم، لكنه خالف الديكارتيين فى كيفية التلاقى بينهما. فرفض تدخل الرب لإحداث التفاعل بين العقل والجسم (مذهب المناسبة)، كما رفض مذهب التوازى ومفهوم وحدة الوجود كما طرحهما سبينوزا. وكبديل، **قال ليبنتز بتعدد الجواهر** (الإله ـ الروح ـ المادة...) **مع تميز واختلاف جوهر الإله**، فهو الذى **خلق باقى الجواهر على صورته ووهبها درجات مختلفة من المعرفة والقوة.** وبناء على هذا الفهم، أنشأ ليبنتز مذهبه المعروف بـ «**التناسق سابق التقدير** pre-established harmony» الذى يقول بأن الله قَدَّرَ مُسبقًا أن تشعر عقولنا بما تفعل أجسامنا وأن تقوم أجسامنا بفعل ما تنواه عقولنا، وبالتالى لا يقتضى الأمر تدخلًا خاصًا من الرب فى كل مناسبة.

ويشرح ليبنتز مذهبه بقوله؛ إن كل خلجة عقلية تصاحبها حركة من الجسد كأن بينهما علاقة واتصال، وهما فى الحقيقة غير متصلين ولا متفاعلين، ولكن ما يظهر لنا من توافق وعلاقة سببية هو أثر للتناسق سابق التقدير الذى أسسه الإله. وأضاف كارل بوبر معلقًا؛ لا شك أن هذه النظرة تنتهى إلى **إلزام للبشر وجبرية لا تتناسب مع حكمة الله ﷻ وكماله.**

المذهب المادى بعد الديكارتيين

سألت بوبر: إلى ماذا آل حالُ الفلسفة المادية بعد المدرسة العقلانية ذات التوجه الإلهى، والتى مثلها ديكارت ثم سبينوزا وليبنتز؟ فأجابنى: اعتبر الديكارتيون أن الإنسان ليس مجرد آلة؛ لأنه يتكون من جسد وروح، وهم بذلك يُوَسِّعون الهوة بين الإنسان والحيوان. كان بوسع الماديين الذين يريدون دائمًا **تضييق الهوة بين الإنسان وغيره من الكائنات**؛ إما القول بأن الحيوانات أكثر من مجرد آلات، إذ إنها على درجة من الوعى، أو القول بأن الإنسان آلة ما دام يُصنَّف كحيوان. لم يتوقع أحد من قوم يُسَلِّمون بتفوق الإنسان على جميع الكائنات أن يُرَوِّجوا للرأيين معًا، فيقولون **إن الحيوانات أرقى من الآلات، وإن الإنسان آلة؛ أى أدنى من الحيوان!** [2]**، لقد أصابتهم المادية بلوثة.**

(١) **ليبنتز G. Leibniz**: الفيلسوف والرياضى الألمانى الشهير (١٦٤٦ ـ ١٧١٦م). يمثل مع ديكارت وسبينوزا أعمدة الفلسفة العقلانية، صاحب إنتاج غزير لم يتم جمعه كله حتى الآن.

(٢) هذا القول لـ: بيير بايل وجوليان أوفرى دى لامترى، مؤلفا كتاب «الإنسان آلة» عام ١٧٤٧، وكتاب «الحيوانات أكثر من آلات» عام ١٧٤٩.

وكانت نتيجة مثل هذه النظرة **شطحات مُغرقة فى المادية**، فقد عَمَّم **توماس هوبز**[1] النظرة الآلية المادية على جميع الموجودات، شاملة النفس البشرية، التى طعنها أيضًا فى منظومتها الأخلاقية؛ إذ اعتبر أن الخير هو ما يَسرُّ الإنسان، وأن الشر هو ما يُحزنه، أى أن الأخلاق نسبية ذاتية لا علاقة للإله (المتوَّهَم) بها. أما **ديفيد هيوم**[2] فقد كان ينكر وجود قوانين الطبيعة التى تحكم النظرة الآلية! وينظر إلى الأمر كله **بعشوائية مطلقة**، ويرى أن قوانين الطبيعة ما هى إلا تربيطات بين الظواهر يقوم بها العقل البشرى. وإذا كان هيوم قد بدأ بإنكار الوجود، فقد انتهى إلى إنكار نفسه!

وكَرَد فعل، **صد كانت**[3] **هجمات المذهب المادى الجذرى** المتلاحقة التى قادها أكبر أنصاره؛ ديفيد هيوم. فـ «كانت» يؤكد أن العقل لا يستطيع أن يحيط بكنه الأشياء، وأنه مهيأ بطبيعته لإدراك الجزيئات والظواهر فقط، فى حين أنه عاجز عن إدراك الماهيات المجردة مثل الوجود الإلهى. وإنما عرفنا الإله بالضمير وليس بالعقل، فشوقنا إلى العدل هو دليلنا على وجود العادل، كما أن ظمئنا للمياه هو دليلنا على وجود الماء.

وربما كان أهم ما خَلَّفه كانت **القول بوجود عالمين: عالم الزمان والمكان**، وهو عالم الظواهر الطبيعية التى يدرسها العلم ويكشف قوانينها. ثم **عالم اللازمان: عالم الأزل** الذى لا يستطيع العلم أو العقل البشرى أن يصل إليه، وإنما تدركه الروح عن طريق الحدس والشعور والنظرة الصوفية. ويرى كانط أنه ليس هناك تناقض فى أن **يعيش الإنسان فى عالمين مختلفين فى وقت واحد**، عالم الزمان والمكان وعالم الروح اللامتناهى. وهذا ما ينبغى أن يتبناه إنسان العصر الحديث.

الداروينية

قلت لبوبر: عند الحديث عن نظرة العقل للذات الإنسانية، لا يمكن أن نتجاهل «**نظرية دارون لتطور الكائنات الحية**». فالكثيرون يعتقدون أن الداروينية قد قدمت الدليل العلمى على خطأ مفهوم ثنائية الروح/ العقل ـ الجسم، ويرون أن دارون قد أكد على **مادية الإنسان** حين أعلن أن الفوارق العقلية بينه وبين غيره من الكائنات **فوارق كَمِّية وليست كيفية**، وأنها ترجع إلى زيادة حجم وتعقيد المخ البشرى عن أسلافه من الرئيسيات. فما رأيك؟

(١) توماس هوبز Thomas Hobbes: عالم رياضيات وفيلسوف إنجليزى (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩م)، كان له اهتمام بالأخلاق والتاريخ.

(٢) ديڤيد هيوم David Hume: فيلسوف واقتصادى ومؤرخ أسكتلندى، (١٧١١ ـ ١٧٧٦م)، من كبار الفلاسفة العدميين.

(٣) إيمانويل كانت: قمنا بالتعريف به فى أول الفصل.

أجابنى كارل بوبر: إن الحديث حول الداروينية لا ينتهى، فما من نظرية شغلت الفكر البشرى كما شغلته، حتى صار **اصطلاح ومفهوم الداروينية يتردد فى كل العلوم تقريبًا؛** الداروينية السياسية، الداروينية الاقتصادية، الداروينية الاجتماعية، الداروينية فى الأدب.... بعد أن انقلبت من نظرية علمية إلى مفهوم أيديولوجى. لكن صحة النظريات لا تتوقف على شيوعها أو على ما تسببه من جدلية. أما رأيى الذى لا أحيد عنه فهو **أن نظرية تتصدى لنشأة الإنسان وتغفل تَميُّز العقل البشرى بأن تتبنى تشكله من أسلاف حيوانية عن طريق التطور العشوائى شديد البطء، تُعتبر نظرية مهترءة وغير جديرة بالاحترام.**

قلت لكارل بوبر، ربما لا يعرف الكثيرون أن نظرية تطور الكائنات الحية ينبغى أن تُنسب إلى عبقريين من عباقرة البيولوجيا، وهما تشارلس دارون، وألفريد والاس[1]، اللذين توصلا إلى النظرية منفصلين فى وقت واحد[2]. وإذا كانا قد اتفقا على أن الجسد الإنسانى قد نشأ بالتطور عن أسلاف أدنى منه، فقد اختلفا فى نشأة العقل البشرى.

فدارون يُرجع الذكاء البشرى والقدرة على الإبداع والعبقرية إلى آلية الانتخاب الطبيعى من بين طفرات عشوائية، وفقط. بينما يرى **والاس** أن الانتخاب الطبيعى يمكن أن يفسر ظهور القدرات التى يحتاجها الكائن فى حياته وقت تطوره، ويكون ذلك استجابة لما يُعرف بالضغوط الانتخابية، لكن **الانتخاب الطبيعى لا يفسر نشأة ذكاء يظل كامنًا حتى يحتاجه الإنسان بعد عشرات الآلاف من السنين، إذ إن التطور ليس له رؤية مستقبلية.** ما الذى يدفع جينًا ما أو مركزًا عصبيًّا ما ـ دون الاحتياج إليهما ـ ليتخصصا فى المهارات الرياضية أو الموسيقية الرفيعة، ثم يتم توريثهما للأجيال المتتالية، لحين يتم الاحتياج إليهما.

لقد صار هذا يعرف بـ «**تناقض والاس Wallace's Paradox**»، الذى يدور حول: «كيف يؤدى الانتخاب الطبيعى إلى ظهور وتوريث والمحافظة على ملكات لا تُستخدم فى حينها، بينما ينقرض الأفراد الذين لا يملكون هذه الملكات، بالرغم من أنها لا تفيدهم فى البقاء. يجيب والاس بأن المخرج الوحيد من هذا التضاد هو القول بأن **الذكاء الإنسانى ليس مُنْتَج تطورى بل منحة من «الذكاء الإلهى»**.

(١) **ألفريد والاس Alfred Wallace**: (١٨٢٣ ـ ١٩١٢م) عالم الطبيعيات البريطانى الكبير. تخصص فى البيولوجيا والجغرافيا والأنثروبولوجيا.

(٢) المدهش أن كلًّا منهما لم ينكر فضل الآخر، حتى إن والاس كتب كتابًا عن النظرية وأسماه «الداروينية» وما أن علم دارون بذلك حتى كتب له قائلًا: ما كان يجب أن تسميه «الداروينية» فهى أيضًا «والاسية».

ابتسم كارل بوبر وهز رأسه مُؤَمِنًا على إضافتى العلمية، وملمِحًا ـ فى نفس الوقت ـ إلى قرب انتهاء حوارنا الثرى، وقال:

من المثير للدهشة أن المذهب المادى القائل بأن البشر آلات كان خليقًا بأن يقوض أى علم أخلاق إنسانى، ومع ذلك فإن **كبار الفلاسفة الماديين كانوا دعاة أخلاق إنسانية**، وكانوا منافحين عن الحرية والتنوير. من ثَمَّ فإننى أعتبر أن هناك خللًا ما فى هذا المبدأ المادى، أو قل إنه **مبدأ متناقض، يُرَوِّج لشىء ويتبنى عكسه!!**

وافترقنا... وقد زادنى الحوار مع هذا العملاق إيمانًا بمقولة حول الفلسفة، قرأتها للشيخ نديم الجسر[1] فى كتابه المتميز «قصة الإيمان»، انظر إلى قوله:

«إن الفلسفة بحر، على خلاف البحور، يجد راكبه الخطر والزيغ فى سواحله وشطآنه، والأمان والإيمان فى لُجَجه وأعماقه».

الذات الإنسانية فى الفكر الشرقى القديم[2]

منذ آلاف السنين، كان حكماء الهند يتأملون طبيعة **الذات الإنسانية** وطبيعة **الواقع المحسوس** وطبيعة **الغيب**، وقد اعتقد فلاسفتهم أن هذه الثلاثية ـ على المستوى الأعلى ـ ليست إلا **وجود واحد**. وقد نشأ عن ذلك التصور **تساؤلان رئيسيان**؛ أحدهما نظرى، وهو كيفية ربط هذه الثلاثية فى كلٍّ واحد. والتساؤل الثانى عملى، وهو كيف ندرك ذواتنا الحقيقية ونصل بها إلى أقصى درجات سموها.

وإذا كانت المشكلة الرئيسية التى تواجه الفكر الإنسانى هى مشكلة «**معاناة**» **الإنسان فى هذه الحياة**، فقد أرجعها الفكر الشرقى القديم إلى «**الهّوة**» **بين ما يكونه المرء وما يملكه بالفعل، وبين ما يريد أن يكونه وأن يملكه**، لذلك كانت «**المعاناة**» **حتمية**. فالفقير الذى يتعلق بالثروة يعانى، والإنسان المَيِّت[3] الذى يتعلق بالخلود يعانى، والضرير الذى يتعلق بالإبصار يعانى،....

ولما كان الأمر كذلك، فإن الحل للتخلص من المشكلة ـ المعاناة ـ واضح، وهو **أن يتطابق ما هو**

(١) الشيخ حسين الجسر: مفتى طرابلس ولبنان الشمالى الأسبق.

(٢) المراجع: الفكر الشرقى القديم ـ تأليف: جون كولر، ترجمة: كامل يوسف حسين، الناشر عالم المعرفة.
Buddhism, by Peter Harvey.
أديان الهند الكبرى: الهندوسية، الجينية، البوذية ـ دكتور أحمد شلبى، أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة ـ الطبعة الحادية عشرة (٢٠٠٠).

(٣) المَيِّت: هو الذى مصيره إلى الموت، أما المَيْت فهو الذى مات بالفعل.

كائن وما هو مرغوب فيه. وليس لذلك من سبيل إلا أحد طريقين، إما **السعى لتحصيل ما يتطلع إليه المرء**، كالاجتهاد لتحصيل الثروة إذا كان الإنسان فقيرًا، ولكن ستظل هناك رغبات يستحيل تحقيقها، كالخلود للمَيِّت والإبصار الأعمى. كذلك ستظل **المعاناة فى تزايد** حتى وإن وصل المرء إلى ما يريد؛ نتيجة للخوف من ضياع ما حَصّلَه، أو للانشغال به وبالمحافظة عليه، أو للرغبة فى المزيد. ولذلك برز الطريق الثانى، ويتركز فى **القضاء على الرغبات التى تجلب على الإنسان المعاناة والضيق والألم والشقاء**، وقد تبنت الفلسفات الشرقية بصفة أساسية المنظور الثانى.

لذلك تدور الحكمة الشرقية حول **مفهوم «اللاتعلق»**، الذى يرى أن السيطرة على الذات ـ لا إشباع الرغبات ـ هو الطريق الأساسى للقضاء على المعاناة، ولا يمكن تحقيق هذه السيطرة دون «**معرفة الذات**». ومن هنا جاءت أهمية الممارسة الفعلية لهذه الفلسفات، وتُعَّرف تلك الممارسة بأنها «**فن العيش فى إطار سيطرة المرء الكاملة على ذاته**» من أجل الوصول إلى الحياة الخيرة. من ذلك يتضح أن الفلسفات الشرقية ـ على خلاف معظم الفلسفات الأخرى ـ لا تكتفى بالنظر والتحليل لمعرفة الذات ولإدراك سبيل الحياة الخيرة، ولكنها تتبنى «**الممارسة العملية**» **كمنهج أساسى لإدراك الحقيقة**، أى أنه ليس هناك خط فاصل بين المعرفة والتطبيق، ومن هنا فإن **الفلسفة والدين** فى مفهوم الشرق الأقصى لا يُعتبران نشاطان منفصلان، بل يمثلان **عنصرًا واحدًا متكاملًا**.

الديانة الهندوسية[1]

العقائد الهندوسية

لا تُعتبر الهندوسية دينًا بالمعنى المعروف، بل هى **أشمل من الدين**، فهى مزيج من شعائر الهنود الأصلاء والقبائل الآرية التى أغارت على البلاد قبل الميلاد بعدة قرون. لذلك فهى

(١) يمكن تقسيم **تاريخ الفكر الهندى** إلى العصور التالية:
أولًا: العصر الفيدى الأول: (فيدا Vida كلمة سنسكريتية معناها الحكمة والمعرفة)، ويشمل ثلاث مراحل:
أ ـ مرحلة انتشار الأفكار البدائية وعبادة قوى الطبيعة: بدأت منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد.
ب ـ مرحلة تدوين الفيدا وتأويلها: تبدأ من القرن الثامن قبل الميلاد. وعندما قام البراهمة بهذا التأويل جعلوا من أنفسهم كهنة للدين وحافظوا على امتيازاتهم الطبقية المقدسة. وبهذه المرحلة تبدأ الهندوسية الموجودة الآن.
جـ ـ مرحلة تلخيص الفيدا فى أسفار مقدسة تُسمى الأوبانيشادات، وتبدأ من القرن السادس قبل الميلاد، وتستمر إلى ما بعد الميلاد بقرون.
ثانيًا: عصر الإلحاد (فى رأى البراهمة أتباع الفيدا): وفيه ظهرت الديانة الجينية والفكر البوذى، ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد، كثورة على نفوذ البراهمة.
ثالثًا: العصر الفيدى الثانى: وهو عصر انتصار الفيدا على الجينية والبوذية. وفيه وُضعت قوانين منو (كشروح للفيدا) فى القرن الثالث قبل الميلاد. وبهذه الشروح استقرت معالم الفيدا الحالية.

تعكس ملامح المجتمع الهندى، وتمثل **خليطًا يُعَبِّر عن الأمور المقدسة والأمور الدنيوية جميعًا**، ويشمل الاتجاهات الروحية والخُلُقية والقانونية، وكذلك المبادئ والقيود والعادات التى توجه الحياة الهندية وتسيطر عليها.

ويعتنق الهندوسية حوالى مليار إنسان، يعيش معظمهم فى شبه القارة الهندية. والهندوسية مجموعات مختلفة، تشترك فى **أربع عقائد أساسية**:

(١) الكارما Karma، وهى قانون الجزاء

فالكون نظام إلهى قائم على **العدل الصارم**، وفيه يتم إحصاء كل ما يفعل الإنسان لينال عليه الجزاء، إما فى هذه الحياة، وإما بعد الموت عن طريق التناسخ. وبالتالى **فالأرض هى دار الابتلاء كما أنها دار الجزاء**.

(٢) عقيدة التناسخ The Doctrine of Re-Incarnation

يقضى الموت على الجسد المادى، أما **الروح فتلحق بدورة التناسخ**. فإذا كانت الروح لإنسان خَيِّر تقمصت جسد إنسان من طبقة أعلى (كنوع من الثواب)، وإذا كانت لإنسان شرير لحقت بجسد إنسان من طبقة أدنى أو جسد حيوان (كنوع من العقاب). وفى كل الأحوال لا يدرى الإنسان شيئًا عن حياته السابقة (**أى لا يعرف إن كان قد أُثيب أو عُوقب**).

(٣) الانطلاق Freedom

بتكرار دورات التناسخ، **يتم تطهير الروح من الشهوات واستيفاء ما عليها من ذنوب**. وعندما لا ترغب الروح فى شىء وتتحرر من الأهواء وتطمئن، فإنها لا تُعاد إلى الحواس المادية، بل **تنجو من تكرار المولد، وتمتزج بالإله (براهما)** كما تعود قطرة الماء إلى المحيط العظيم، وهذا هو هدف الحياة الأسمى.

وأفضل سبيل للانطلاق هو **الزهد والسلبية**، فصالح الأعمال وأرزلها تُدِخل الروح فى دورات جديدة من التناسخ، وقد أدى ذلك إلى أن أصبحت السلبية أفضل من صالح الأعمال.

(٤) وحدة الوجود Panthiesm

انبثق الكون عن الله، وكذلك روح الإنسان، فهى أزلية أبدية غير مخلوقة، وهى من الإله مثل أن شرارة النار نار. ومن ثم **فالكون كله ليس إلا ظهور للإله، كما أن الروح الإنسانية جزء من الروح العليا**.

وعقيدة التثليث ظاهرة فى الهندوسية. فللإله الواحد ثلاث صفات، فهو **براهما** (من حيث إنه خالق)، وهو **فشنو** (من حيث إنه حافظ) وهو **سيفا** (من حيث إنه مُهلك). وهذه الصفات الثلاث كامنة فى الإنسان.

ويقدس الهندوس الحيوانات، خاصة **الأبقار**، وذلك لعدة أسباب: فالبقرة رمز للإيثار لما تعطيه للبشر (اللبن، الرَوَّث، الجلد، اللحم)، كما أنها رمز للأخوة بين الإنسان والحيوان، بل قد تحمل الأبقار أرواح بشر تناسخت فى هذه الحيوانات. لذلك كله ينظر الهندوس إلى البقرة باعتبارها أم الإنسان الحقيقية.

وتوجد بعض عقائد الهندوسية عند بعض **معتنقى الديانات السماوية**، فنجد مفهوم وحدة الوجود فى التصوف الإسلامى الفلسفى، كما نجد عقيدة التثليث فى المسيحية.

الذات الإنسانية فى الفكر الهندوسى

ترى العلوم الباطنة الهندوسية أن **الجسم المادى للإنسان، ذا الذبذبات الكثيفة**، هو جزء من كلٍّ إنسانى، يشتمل على **عناصر أخرى ذبذبية التكوين**، وهى:

- **الجسم الأثيرى**، ومنه تمتد خارج الجسم المادى «الهالة» التى تتوقف على الحالة الصحية.
- **الجسم النجمى**، وهو جسم المشاعر والعواطف.
- **الجسم العقلى**؛ جسم الفكر والذكاء.
- **المبدأ الإشراقى**، ومقره القلب، وهو محل المعرفة والإشراق الروحى.
- وأخيرًا، **الروح**.

وتخبرنا الفيدا أن للإنسان الواحد **ثلاثة أنواع من الذات**: «الذات المطلقة» التى لا تختلف من شخص لآخر، بل تتفق فى الكل، والذات الثانية متعلقة بفردية الشخص، أما الذات الثالثة فهى الجسد الذى هو ذاتٌ مرحلية.

كذلك فإن الكون والإنسان مكونان من **خمسة عناصر** هى: التراب ـ الماء ـ الهواء ـ النار ـ والأثير. وُيفَرِّق «**الفضاء**» بين المخلوقات؛ كما يفرق بين أجسام الناس، ويفصل الفرد عن باقى موجودات الكون المادية.

والإنسان «**كون صغير**»، يشبه فى بنيته الكون المحيط والذرة[1]. فأعضاء الجسم تُكَوِّن **شبكة واحدة** كثيرة الأجزاء **نواتها القلب**، الذى يقابل الشمس، مصدر الحياة وقلب وجودنا النابض. **وينبض القلب البشرى بإيقاع قلب الشمس ذاته**، وهو **على اتصال بالقلب الباطنى للكرة الأرضية** الموجود فى مكان ما من جبال الهيمالايا. كذلك يقابل **الجهاز العصبى** طاقة الكون الكهرومغناطيسية، والجسم على اتصال دائم بالطاقة الكونية (برانا Prana) وهو يستمدها من النَفَس ومن يخضور النباتات (الكلوروفيل)، لكنها ليست الهواء ولا الماء ولا اليخضور.

وتتصل الذاكرة البشرية بالذاكرة الكونية، التى تحوى تاريخ الكون والأرض والإنسان منذ البِدء الأول[2]، لذلك فإن المعرفة الكونية كامنة فى وعى الإنسان. كما تتصل الذاكرة البشرية بعناصر الإنسان الخمس، وبما أنها ذبذبية القوام فهى مسئولة عن الاحتفاظ بالإنسان واعيًا. كذلك تحتوى **الفسيولوجيا البشرية** (التى هى تنظيم عمل أعضاء جسم الإنسان) على كل القدرة التنظيمية غير المحدودة للطبيعة. كما أن **جوهر الكتب الهندوسية المقدسة** موجود داخل تركيبة دماغ الإنسان.

وتحسَبُ أنَّكَ جُرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ[3]

الإنسان، إذن، **كون صغير، خلية من خلايا الكون الكبير بكل ما فيه**، ويملك كل صفاته. إنه جزء من كل، وتربط «**المحبة**» أجزاء الإنسان بعضها ببعض، مثلما تربطه بالوجود بأسره. لكن **هذا الكون الصغير يعانى؛ لأنه لا يدرك وحدته مع الوجود، ولا يعى حقيقة مصدره، ولا يعى المعرفة الكامنة فى داخله**. وبما أن الإنسان فى سفر دائم داخل نظام كونى يتفاعل معه، فإنه **يتمتع بكل إيجابياته** طالما كان فى تناغم مع النظام، أما إذا أفسد الإنسان النظام نتيجة لفكر أو قول أو فعل، مهما كان بسيطًا، **فعليه أن يدفع الثمن**.

(١) ترى الحكمة الهندوسية أن الوجود كان فى البدء **ذبذبات** تكثفت، وتشكلت، وتجسمت، وتلك الذبذبات الأصلية هى مصدر الكون بكل ما فيه. وأصغر هذه التَشَكُّلات هى الذرة، المؤلَفة من نواة مركزية وفراغ وشذرات تحت ذرية، تنتظمها حقول من الطاقة، وتتحول جزئيًّا إلى طاقة لدى تفككها، وكل ذلك يتحرك ويتراقص فى الفراغ (ويتفق هذا التصور مع ما توصلت إليه الفيزياء الحديثة!).
ويتكرر نموذج الذرة (بنواتها المركزية وشذراتها المحيطة بها) فى معظم أشكال الوجود؛ سواء الخلية الحية، أو المجموعة الشمسية، أو بنية المجتمع الذى نواته الحاكم.

(٢) يَعتبر **الشيخ محيى الدين بن عربى** (قطب التصوف الإسلامى الفلسفى) هذه الذاكرة الشاملة المحيطة هى (اللوح المحفوظ).

(٣) بيت شعر للإمام على بن أبى طالب ؤ.

الذات المطلقة

جاء فى الكتاب السابع من الأوبانيشاد: «**إن الذات المتحررة** من الشر ومن الخوف ومن الجوع والظمأ، ومن الشيخوخة ومن الموت، والتى تتبنى دائمًا الحق، تلك الذات ينبغى أن يسعى إليها من يرغب فى إدراك الحقيقة وفهمها، ومن يعثر على هذه الذات ويتفهمها يظفر بكل العوالم».

لذلك طرق بشدة أذهان الفلاسفة الهندوس سؤال: ما هى تلك الذات العجيبة الغامضة؟ والسؤال بأسلوب آخر: **ماذا عساى أن أكون فى أعمق وجود لى؟**

لقد قام الحكماء فى غمار محاولتهم الإجابة عن هذين السؤالين بتأمل الجوانب والوظائف المختلفة للإنسان. وتوصلوا إلى أن الذات **لا يمكن أن تكون هى الجسد**؛ لأن الجسد مجرد طعام مهضوم، بينما الذات لها من الخصائص ما يفوق الجسد/ الطعام بكثير، فهى ترى وتسمع وتحس وتتحرك وتعقل. ومن ثم تساءلوا: هل ننظر إلى الذات باعتبارها **التعقل أو الوعى أو الإدراك**؟، فتوصلوا إلى أنه لا بد أن يكون هناك من يمنح الوجود والفاعلية لتلك الملكات.

ومن ثم توصل حكماء الأوبانيشاد إلى أنه لا ينبغى البحث عن حقيقة الذات فى أى من الصور الدنيا الملموسة للشخص. بل **ينبغى أن يكون المُوَجِّه النهائى للنشاط الإنسانى متميزًا ومفترقًا عنه**. لكن ما هو ذلك المُوَجِّه؟

إن المُوَجِّه والفاعل المطلق هو «**الذات المطلقة**»؛ إنها حيث لا تعمل العين، ولا يعمل الكلام ولا الذهن، وبالتالى لا يمكن أن تكون موضوعًا للمعرفة قط. **إنها وجود مجهول، إنها عماء**. ويمكن أن نسميها (**الوعى الذاتى الكلى**) أو (**الواقع الداخلى المطلق**) ويسميها حكماء الهند (**أتمان Atman**).

لماذا خُلقنا؟ ـ وِحْدَة الوجود

قبل التكوين... لم يكن هناك وجود... لم يكن ثمة فرق بين مدرِك ومدرَك... **لم يكن الخلق عملية تصنيع مادة جديدة**... بل كان الخلق امتدادًا خارجيًّا لمطلَق غير قابل للانقسام... **النتيجة كانت من صلب السبب**... كانت عملية الخلق حالة خاصة من الوعى حصلت داخل المسبِّب... بذلك نشأت الكثرة عن الواحد... وصاحَب ذلك أن **اعترى الكثرة «شبقٌ» للعودة إلى الأصل**.

إن الغاية من الخلق هى الامتداد والنماء. أراد الخالق لذاته الامتداد، فكان هذا الوجود. **فالله (البرهمان) هو الأساس الأول للخلق، وما الخليقة سوى تعبير أكثف عنه**، كالماء الذى هو التعبير الأكثف عن البخار. **إذًا كل ما يُدرَك هو الله، كل أزواج الأضداد فى الله**؛ النهار والليل، الخير والشر... كلها تعبيرات عن الوعى الواحد الأحد اللاثنائى. إن الله **(البرهمان) هو الكل الذى نبثق منه الكائنات، وبه تبقى بعد أن تنبثق، وفيه تتوارى فى النهاية**[1].

ولما كان المطلق لا يمكن إلا أن يكون واحدًا، توصل حكماء الأوبانيشاد إلى أن **الواقع الخارجى المطلق (براهمان) هو الواقع الداخلى المطلق (أتمان)**. ومن ثم **ليس هناك سوى واقع مطلق واحد** يمكن إدراكه، سواء بالنظر إلى خارج ذات المرء أو بالنظر فى أعماق ذاته. إنهما شئ واحد، وكل الأشياء هى موجودة فى داخل أتمان. وتُعَدْ **وحدة «أتمان» و«براهمان»** أعظم إبداعات حكماء الأوبانيشاد الفلسفية، إنها وحدة الوجود التى يتمسكون بها ويحافظون عليها بحرص شديد.

إن السفر فى الحياة، إذًا، انطلاق من الذات الكبرى، ثم العودة إلى نقطة الانطلاق. ومن بين كل المخلوقات، وَحْدَه الجنس البشرى هو الحائز على ملكة العقل والقدرة على التمييز، وهو **المؤهَل للعودة إلى المصدر عن سابق وعى وتصميم. وطريق العودة ـ طريق الارتقاء نحو الهدف الأسمى ـ هو الخلاص من شوائب الحياة الجسدية.**

فالنفس تحصد عواقب أعمالها سلبًا أو إيجابًا تبعًا لقانون الخلاص.

---

(١) عَبرَّ فيلسوف وحدة الوجود قطب التصوف الإسلامى الفلسفى الشيخ عبد الكريم الجيلى (٧٦٧ ـ ٨٢٦هـ) عن هذا المعنى فى أبيات رائعة فى قصيدته «**النادرات العينية**»:

وَمَا الخَلْقُ فِى التِّمْثَالِ إِلَّا كَثَلْجَةٍ وَأَنْتَ بِهَا المَاءُ الَّذِى هُوَ نَابِعُ
فَمَا الثَّلْجُ فِى تَحقِيقِنا غَيرَ مَائِهِ وَغَيْرَآنِ فِى حُكْمٍ دَعَتْهَا الشَّرَائِعُ
وَلَكِنْ بِذَوْبِ الثَّلْجِ يُرْفَعُ حُكْمُهُ وَيُوضَعُ حُكْمُ المَاءِ وَالأَمْرُ وَاقِعُ
تَجَمَّعَتِ الأَضْدَادُ فِى وَاحِدِ البَهَا وَفِيهِ تَلاَشَتْ فَهْوَ عَنْهُنّ سَاطِعُ

فى هذه الأبيات يُشَبِّه الجيلى المخلوقات كلها بـ «الثلج»، الذى هو فى حقيقته «ماء» يشير به الشاعر إلى الإله الخالق ﷻ. وتتضح الحقيقة إذا ذاب الثلج، أى تلاشى الوجود، فلن يظهر إلا الماء (الإله ﷻ)، فهما وجهان لشىء واحد. وفى هذا الواحد تجمعت أزواج الأضداد.

وبالرغم من إقرارى بروعة الصور البلاغية والإبداع الشعرى فى قصيدة النادرات العينية، فإننى أرفض تمامًا مفهوم وحدة الوجود، فالإسلام يؤكد بوضوح على إثنينية الخالق والمخلوق.

البوذية

اشتد سخط الهنود ضد استبداد البراهمة، حتى جاء القرن السادس قبل الميلاد[1] فإذا بالإحساس يصبح واقعًا، فتهب ثورتان كبيرتان فى وجه الهندوسية، يقود ماهافيرا إحدى هاتين الثورتين (تؤدى إلى نشأة الديانة الجينية)[2] ويقود بوذا ثانيتهما.

فى كتاب «أديان الإنسان» The Religions of Man، يبتدئ هيوستن سميث فصله عن الديانة البوذية بعنوان: «**الرجل الذى استيقظ**»! فى وصف لطبيعة البوذا، هذه الكلمة التى تعنى «**الشخص المستيقظ**» أو «**الشخص المستنير**». يلمح هذا المصطلح إلى أن الغالبية العظمى من البشر لا يزالون نائمين روحيًّا، وأنهم قادرون على الاستيقاظ الروحانى من الغفوة التى هم فيها، والتى يسببها خداع النفس الذى تعارفنا عليه باسم «**الوعى بالذات**».

إن الرجل الذى اشتهر باسم بوذا هو فى الأصل «**سدارتا غوتاما**» (٥٦٣ ـ ٤٨٣ ق. م.). ولد سيدارتا وعاش فى فترة عامرة بالجدل الدينى والفلسفى حول طبيعة الحياة الإنسانية ومشكلاتها. جاء دخول سيدارتا غوتاما إلى المشهد الدينى فى عصره بعد أن هجر حياة الرخاء والرفاهية كابن لحاكم أرستقراطى، ففى العشرينيات من عمره أدرك أنه فى عيشته الهانئة الرغيدة **ليس محصنًا من المرض والشيخوخة والموت**. ومن ثم فقد قرر أن يحيا كناسك زاهد سعيًّا وراء الشعور بالراحة والنعيم المحضين من التغير والمعاناة، كحالة أبدية لا تنقطع ولا تنتهى.

أمضى غوتاما ست سنوات كناسك متجول يقوم ببعض **الممارسات الدينية** الموجودة فى عصره، كاليوجا والتأمل، لكنها لم تحقق ما يصبو إليه. فمارس بعدها **التقشف الشديد**، فوجده يهدد سلامة الذهن والبصيرة. ومن ثَمَّ سعى لإيجاد **طريقه الروحى الخاص**، فمارس التأمل

(١) يعتبر البعض أن **القرن السادس قبل الميلاد** من أجدر عصور التاريخ بالتأمل، ففى كل مكان كانت عقول الناس تُظهر جرأة جديدة، ويستيقظون مما ران عليهم من تقاليد الأباطرة والكهان ويسألون أشد الأسئلة تعمقًا، **وكأن الجنس البشرى قد بلغ مرحلة الرشد بعد طفولة دامت عشرين ألف سنة**. ففى هذا القرن ظهر بالهند **ماهافيرا** مُعلم الجينية، وظهر **بوذا** مؤسس البوذية، وظهر بالصين **كونفوشيوس** المربى العظيم، وفى إيران ظهر **زرادشت**، وفى بنى إسرائيل بُعث النبى **إشعياء**، وارتفع صوت **فيثاغورس** فى بلاد الإغريق، وفى مدينة إفسس تجلّى هيراقليتس بتأملاته وأبحاثه الفكرية فى طبيعة الأشياء، وهكذا هبت موجة فكرية تجاوبت أصداؤها فى كل أنحاء البسيطة.
ونحن لا نوافق على هذا الرأى، فالحضارة المصرية القديمة بلغت قدرًا كبيرًا من النضج العقلى والفكرى تجاه الأسئلة الوجودية المحورية قبل ذلك بعدة قرون، حتى قيل إن أفلاطون قد عثر على الحكمة حين جاء إلى مصر، حيث تعلم هو وفيثاغورس فى مصر لأكثر من عشرين عامًا.

(٢) الديانة الجينية: مزيج من عقائد الهندوسية والبوذية، يعتنقها قرابة المليون من الهنود الأغنياء، تهتم بالفنون والآداب.

مع التركيز على التنفس البطيء لطرد أى مشتتات ذهنية. وتدريجيًّا وجد **ذهنه يصفو** كأنه فى غيبوبة، مع الحفاظ على وعيه وعلى سكونه الداخلى. ثم انتقل بعدها إلى مرحلة أعلى من الوضوح والسكون، تضاءلت معها سعادته السابقة، وفيها أحس أن العقل آلة قوية مدركة لمعارف الوجود كلها، مع تلاشيِ ما كان يكتنف عوالم الغيب من غموض، وهى حالة أطلق عليها اسم «**الاستنارة**».

مفهوم «المعاناة» فى الفكر البوذى

يحتل مفهوم «**المعاناة**» فى الفكر البوذى مكانة محورية، ويُعرف بـ «**الدوخا Dukka**»، وهى كلمة تُعَبر عن جميع أشكال معاناة الإنسان. ومع الأخذ فى الاعتبار أن الوجود الفانى يتسم كله بالمعاناة، فإن هدف البوذية النهائى هو **القضاء تمامًا على الدوخا**.

ويرى الفكر البوذى أن الشيخوخة والموت يتبعان الميلاد، كما يتبع الليلُ النهارَ، وبغير الميلاد لن توجد معاناة الشيخوخة والموت. لكن ليس معنى ذلك أن اللاوجود هو السبيل إلى اللامعاناة، ولكن السبيل إلى «**اللامعاناة**» ـ فى البوذية ـ هو «**العدم**»! عدم ماذا؟ **وهل هناك فرق بين «العدم» و«اللاوجود»**؟ من أجل الإجابة عن هذين التساؤلين علينا أن نفهم كيف تنظر البوذية إلى الذات الإنسانية.

وَهْم الذات الإنسانية

عندما نتأمل **خصائصنا** الجسمية والعقلية والنفسية، وما نقوم به من **مهام وعمليات** (حركية ـ حسية ـ عقلية ـ شعورية)، ننتهى إلى أن **هناك «ذاتًا» أو «أنا»** تُنسب إليها هذه الخصائص ويُنظر إليها باعتبارها القائمة بتلك الأنشطة، لذلك فإننا نقول: أنا فعلت كذا، وأنا سأقوم بكذا، هذا ملكى، هذا ابنى. كذلك **تُنسب المعاناة إلى هذه «الأنا»**، فنقول: أنا أتألم، وأنا حزين، وأنا مريض بمرض خطير.

لكن، هل حقًّا يوجد كيان حقيقى يمكن أن نطلق عليه «ذات» أو «أنا»؟

يرى بوذا أن ليس فى الإنسان شيئًا زائدًا على خصائص الإنسان ونشاطاته، يمكن أن يُشار إليه باعتباره الذات أو النفس، ومن ثم فإن الإنسان ليس إلا مجموعة الخصائص والنشاطات التى يقوم بها، وليس هناك شىء آخر.

إن تبنى هذا الفهم يؤدى إلى **تلاشى التعلق بـ «الأنا» المتوهَمة**، وهو ما يُعرف فى البوذية **بمذهب الأناتا Anatta (اللاذات أو اللانفس)**، ولا شك أن ذلك يؤدى تلقائيًّا إلى القضاء جذريًّا على المعاناة بالرغم من استمرار النشاطات. وفى غياب الذات لن تكون هناك نفس تُولد ولا نفس تمرض وتشيخ وتموت، سيكون هناك فقط ميلاد، ومرض، وشيخوخة، وموت، **دون الربط بين هذه النشاطات وبين ذات إنسانية تجرى عليها هذه الأحداث!** وبالتالى لن تكون هناك معاناة، فالتعلق بالنشاطات (هذا ملكى ـ أنا أتألم ـ أنا سأموت ـ زوجتى وأولادى) هو الذى يجلب المعاناة.

الاستنارة والطريق إلى اللاذات

وصل بوذا بمجاهداته إلى «الاستنارة». فى هذه الحالة وصل إلى ما صار يُعرف بـ **(المعرفة الثلاثية)**: لقد أدرك أن **التناسخ حقيقة**، وأن **مفهوم الجزاء (الكارما) حقيقة**، كما توصل إلى مفهوم **(الحقائق النبيلة الأربع)** التى صارت لاحقًا حجر الزاوية فى تعاليم بوذا، والتى تركز التخلص من «المعاناة».

فى خطابه الأول الذى ألقاه بوذا على رفاقه عقب تلقى الاستنارة، قال لهم: إن المولد ألم، الهِرَم ألم، المرض ألم، الموت ألم، الاجتماع بغير المألوف ألم، الافتراق عن المألوف ألم، عدم ظُفر الرجل بما يهوى ألم. ثم بَيَّنَ بوذا أن **أصل الألم هما الشهوة والهوى**، فإذا وُجدا وُجد التحديد والتخصيص (الشعور بـ «الأنا»)، ويؤدى هذا الانخداع إلى الحزن والألم والمعاناة. لذلك **فالطريق إلى إعدام الألم هو إعدام الشهوة والهوى إعدامًا تامًا**. فى هذا الخطاب، وضع بوذا ما يسميه البوذيون «**الحقائق الأربعة**»: الألم موجود ـ الألم له سبب ـ سبب الألم قابل للزوال ـ لإبطال الألم ينبغى اتباع **الطريق ذى الثمان شُعَب**، وهى:

الاعتقاد الصحيح ـ العزم الصحيح ـ القول الصحيح ـ العمل الصحيح

العيش الصحيح ـ الجهد الصحيح ـ الفكر الصحيح ـ التأمل الصحيح.

ويُعتبر **الإيمان بـ «الحقائق الأربع النبيلة»**، واتباع **«الطريق ذى الشعب الثمانية»** طريق النجاة عند البوذية. فبهذا الإيمان وهذا الطريق تمكن بوذا من تخليص ذاته من المعاناة، ومن التناسخ، وتمكن من الوصول إلى النيرفانا (اللذة القصوى) وهو حى، وصار بذلك «مستنيرًا»، وهو المعنى الحرفى لكلمة بوذا.

إن أسمى ما يتطلع إليه الهنود (باختلاف دياناتهم) هو تحقيق السعادة القصوى. ويكون ذلك فى **الهندوسية** عن طريق التخلص من تكرار المولد (التخلص من التناسخ) وهو ما يُعرف بـ «الانطلاق». أما فى البوذية فتعرف تلك السعادة بـ «النيرفانا»، ويتم الوصول إليها عن طريق «**القضاء على الجهل**» الذى «**يوهمنا بوجود الأنا**»، وهذا هو **مفهوم الأناتا (اللاذات ـ اللانفس)**. عند ذلك تتلاشى الرغبات المادية وتفنى الأغراض الشخصية الباطلة، التى تجعل الحياة دنيئة وذليلة ومروعة، وبتعبير بوذا: **كل من شاء أن ينقذ حياته عليه أن يخسرها**. بذلك تتطهر النفس ويصل الفرد إلى أعلى درجات الصفاء الروحى. وبهذا الأسلوب **يصل الإنسان إلى النيرفانا وهو حى**.

وكما فى الهندوسية، يمكن فى البوذية أن **يصل الإنسان إلى النيرفانا بعد الموت**، إذا تخلص من تكرار المولد (دورات التناسخ)، وذلك بالقضاء على الرغبات والتوقف عن عمل الخير والشر.

وقد **رفض بوذا أن يصف النيرفانا**، فهى لا توصف وإنما تُذاق. وبعد أن كان ـ فى أول الأمر ـ يرى أنها تعنى الاندماج فى الله والفناء فيه، فقد تغيرت أفكاره وتوقف عن الربط بينها وبين الإله، بعد أن **تخلى عن القول بأن هناك إلهًا**، واعتبر أن السؤال عن الغيب لا يُجدى نفعًا. لذلك قال لأحد تلاميذه: «**ما قلت لك جئنى أعلمك عن الذات وعن الكون، أيها المريدون لا تفكروا كما يفكر الناس، بل فكروا هكذا: هذا ألم ـ هذا مصدر الألم ـ هذا إعدام الألم**». ومع ذلك كان بوذا يطلب من مريديه أن يَدَعُوا ما بعد الحياة إلى اليد التى تولتها من البداية.

وأخيرًا نقول، إن اتجاهات البوذية الخُلُقية واللاعقائدية سببت **سرعة انتشار البوذية فى الهند** لسهولة هذه الاتجاهات وعدم تعارضها مع آلهة الهندوس، لذلك فإن كثيرًا من الهنود يتبعون البوذية فى أخلاقها ويظلون على ولائهم لآلهة الهندوس، وبالعكس بدأ البوذيون يعترفون بالآلهة الهندوكية ويتقربون إليها، وبمرور الوقت صار لبوذا تمثالًا مقدسًا ذاب بين الآلهة الكثيرة كما ذاب أتباع البوذية بين الهندوس.

ومن أكثر الأمور التى استرعت انتباهى وأدهشتنى، أن بوذا الذى طالما أعلن أنه ليس هناك إلهًا، وأنه ليس نبيًا، وأن قضية الإلوهية فوق مستوى العقل البشرى، **قد صَيَّرَه أتباعه إلهًا يعبدونه!** واعتقد أن ذلك يرجع إلى غلبة فطرة الإنسان الباحثة عن إله، فلم يجد البوذيون أنسب منه إلهًا[1]!!

* * *

(١) نجد فى البوذية المعاصرة مذهبين: مذهب ماهايانا الشمالى، الذى يقدس بوذا كابن للإله، ومذهب هنايانا الجنوبى، الذى ينكر الألوهية ويعتبر بوذا مُعَلِّمًا عظيمًا.

الإنسان المصرى القديم
والذات الإنسانية

يختلف الشعب المصرى القديم عن غيره من الشعوب فى العناية التى كان يوجهها إلى حياة الإنسان بعد الموت. ففى الوقت الذى كان اليهود والإغريق يتحرّجون من الحديث عن موتاهم، كان المصريون لا يدّخرون وسعًا فى المحافظة عليهم والعناية بهم والاهتمام بسعادتهم، كما كانوا يحرصون على ألا تفنى ذكراهم.

وبالرغم من أن قبور المصريين ـ فى المراحل الحضارية الأولى ـ لم تكن أكثر من حفر بسيطة، فقد كانوا يودعون فيها ما يحتاج إليه موتاهم من طعام، وما يُدخِل على قلوبهم البهجة والسرور. ثم أخذت هذه العناية تزداد بازدهار الحضارة المصرية بشكل لا مثيل له، فلن تجد فى جميع حضارات العالم مقابر تماثل الأهرامات العظيمة، أو **المقابر المزينة بالرسوم** والمحفورة فى الصخر فى طيبة، كما لم تودَع فى مقابر الموتى فى أىّ مكان آخر ودائع وافرة قَيِّمة مثل ما أُودِع فى مقابر المصريين.

ولم يكن الشعب المصرى ليبذل مثل هذه الجهود طوال خمسة آلاف سنة لولا **إيمان المصرى القديم بثنائية الذات الإنسانية**، والتى انعكست على تصوره عن العالم الآخر وعن حياة الموتى، وهى تصوّرات يمكن تَرَسُّمها فى الأدب الجنائزى القديم الذى تَخَلَّف لنا بكثرة لا تكاد تحصى، ومعظمه عبارة عن أوراد تُتلى عند إعداد الجثة ودفنها، وعند إطعام الميت وتقديم العطايا إليه، وعندما يراد حمايته من كل سوء[1].

ثنائية الوجود وثنائية الذات الإنسانية

كان المصرى القديم يتبنى النظرة الثنائية للوجود؛ **إله خالق وكون مخلوق**، ويمكن رصد **مرحلة وسطى** بين هذين العنصرين، تتجلى فى الملوك الفراعنة، أبناء الإله الأعظم، الذين يجمعون بين الألوهية والبشرية.

(١) يمكن تقسيم هذه الأوراد إلى ثلاث مجموعات كبيرة، تبعًا لعهد كل منها وأسلوب كتابتها، وهى «**متون الأهرام**» التى ظهرت فى مقابر ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة، و«**متون التوابيت**»، وكانت تُكتب فى الدولة الوسطى على الجدران الداخلية لكثير من التوابيت، و«**كتاب الموتى**»، وهو أوراد كانت تُكتب على قرطاس من البردى وتوضع إلى جانب الميت منذ الدولة الحديثة.

وقد انعكست هذه الثنائية على نظرة الإنسان لذاته، فرآها تتكون أيضًا من عنصرين، **جسد مادى وروح لا مادية** حاول تجسيدها فى هيئات محسوسة. وإذا كانت معظم الحضارات الإنسانية القديمة قد اهتمت بالروح واعتبرته جوهر الإنسان الأوحد، ولم تول الجسد أى اهتمام[١]، فإن المصرى القديم **اهتم بالجسد بشكل لا مثيل له**، فحافظ عليه بعد الموت، بالتجفيف ثم بالتحنيط. ويجسد تصورَ المصرى القديم **لطبيعة الروح وعلاقتها بالجسد**، الآليةُ المعقدة للانتقال من الحياة إلى الموت، ثم طبيعة الحياة الأخرى فى القبر وبعد البعث. فقد كان المصرى القديم يؤمن أن للإنسان روح واحد له تسعة مظاهر[٢].

كان المصرى القديم يأتى إلى الحياة عندما يستقبل جسده الـ «**كا Ka**» عند مولده بأمر من الإله رع، ومن ثم فـ«الكا» هى شخصية الإنسان المسئولة عن وجوده الانفعالى وأيضًا عن حركته وتنقله، والمعتقد أنها تشبه صاحبها تمامًا.وما دامت الكا مع الإنسان فهو حى يُرزَق، وإذا مات هجرته، لكنها تظل معنية بالجسد الذى سكنته أمدًا طويلًا، فتكون إلى جانب الميت من وقت إلى آخر، وتبادر إلى مساعدته إذا دعاها[٣]. لذلك كان القبر يُنعت بأنه «دار الكا». وبوصفها **قرينًا ماديًّا للمتوفى**، كانت الأطعمة تُقدم إلى «كا» الميت[٤].

وإلى جانب الكا، اعتقد المصريون فى هيئة أخرى للروح، وكانوا يسمونها «**با Ba**»، وهى **المقابل الروحى الخالد للإنسان**، وتعتبر أقدم وصف للروح فى الحضارات القديمة. وقد تصورها المصرى القديم فى مختلف الأشكال، فهى إذ تترك الجسد عند الموت وعند النوم، فقد تخيلوها كأنها طائر برأس إنسان. وربما تمثلوها بين الطيور التى تستقر على الأشجار التى غرسها الميت بنفسه من قبل[٥]. وتمثل الـ «با» **حلقة الوصل بين أرض الأحياء والحياة الأخرى**، ففى

(١) تقوم الكثير من الحضارات ـ **كالهندوس** ـ بحرق أجساد موتاهم وذر رمادها فى الأنهار والبحار. أما **المجوس** فكانوا لا يحرقون أجساد موتاهم حتى لا تلوث النار المقدسة، وكانوا يتركونها فوق الجبال لتأكلها الطيور الجارحة، وتجف العظام وتتفتت ثم تحملها مياه الأمطار إلى البحر.

(٢) هذا الرأى أكثر وجاهة ـ كما سنرى ـ من قول البعض بإيمان المصرى القديم بأن للإنسان تسعة أرواح!

(٣) جاء فى كتابة متأخرة: «إنك تعيش سعيدًا أبدًا وبجانبك الكا التى لك، إنها لن تهجرك أبدا». وقد تطورت كثيرًا الفكرة الغامضة عن الكا، فكانت تُعتبر تارة كأنها كائن إلهى، وتارة كأنها الملاك الحارس، الذى يهتم بالإنسان، ويعنى بأمره، وتارة كانت الكا هى التى تلد الابن. وفى أحيان أخرى كانت «الكاوات الحية» تعبيرًا رشيقًا يوصَف به الناس؛ وتارة أخرى كانت الكاوات تعبر عن قوى الحياة، أى عن الأطعمة، أو كانت سائر النعم التى يتصرّف فيها إله الشمس. وفضلًا عن ذلك فقد كان لفظ الكا يُحشر بكثرة فى مختلف التراكيب والجمل.

(٤) كانت أكثر النقوش الجنائزية شيوعًا تطلب لـ «كا» المتوفى «ألفًا من الخبز، وألفًا من البيرة، وثيران وطيور».

(٥) وتخيلها آخرون **كزهرة اللوتس** التى تتفتح أكمامها وهى تطفو فوق سطح البحيرة أثناء الليل، وفكر فريق آخر فى **الثعبان** الذى يندفع من حجره فى غموض كأنه «ابن الأرض»، أو فى **التمساح** الذى يزحف من الماء إلى الأرض كأنه ينتمى حقًّا إلى عالم الأرض.

الليل تمكث مع المومياء فى مقبرتها المظلمة تحت الأرض، وفى النهار تغادرها كى تقضى يومها فى أشعة الشمس.

أما المظهر الثالث من الروح فتمثله «**آخ Akh**»، **الروح المباركة المجيدة** التى نجت من الموت، وكانت عنصرًا مضيئًا يمنح البركة والمجد للمتوفى، وصُوِّرت الـ «آخ» بوصفها الشخص نفسه، **وكان يُعتقد أنها تختلط بالآلهة حين ترقى إلى المجد.**

وبالإضافة لهذه المظاهر الثلاثة الرئيسية للروح، هناك الـ «**خو Khu**» وهو الروح المسئول عن الحياة والوعى، ويسكن الدم. وهناك الـ «**آب Ab**» ويسكن فى القلب، وهو محل الحكمة والمعرفة والفهم، وعندما يكون «آب» واعيًا يكون الإنسان خَيِّرًا، وإذا غاب آب عن وعيه يصبح الإنسان شريرًا، أى أنه **يقابل الضمير** فى مفهومنا المعاصر.

وهناك أيضًا الـ «**خيبوت Khaibut**»، إنها **كظل الإنسان** يمكن أن توجد خارجه. ويستخدمه من يمارسون السحر الأسود ليوجهوا إلى الإنسان سيطرتهم وأذاهم، ويجسدونها فى العرائس التى تُغرَز فيها الإبر لإنزال الشر بالإنسان. وما زلنا نجد فى المجتمعات القبلية ـ التى لا تعرف التصوير الفوتوغرافى ـ من يرفضون تصويرهم ويعتقدون أن ذلك يؤدى إلى الموت، ففيه تقييد وحبس للخيبوت.

أما الـ «**خات Khat**» فمسئولة عن النشاطات العضوية للجسد، كالتنفس وضربات القلب. وهناك الـ «**سيخام Sekham**» المسئولة عن القوى الحيوية للإنسان وعن تجسده.

وأخيرًا الـ «**رِن Ren**»، وهو الاسم الذى يُطلق على الإنسان عند الميلاد، وهو مقدس وله قدرات عالية. وعادة لا يعلن الوالدان هذا الاسم حتى يصل صغيرهما سن البلوغ، فانتشار الاسم يؤثر فى مصير الفرد فى الحياة الأخرى. وإذا عرف شخص الاسم الحقيقى للإله ونطقة بطريقة صحيحة كان له السيطرة على الإله.

ولا تتعجب قارئى الكريم من **تعدد مظاهر الروح عند المصرى القديم**، فهذا أمر طبيعى فى هذه القضية. فقد اختلف المفسرون فى العلاقة بين الروح والنفس كما جاءا فى **القرآن الكريم**، كما جاء فيه لفظى الروح والنفس بمعان متعددة. كما **يعتقد المسيحيون** فى تعدد مظاهر الإله الواحد، فقالوا بالأقانيم الثلاثة: الأب والابن والروح القدس. والحال نفسه فى **الهندوسية** كما رأينا منذ قليل.

ولكى **يعيش المصرى القديم مرة آخرى بعد الموت**، كان عليه **استيفاء عدة متطلبات**. فلا

بد أولًا من حفظ جسده؛ لأنه الموطن والملاذ للروح لذلك عمد المصريون لممارسة التحنيط كوسيلة للاحتفاظ بالجسد المادى. علاوة على ذلك، يجب أن يحتفظ الجسد بمعالمه حتى تتمكن الـ «با» من التعرف عليه والعودة إليه كل ليلة، لذلك كان يتم التأكيد على هوية الجسد بوسائل عديدة، مثل وضع نموذج بالجص لملامح المومياء، وحفظه فى تابوت شبيه بالإنسان، وتزويده برأس إضافية أو قدمين مصنوعين من الورق المقوى، ولمزيد من الحرص، كان يتم وضع تماثيل فى المقبرة على هيئة المتوفى.

ولتزويد «كا» المتوفى بالطعام والشراب ولوازمه التى كان يستعملها أثناء حياته، فقد أصبحت المقابر **مستودعات**، مجهزة بكل شىء يحتاجه المتوفى فى الحياة الآخرة. وكان المصريون يعتقدون أن **الصور** بإمكانها أن تحل محل الشىء الفعلى، لذلك كانت حوائط المقابر تُزيَّن بمَشاهد لحاملى القرابين وإعداد الطعام، وأيضًا بمشاهد للحياة العائلية والنشاطات التى كان المتوفى يستمتع بها، أو يأمل أن يستمتع بها فى الحياة الآخرة. كذلك كان كثير من المقابر يُزود **بتماثيل** العمال ونماذج لورش كاملة ستقوم بإمداد المتوفَى بما يحتاجه كى يحيا الخلود فى راحة وترف، دون الحاجة للتضحية بالناس ليصاحبوا سيدهم فى الحياة الأخرى، كما هو الحال فى بعض الحضارات الأخرى.

الأخلاق الفاضلة، الطريق إلى الخلود

تتوقف عودة الحياة إلى الميت على **أن يكون إنسانًا فاضلًا وقت حياته**. فقد كان المصريون يعتقدون أن روح المُتوفَى تَمْثُل أمام **محكمة الآلهة فى «قاعة الحقيقتين»**. وكان **قلب المُتوفى**، الذى يُعتقد أنه مقر الروح والعقل، يوزن فى ميزان مقابل **الريشة** التى ترمز إلى «**ماعت**» أو الحقيقة، ثم يتلو المتوفَى بعدئذ التعاويذ من «**كتاب الموتى**»، ضمن طقس دينى للبرهنة على براءته من الآثام، على النحو التالى:

أنا أعطيت خبزًا للجائع، وبيرة للعطشان، وملابس للعريان، وقاربًا لمن لا قارب له... أنا لم أحرم اليتيم من ممتلكاته؛ أنا لم أقتل؛ ولم آمر بالقتل. لقد قَرَّبت القرابين إلى الآلهة، وقدمت قرابين التوسل إلى الأرواح... أنا طاهر اليدين واللسان... لقد فعلت الصواب من أجل مالك الحقيقة... أنا طاهر من أمامى، ومن خلفى.

والمتأمل لقائمة الذنوب فى المصادر المختلفة، يجدها تشمل **اثنين وأربعين إثمًا** بعدد الآلهة قضاة المحكمة، الذين يُمثِّلون مقاطعات مصر الاثنين والأربعين.

ولو كان الاعتراف صادقًا، يتوازن قلب المتوفى مع ريشة ماعت، ويُسمَح للميت (أو للميتة) بالمرور إلى الحياة الأخرى. ومن ذلك الوقت، يُقْرَن اسم الشخص المتوفى بأوزيريس، إله الحياة الآخرة، لينال مجد آخ الأعلى، ويصبح أحد الموتى المقَدَّسين الذين سيقضون حياة خالدة هانئة.

عالم الموتى، بين طبقية ومساواة

لكن أين يوجد عالم الموتى هذا؟ لقد كان المصرى يرى **الشمس** كل مساء تغيب فى الغرب لتبدو من جديد فى الشرق عند الصباح، فلا بد أنها قد جابت فى الليل عالمًا سفليًّا. وعلى نحو ما تصنع الشمس، ذهب الظن إلى أن الموتى يهبطون فى الغرب ويعيشون فى عالم مظلم، يتألق فيه النور عندما تمر من فوقهم الشمس فى رحلتها بالليل. لذلك سُمِّىَ عالم الموتى باسم «الغرب»، وسُمِّى الموتى «**بأهل الغرب**»، وقد نُصِّب أحد آلهة الموتى حاكمًا على الغرب.

ولا بد أن هناك مَقَرًا **مُمَيَّزًا للأرواح الممتازة**، خاصة للملوك أنصاف الآلهة. لقد كان هذا المَقَر **فى السماء**، حيث تصور المصريون عالمًا ثانيًا للموتى، أطلقوا عليه اسم «**دوات**». أليس هؤلاء الممتازون هم هذه النجوم اللامتناهية التى لا اسم لها؟ لا شك أن هذه النجوم ليست إلا موتى أو أرواح سعيدة وجدت طريقها إلى السماء؛ حيث ظلت فى سناء دائم إلى جانب الإله العظيم، سيد السماء الإله رع، إله الشمس، ومع غيره من الآلهة النجوم المشهورة، كالشعرى اليمانية والجبار ونجمة الصباح.

أليس من الطبيعى ألا يُلقى **الفِرعون ابن رع** على الأرض، بل ينبغى أن يبقى فى السماء، وأن تُرسَل الرسل إلى أهلها ليخبروهم أنه قد صار لهم ملك جديد.

ودون منزلة الملوك، هناك من يحيون فى «**مقر الأبرار**»، الذى تَصوره المصرى كمجموعة من الجزر تحيط بها المياه، وربما أوحى بهذا التصور شكل المجرة باهت اللون، التى تحيط شعابَها مساحاتٌ قاتمة. **وتمد إلهات السماء أثدائها** إلى فم المتوفى المتميز ترضعانه لبنًا طاهرًا ولا تفطمانه أبدًا. أما **المتوفى الأدنى منزلة**، والذى لا يستطيع التخلى عن عادات عالم الأرض، فيتلقى نصيبه من الطعام من **شونة الإله العظيم**، كما سيرتدى من الثياب ما لا يفنى.

وفى نصوص أخرى، نجد **قدرًا أكبر من المساواة**. ففى عقيدة الإله المتوفى أوزيريس ـ الذى غدا ملكًا للموتى أجمعين ومثالًا يحتذونه ـ نجد أن الرجل الذى يُفْصَم عنوة عن الحياة ويخلف

وراءه زوجته وأولاده ويُدفن فى الأرض، **حَرِيًّا بأن يلقى ما لاقاه الإله**[1]. إنه سيُبعَث فى هيئة **أوزوريس ثان** إلى حياة جديدة سعيدة، لا على شكل شبح خيالى، وإنما فى بعث مجسد حقيقى، وسيشب ابنه **كحورس ثان**، وسينتصر على العدو الذى أتلف حياة أبيه كما انتصر حورس على عمه ست الشرير، وسيحمى بيته ويصون شرف اسمه.

أما الموتى الذين **يخفقون فى الامتحان** فى مملكة أوزوريس، فإنهم يظلون فى مقابرهم يضنيهم الجوع والعطش، ولا يشاهدون الشمس بنهار أو بليل. كما أن القضاة (الذين تدل أسماؤهم على عقوبات مروعة) يحملون سيوفًا لمعاقبة المذنب، والحيوان المخيف الواقف أمام أوزوريس سيلتهم الميت ويمزقه. وفيما عدا ذلك لا نعرف شيئًا كثيرًا عن مآل هذا البائس، إذ لم يكن ذلك موضوعًا يميل خيال الشعب إلى استقصائه.

وكان من أَخْوَف ما يخشاه الميت أن **يفسد جسده، فينقطع تواصله مع الآلهه**، فلا يكون له فم يتحدث به معهم، أو أن يُسلب منه قلبه، وأن تُقْطَع رأسه، أو أن تعضه الثعابين، أو أن يضل طريقه فيقع على مذبح الإله قربانًا تعيسًا، أو أن يعوزه الطعام والشراب. وقد وجد المصرى القديم **فى تعازيم السحر وفى الأوراد** النجاة من كل ذلك.

إن ما عالجناه من ثنائية الذات الإنسانية ومآلها بعد الموت عند المصرى القديم، إنما يتعلق بالغيب الذى رواء الحس، ولا يجوز أن نأخذ ما جاء فيها بدقة تامة، والأرجح عندى أن **لها أصولًا دينية سماوية**[2]، وعندما خبت تلك الأصول، احتفظ الوجدان المصرى بالأفكار الجوهرية منها، وعَبَّر عنها الخيال الأصيل فى صور حية، يجد فيها الإنسان من الغموض والإبهام سحرًا خاصًا يجسد بصدق الكثير مما نؤمن به نحن معتنقو الديانات السماوية.

القارئ الكريم

استعرضنا فى هذا الفصل أربعة أنماط من الفكر البشرى، وتأملنا نظرتها للذات الإنسانية. كانت بدايتنا مع «**الفلسفة الغربية**» (الفلسفة اليونانية القديمة والفلسفة الحديثة)، ولا شك أنها أكثر الأنماط تجردًا كعمل عقلى بعيد عن الروافد الدينية. وقد لاحظنا أن معظم فلاسفة هذه المدرسة **أدركوا فى الإنسان ثنائية الروح/ العقل ـ الجسم**، وإن كانوا قد انقسموا إلى فريقين رئيسيين؛ الفريق الأول، يرى **أن الروح موجود مادى** يتكون من نفس ذرات المادة فى أدق

(١) جاء فى المتون «فكما أن أوزوريس حى حقًّا، فسيحيا هو كذلك، وكما أن أوزوريس لم يُمحَق فهو أيضًا لن يُمحَق».
(٢) قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

صورها (كالهواء والنار)، وهؤلاء هم الفلاسفة الذريون فى مرحلة ما قبل سقراط. و يرى الفريق الثانى أن **الروح/ العقل جوهر لا مادى**، ويختلف بذلك عن الوجود كله. وأشهر هؤلاء هم الفيثاغورثيون وأرسطو ثم الديكارتيون فى الفلسفة الحديثة.

ثم انتقلنا إلى «**الفكر الشرقى القديم**»، فقابلتنا «**الهندوسية**»، **كمزيج متباين** من الفكر الدينى والعمل العقلى والنظرات الفلكلورية، وفيها وجدنا **ثنائية الروح/ العقل ـ الجسد** ظاهرة تمامًا فى حياة الإنسان الحالية. وبعد أن تنتهى دورات التناسخ وتتحرر الروح وتفنى الجسدية، ترتد الثنائية إلى واحدية، ليست للكائن الإنسانى وحسب، لكنها **وحدة وجود مطلقة** ليس فيها فرق بين الموجد والموجود ولا بين السبب والنتيجة.

ثم وقفنا مع «**البوذية**» ـ كمحاولة للتحرر من سطوة رجال الدين الهندوس ـ فوجدناها تحاول **التحرر من الدين ككل**. فبوذا ـ انطلاقًا من تجاربه الذاتية ـ **أنكر الوجود الإلهى**، كما **أنكر وجود الذات الإنسانية!** بعد أن اعتبر أن كل ما يقع للإنسان هو مجرد خصائص ونشاطات لا ترجع إلى ذات فاعلة. وبالرغم من ذلك نجد البوذيين اليوم **يقدسون بوذا** ويضعون تماثيله ضمن تماثيل آلهة الهندوسية! ولا أرى ذلك إلا استجابة لفِطرة عارمة داخل الإنسان تدفعه للبحث عن الإله الخالق.

وأخيرًا كانت وقفتنا مع «**الفكر المصرى القديم**»، ولا شك عندى فى **أصوله الدينية السماوية**. وأرى أن **دور العقل قد اقتصر على صياغة التفاصيل**، التى إذا جُردت يتبقى تصور عقائدى واضح لا يختلف كثيرًا عن معتقداتنا الدينية. فالمصرى القديم **يؤمن بثنائية الإله الخالق والإنسان المخلوق**، كما **يؤمن بثنائية الروح ـ الجسد**، سواء فى الحياة الدنيا أو فى الحياة الآخرة. وقد انعكست هذه النظرة على حياة المصرى القديم، سواء فى سلوكه، أو عاداته وتقاليده، أو فى هندسته ومعماره.

عسى أن أكون ـ قارئى الكريم ـ قد وُفِّقت فى هذا الفصل لأن أنقل إليك بعضًا من جهود العقل الإنسانى فى النظر إلى الذات الإنسانية، إلى «أنا». وإذا كان «**لكل جواد كبوة**» فلعلك تشاركنى الرأى بأن العقل الإنسانى قد أصاب أحيانًا وكَبَا أحيانًا أخرى فى سعيه لفهم الإنسان. ولعل العقبة الكؤود التى أعاقته عن الوصول إلى كمال الحقيقة هى القاعدة البديهية بأن **إدراك الشىء على حقيقته يحتاج إلى مُدرِك أعلى**، لذلك فإن **النظرة فى المرآة لا تعكس إلا الصورة الظاهرة**، ولكن **ألا يكفى العقل الإنسانى ـ ويكفينا ـ شرف المحاولة؟**

الفصل السابع

كيـف بَنَيْتُ الحضارة

ـ كائن متميز متفرد

ـ العقل والجسد والآخرين

ـ مع الأرقام

ـ مؤسسة الأسرة

ـ الملحمة...

ـ أسلافى الصيادون وجامعو الثمار

ـ حياة الرفاهية والسكينة

ـ حياتهم الاجتماعية

ـ التكيف الفسيولوجى

ـ لماذا لم نعد نراهم

ـ إنتاج الغذاء

ـ الإعداد لإنتاج الغذاء

ـ الفصام ومشكلاته

ـ آثار إنتاج الغذاء

ـ الفلاحون الدائمون

ـ سمات مجتمع الفلاحين

ـ الثورة المدنية

ـ مقدمات الثورة ومسارها

ـ هل من إيجابيات للثورة المدنية؟!

ـ نشأة وتطور الكتابة

ـ محصلة التمدن محزنة

ـ آثار الثورة المدنية

ـ التحديث

ـ معايير التحديث

ـ آثار التحديث

ـ خدعة تحديثية تكنولوجية.

ـ مع الحضارتين، المصرية القديمة والعربية الإسلامية.

ـ حضارة أجدادى المصريين القدماء

ـ فجر الضمير

ـ مصر جنة الخلد

ـ فجر الحضارة فى مصر

ـ الحضارة العربية الإسلامية ـ هويتى

ـ القارئ الكريم

بين أصدقائى **أُسرةٌ متميزةٌ متفردةٌ**، جَمَعَت بين الثراء المادى وتَقَدُّم الزوج والزوجة فى ميدان الفكر والعلم، وفى الأسرة ابنان تمتعا بما قدمه لهما والداهما من مميزات وتيسيرات. لم يأخَذ أحد الابنين حياته مأخذ الجد، بل أضاعها فى اللهو والبحث عن المتعة، ولم يبذل جهدًا من أجل بناء مستقبله، فأصبح مثالًا للشباب الفاسد الفاشل المتخلف. أما الابن الآخر فقد أحسن استغلال ما أتاحته له أسرته من إمكانيات، فبذل الجهد والعرق، وبنى لنفسه حياة راقية هو جدير بها. لكنه ـ مثل الكثير من رجال الأعمال الناجحين ـ انشغل حتى أذنيه فى بناء إمبراطوريته الاقتصادية الكبيرة، وفى سبيل تحقيق ذلك لم يبالِ الشاب بالقيم الإنسانية والدينية التى تربى عليها، كما شُغل عن والديه وكان عاقًا لهما، بل وسبب لهما، متاعب ومشاكل كثيرة.

تشير هذه القصة الرمزية إلى البشرية وقصتها مع الحضارة. فقد أُتيحت للإنسان كل الموارد المادية، كما زُوِّد بالملكات والقدرات الفطرية التى تمكنه من بناء الحضارة. تكاسلت جماعات من الجنس البشرى عن استغلال طاقاتها ومواردها فكان مآلها الفشل والتخلف، بل أصاب بعضها الفَناءُ (الابن الأول). بينما أحسنت جماعات أخرى استغلال تلك الطاقات والموارد (كالابن الثانى)، فبنت حضارات شامخة، لكن آخرها وأقواها ضلت الطريق، وجرفها شلال المادة، وألقى بها بعيدًا عن الهدف.

ولعلك قارئى الكريم أدركت أن **الأم** ـ فى قصتنا ـ ترمز إلى الفطرة السوية والمنظومة الأخلاقية اللتين أفسدهما الإنسان المعاصر، بينما يرمز **الأب** إلى موارد الطبيعة والبيئة التى أتلفها الإنسان وكاد أن يستنزفها ويدمرها، أثناء بحثه الحثيث عن الثراء المادى واللذة اللامتناهية.

وإليك قصة أسلافى وصراعهم من أجل بناء الحضارة:

كائن مُتَمَيِّز مُتَفَرِّد

إن المتابع لأسلافنا الأوائل وهم يفرون خائفين وسط حشائش الساڤانا فى أفريقيا هربًا من حيوان مفترس، ما كان يتصور أنهم فى يوم من الأيام **سيسودون كوكب الأرض**، بل وينجحون فى الخروج منه إلى **الكواكب المحيطة!!**

كيف استطاع هذا الكائن الضعيف الدفاع عن نفسه بشكل فَعَّال، وليس له ناب ولا مخلب، ولا جلد مدرع، وليس سريع الحركة كالحيوانات المفترسة؟ إن كل هذه المميزات تُعتَبر ضئيلة إذا ما قورنت **بتكنولوجيا الحماية التى توصل إليها العقل البشرى**، حتى إن عصا مصنوعة من غصن سميك متين فى يد إنسان كانت أفضل كثيرًا من ناب قاطع أو مخلب حاد.

لقد أصبح الجنس البشرى الذى قضى طفولته فارًا من مفترسات الساڤانا الأفريقية هو **أكثر الكائنات انتشارًا وأكثرها قدرة على العيش فى جميع البيئات على شدة تباينها**. فبنِي الإنسان يسكنون فى بيئات يتراوح مداها بين مئات الأقدام تحت سطح البحر وقرى جبلية على ارتفاع يتجاوز الـ ١٦,٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، كما يسكنون غابات المطر الاستوائية التى لا تصل إليها أشعة الشمس والصحراء القاحلة التى تشوى رمالها الشمسُ الحارقة، وأيضًا القطب الشمالى الذى تُجَمِّد برودته ماءَ الشرب[1]. بل لقد طور البشر أساليب تمكنهم من **حمل بيئتهم معهم** إلى أعماق البحر وإلى الفضاء الخارجى.

العقل والجسد والآخرون

إن ما مَكَّنَ الإنسان من البقاء ثم الانتشار وبناء الحضارات هو مزيج مُحْكَم التوازن من **عناصر ثلاثة: العقل ـ والبنية الجسدية ـ والسلوك الاجتماعى الفطرى**. وقد تحدثنا فى الفصل الأول عن الملكات التى **تميز العقل الإنسانى**، وتجعل الجنس البشرى متفردًا، وإن كنا ما زلنا نجهل الطريقة التى يحول بها الدماغ طاقة كهربائية لا تزيد على ١٠ واط مع بعض الكيماويات إلى ذكريات وتجارب سابقة وأفكار جديدة وعمليات فكرية خلاقة، وإلى شعور وعواطف وأحلام، وباختصار إلى وعى كامل بأنفسنا وبيئتنا. ولا شك أن أعظم إبداع حضارى للعقل البشرى كان **اللغة الإنسانية**، التى أعانت الإنسان على التفكير والاحتفاظ بالمعلومات

(١) يشارك الإنسان فى هذا الانتشار البيئى الواسع كائنات قليلة جدًّا، منها الكلب والقوارض والقمل.

والتواصل مع الآخرين وتوارث المعرفة عبر الأجيال، مما مَكَّنَ كل جيل أن يبدأ من حيث انتهى السابقون.

كذلك تناولنا فى الفصل الخامس **تعديلات البنية الجسدية للإنسان**، والتى تركزت حول **القدمانية** (السير منتصب القامة) وتعديل **بنية ووظيفة اليد**، مما جعلها مؤهَلة للقيام بوظائف ثلاث؛ فهى عضو حس اللمس الرئيسى، حتى إنها تستطيع أن تمارس وظيفتها هذه فى الظلام ومن خلف السواتر. وهى عضو للإشارة، إذ تستطيع توجيه الانتباه إلى الأشياء وإصدار التعليمات ونقل الأفكار والتواصل مع الآخرين فى لغة غير منطوقة. وفى نفس الوقت، احتفظت الذراعين بدور هام فى الحركة، فالإنسان الماشى على قدمين ما زال فى حاجة لأن يؤرجح ذراعيه فى الهواء أثناء سيره (خاصة الرجال) ليحافظ على توازنه، عِوَضًا عن المشى على أربع.

وقد أعانت هاتان اليدان الماهرتان **العقلَ** على التفوق فى ميدان التكنولوجيا، فأصبح الإنسان وحده هو الذى يصنع الأدوات بقدر كبير من الإتقان والتعقيد والابتكار، مما حدا الفيلسوف الكبير إيمانويل كانت للاعتقاد بأن«**اليد هى مخ الإنسان الخارجى**». إن الإنسان يقوم بهذه الإنجازات بالرغم من أنه لا يمتلك برامج عقلية فطرية لإنتاج تلك الأدوات واستعمالها. ولكن ذلك لا ينفى أنه **يتمتع بملكة فطرية** (لا توجد فى أى كائن آخر) **على الإبداع أعانته على الابتكار**.

ويبقى العنصر الثالث الذى أعان أسلافنا على البقاء ثم الانتشار وبناء الحضارات، وهو **السلوك الاجتماعى الفطرى**. ويتجلى هذا السلوك فى ثلاثة مستويات؛ أولها هو **علاقة الرجل والمرأة**، والتى لا تقف عند إشباع كل منهما للآخر جنسيًّا، ولكن يمتد إلى توزيع المهام، سواء فى تدبير الغذاء (يقوم الرجل بالصيد والمرأة بجمع الثمار) أو الواجبات تجاه الأسرة (تقوم المرأة بإنجاب الأطفال وإرضاعهم ورعايتهم، ويقوم الرجل بالدفاع عن الأسرة وبما تحتاجه من أعمال شاقة كبناء البيوت). والمستوى الثانى هو **العلاقة بين الوالدين والأبناء**؛ فإذا كانت صغار القردة تنفصل عن الأسرة مبكرًا، حتى إن أمهات القردة لا تُشرك صغارها بعد الفطام فى الغذاء، فإن فترة الحضانة والرعاية الأسرية تمتد إلى أكثر من عشرين عامًا عند البشر. ويظهر المستوى الثالث من السلوك الاجتماعى فى **معيشة عدة عائلات إنسانية معًا**، إذ يحقق لهم ذلك الحصول على غذاء أكثر، والمحافظة على حياتهم بشكل أفضل، مما أتاح لهم أن يُنتجوا نسلًا أكثر عددًا.

وقد أدرك الإنسان **حتمية العيش فى جماعات**، حتى إننا نجد من يحيون فى صحراء كالاهارى الشاسعة قليلة السكان يعيشـون متكدسين فى مخيمات تُعتبر من أكثر مناطق العالم ازدحامًا!

مؤسسة الأسرة

لا شك أن مؤسسة الأسرة كانت **أكبر وأرسخ ابتكارات الإنسان** منذ بداية بنائه لحضارته وحتى الآن، حتى يمكننا القول إنه لولا استقرار الأسرة عبر التاريخ لأصاب الإنسان الانقراض كما حدث لكائنات أخرى.

وإذا كان قطع الحبل السُرى عند الولادة يفصل الوليد عن أمه، فإن الصلة تعود فى إطار جديد، حميمة كما كانت، ولكن **بحبل سُرى رمزى هو الأسرة**، التى تكفل للطفل الحماية والتغذية وإمداده بالآراء والأشياء التى ستؤهله لأن يصبح عضوًا كاملًا فى المجتمع. ويظل هذا الحبل السُرى باقيًا ما بقى الإنسان حيًّا، بالرغم من استقلاله المادى عن أسرته، إذ تظل تمده بالإشباع النفسى. لذلك صرنا نتحدث (عن جدارة) عن **شجرة العائلة**، التى يحافظ كل فرع فيها على علاقته بالأصل.

والأسرة اختراع يتفرد به بنو الإنسان، إذ يحقق لكل منهم عددًا من **المتطلبات الأساسية** التى لا غنى عنها؛ وهى إشباع الغريزة الجنسية، وإشباع غريزة الأمومة والأبوة، وتوفير البيئة المناسبة لرعاية الأطفال لفترة طويلة، والحصول على الغذاء وباقى المتطلبات المادية، وقبل كل ذلك إشباع الحاجة النفسية للمشاركة والصحبة. ويتم ذلك كله من خلال **تحديد الحقوق والواجبات المتبادلة بين طرفى الزواج**. وما كان ذلك ممكنًا فى غياب صفة إنسانية فريدة، وهى **سيطرة العقل الواعى** على شهوة الإنسان الجنسية وميوله الأنانية ونزعته العدوانية.

وفى كل المجتمعات، تُعتَبر **مراسم وطقوس الزواج** بمثابة إعلان لقبول الشخصين (بشكل أبدى) الالتزام بقيم مجتمعهم والعمل على تأصيل ثقافته وتوارثها من جيل إلى جيل، وفى المقابل يعلن المجتمع رضاءه عن هذه العلاقة، ويعتبر أن الأطفال الذين ينجمون عنها شرعيون يتمتعون بجميع حقوق أفراد المحتمع.

وفى عام ١٩٣٣، شَكَّل الرئيس الأمريكى لجنة خاصة لتحديد **ما الذى تفعله الأسرة للفرد وللمجتمع ككل**. جاء فى تقرير اللجنة أن نشاطات الأسرة تشمل المناحى التالية: الإنجاب

واستمرار النوع ـ الاقتصاد ـ التربية والتعليم ـ الحماية ـ تلقين المفاهيم الدينية ـ إضفاء المركز الاجتماعى ـ الترفيه ـ توفير الصحبة. واليوم، وبعد أكثر من ثلاثة أرباع قرن، لم تعد الأسرة تَوْلى بعض هذه النشاطات الاهتمام بعد أن تكيفت مع المجتمع المتغير. فعلى سبيل المثال، لم تعد الأسرة وحدة منتجة مستهلكة، بل أصبحت مستهلكة فقط بعد أن أُوكل أمرُ الإنتاج إلى المصانع، كذلك قل دور الأسرة فى المشاركة والصحبة مع شيوع وسائل الترفيه الحديثة.

وقد قدم الأنثروبولوجيون العديد من **التفسيرات لنشأة الأسرة**، نرى وجاهة فى تفسيرين منها؛ الأول: أن الأسرة بدأت **برباط بين الأم وأولادها**، ويستشهد مناصرو هذا الرأى بالمجتمعات الأُمَمية، التى تنسب الأبناء إلى أمهاتهم وتعترف بالقرابة والإرث من جهة الأم فقط، وفيها يسكن العروسان عند أم العروس. والتفسير الثانى يرفض التفسير الأول، انطلاقًا من أن المجتمعات الأُمَمية لم تُعمَّر طويلًا، ويطرحون بدلًا منه أن الأسرة نشأت نتيجة **للانجذاب الجنسى والنفسى بين كل من الذكر والأنثى** فى بداية تاريخ الإنسان، ويتخذون من قصة آدم وحواء دليلًا على ذلك.

مما مضى، نرى أن الأسرة ـ كطرح إلهى/ إنسانى حيوى حاسم ـ لا يمكن أن يقوم بدونها مجتمع، ولا يمكن أن تختفى دون أن يختفى أيضًا أسلوب الحياة الإنسانية كما نعرفه، لذلك فشلت كل المحاولات التى جرت لإلغاء مؤسسة الأسرة[1].

مع الأرقام

وفى نظرة سريعة لتاريخ أسلافى منذ أن خلق الله تعالى الإنسان وحتى الآن، نجد أنه قد عاش على سطح الأرض حوالى ١٠٠ بليون نسمة (١٠٠ , ٠٠٠ مليون). **وقبل اثنى عشر**

(١) إذا أردنا تصور وضعًا **بديلًا لمؤسسة الأسرة**، قابلنا عددًا من الأطروحات التى قُدِمت بحيث تلغى هذه المؤسسة وتحافظ على المجتمع موجودًا. وإليك أحد هذه الأطروحات التى تتمتع بقدر من الفكاهة وخفة الظل، والتى يعرضها بيتر فارب فى كتابه (بنو الإنسان):

تصور مجتمعًا أراد أن يلغى مؤسسة الأسرة بعد أن سيطر عليه مجموعة من التقدميين! فأوكل إلى زعيمة عظيمة هذه المهمة، فأصدرت مرسومًا يفرض إخصاب الإناث اللاتى يردن أطفالًا صناعيًّا بحيوانات منوية تؤخذ من ذكور حسنى الصفات الوراثية، وأن يُربى الأطفال فى حضانات ثم مدارس داخلية تلقنهم قيم المجتمع. وفى هذا المجتمع تكون العلاقات الجنسية مشاعًا بين الجميع وتكون بقصد المتعة فقط، وإذا حدث حمل نتيجة ذلك أُعتبر الجنين غير شرعى وأُجهض. أما المشاركة الاقتصادية فلا حاجة لها، فكل فرد يدبر نفقات معيشته لنفسه فقط، فلا أُسرة هناك. وأخيرًا ـ وليس بآخر ـ تقوم أجهزة حكومية بالإشراف على الملكية الفردية والإنتاج والتوزيع وكل شىء!!!

ألف عام (تمثل حوالى ٥٠٠ جيل إنسانى فقط) بلغ عدد سكان الأرض حوالى عشرة ملايين نسمة جميعهم يعيشون حياة الصيد وجمع الثمار، وفى هذا التوقيت تقريبًا بدأ الإنسان فى بضعة أماكن فى زرع النبات وتدجين الحيوان واستعمال مصادر للطاقة غير عضلاته.

وعند **ميلاد المسيح**، كان نصف البشر يفلحون الأرض، ونصفهم صيادين وجامعى ثمار. وبعد ذلك **بقرابة ١٥٠٠ عام**، كان حوالى ١٪ من سكان الأرض فقط يمارسون الصيد والجمع، بينما انشغل الآخرون بالزراعة والصناعة والتجارة والحرف والمهن وكل ما تحتاجه الحضارة الحديثة من أعمال. **واليوم (٢٠١٣م)** تضاءلت أعداد الصيادين وجامعى الثمار حتى بلغت ٣ ـ ٤ أفراد من كل ١٠٠ ألف نسمة من مجموع ٦,٨ مليار نسمة يعمرون الأرض حاليًّا.

***

الملحمة...

قدمنا لمحة سريعة لتميز الجنس البشرى الذى مكنه من بناء الحضارة. أما كيف استغل أسلافُنا ملكاتَهم لتحقيق هذه المهمة، **فرحلة شديدة القسوة، خطها أسلافنا بالعرق والدموع تارة، وبالدماء تارة**. رحلة كانت تدفعهم فيها ملكاتهم ومثابرتهم خطوات لأعلى، ثم تهوى بهم أطماع بعضهم، ليعاودوا التقدم مرة أخرى، وهكذا.

إن تفاصيل رحلة أسلافنا لبناء الحضارة، ملحمة تفوق فى معاناتها كل ما خُط فى ألف ليلة وليلة والإلياذة والأوديسا[١]. ولشغفى بتلك الملحمة، ولإدراكى بأن حديث الذات الإنسانية عن نفسها لا يكتمل دون عرضها، لجأت إلى خبير بها، أحاوره لأستزيد مما سأعرضه عليك.

وقع اختيارى للمحاورة على **عالِم الأنثروبولوجيا الأمريكى الكبير بيتر فارب Peter Farb** [٢]، مؤلف عشرات الكتب فى الأنثروبولوجيا ومختلف مجالات العلم، وعضو عدة جمعيات لعلم الأجناس وعلم الآثار، وزميل الاتحاد الأمريكى لتقدم العلوم وزميل جمعية المؤرخين الأمريكيين، ومن أهم كتبه وأشهرها **كتابه «بنو الإنسان» Humam kind** [٣].

---

(١) الإلياذة والأوديسا: تُعتبران أشهر ملحمتين فى التاريخ، وتدوران حول حروب طروادة، وتنسبان إلى الشاعر اليونانى العظيم هوميروس، من القرن الثامن قبل الميلاد.

(٢) ولد عام ١٩٢٩ وتوفى بمرض سرطان الدم (لوكيميا) عام ١٩٨٠.

(٣) الكتاب ترجمة الأستاذ زهير الكَرْمى، نشرته سلسلة عالم المعرفة الكويتية ـ عدد ٦٧ ـ سنة ١٩٨٣. **ومعلومات الحوار التالى ملخصة بتصرف عن هذا الكتاب.**

أسلافى الصيادون وجامعو الثمار

(شكل ـ ١)
بيتر فارب **Peter Farb**
عالم الأنثروبولوجيا

أردت أن أناقش ملحمة بناء الحضارة من بدايتها، منذ أن كان أسلافنا يحيون فى تجمعات صغيرة على الصيد وجمع الثمار. قلت لبيتر فارب (شكل ـ ١)؛ يعتقد البعض أن أسلافنا من الصيادين وجامعى الثمار **كانوا يحيون عيشة الكفاف أو دونه**، وأنهم كان يصبحون من نومهم كل يوم لا يدرون ما إذا كانوا سيأكلون أم لا، ومن ثَمَّ فإنهم كانوا يتأرجحون على حافة هاوية الفناء، بل يصفهم الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز بقوله: «لم يكن عندهم فنون ولا كتابة ولا مجتمع، والأسوأ من ذلك أنهم كانوا فى خوف دائم من ميتة مفاجأة، والرجل منهم كان يعيش عمره القصير وحيدًا فقيرًا قذرًا متوحشًا»[١]، فما رأيك ؟

حياة الرفاهية والسَّكينة

ابتسم فارب وقال لى: إن الحقيقة غير ذلك؛ فقد كان أسلافنا يحيون «**حياة مجتمع الرفاهية الحقيقية**»، حتى إن الأب بيارد سَجَّل (فى كتاب العلاقات اليسوعية، عام ١٦١٦) دهشته من السهولة التى يحصل بها الهنود الحمر من قبائل الميكماك، فى نيوبرونزويك بكندا، على كميات وافرة من الغذاء. انظر إلى قوله عنهم: «لم يكن قصر سليمان أبدًا منظمًا ومزودًا بالغذاء مثلهم، ولم يكونوا أبدًا فى عجلة من أمرهم، بخلاف حالنا نحن الذين لا نستطيع عمل شيئًا إطلاقًا بدون عجلة وقلق».

وقد أظهرت الدراسات الميدانية الكثير عن أسلوب حياة أسلافنا هؤلاء[٢]. ولا شك أن أول ما يلفت النظر هو **تقسيم المهام بين الرجل والمرأة**، فكانت المرأة مسئولة عن جمع الفواكه والثمار الصلبة والجذور وغيرها، وكان الرجل يعزز هذا الغذاء بلحم الصيد الغنى بالبروتين.

(١) توماس هوبز Thomas Hobbes (١٥٨٨ - ١٦٧٩) ـ الفيلسوف الإنجليزى، من دعاة الحكم الملكى المطلق. شاركه فى رأيه عن الصيادين وجامعى الثمار كثيرون، منهم الفيلسوف الرومانى لوكريتيوس والكاتب الأمريكى مارك توين، وعدد من مخرجى أفلام هوليود!

(٢) أهم هذه الدراسات، تلك التى أُجريت على الأقزام فى أفريقيا وصيادى تانزانيا وصحراء كالاهارى وسكان أستراليا الأصليين. ذلك بالإضافة بالطبع إلى دراسات علماء الأجناس والآثار على ما تبقى من آثار هذه العصور القديمة.

وهكذا كان أسلافنا **يستمتعون بغذاء متنوع إلى أقصى الحدود**، فقد كانوا يعرفون بدقة متى تنضج ثمار أنواع النباتات المختلفة، ويستدلون من رؤية قطعة من ورقة نبات جافة على وجود درنة صالحة للأكل تحت سطح التربة، كما يعلمون بدقة متى يَرِد كلُ نوع من أنواع حيوانات الصيد الماءَ للشرب.

لقد حدث تقسيم العمل تلقائيًا منذ فجر التاريخ بناء على **عوامل بيولوجية فطرية**، فقد كان طبيعيًا أن يقوم الرجال بالصيد، فهم الأقوى عضليًا والأسرع ركضًا والأكثر خشونة ورغبة فى المخاطرة. كما أنه لم يكن من الحكمة على الإطلاق تعريض حياة الإناث للخطر، فهن القادرات على إنجاب الأطفال وإرضاعهم.

وقد **كان لتقسيم العمل عدة فوائد**، أولها تنويع الغذاء وتوازنه بين حيوانى ونباتى، وثانيها ما حققه ذلك من زيادة كفاءة كل جنس فيما تخصص فيه من عمل، وثالثها، ما يحققه ذلك من التعاون والتكافل، فصار كل من الذكر والأنثى محتاجًا للآخر، ويعمل على الالتقاء به مساءً لأكل الغذاء المشترك فى مكان اتفقا على الالتقاء فيه.

وقد **كان اعتماد أسلافنا هؤلاء على الطعام النباتى أكثر من اعتمادهم على الطعام الحيوانى**. فالنبات يُكَوِّن ما بين ٥٠٪ - ٨٠٪ من طعامهم حسب الموسم[١]. وكان الرجل يُعتبر محظوظًا جدًا إذا اصطاد ستة حيوانات كبيرة فى السنة، وكان كثيرون منهم يفشلون فى صيد حيوان كبير واحد طوال حياتهم، وعند وجود عجز كان يتم الاستعاضة بالحيوانات الصغيرة كالأرانب، وعند اللزوم يسدون احتياجهم للبروتين الحيوانى بصيد السحالى والأفاعى. ولما كان هذا الإنسان لا يملك وسيلة لحفظ اللحوم فقد كان يشارك باقى الأُسر فى صيده، وهذه هى أفضل وسيلة لحفظ الطعام، إذ إن الأُسر الأخرى كانت تشركه فى صيدها القادم.

لقد **كان هذا النمط الغذائى مثالى**، يوفر للإنسان جميع احتياجاته، من البروتينات (الحيوانية والنباتية) والكربوهيدرات والدهون والفيتامينات والأملاح. كذلك كان انتقالهم وهجرتهم يستهلكان الكثير من السعرات الحرارية، فكان من النادر أن نجد بينهم من يُصاب بأمراض قلة الحركة؛ كالسمنة وتصلب الشرايين وأمراض القلب والأمراض النفسية، وهى المشاكل الصحية التى ظهرت بعد اختراع الزراعة ثم سادت فى المجتمعات الصناعية.

(١) يعتمد سكان صحراء كالاهارى اليوم كغذاء رئيسى على جوز المونجونجو، وهو يوازى فى قيمته الغذائية أفخر ما يُقدم على موائدنا الحديثة، كشرائح اللحم وفول الصويا. كما يعتمدون على جوز المارولا؛ وهو أغنى من جوز المونجونجو فى البروتينات (٣١٪) والأملاح. ثم تأتى ثمار نبات الصنوبر فى المرتبة الثالثة.

التكيف الفسيولوجى

قلت لبيتر فارب، إن ما تقول يعنى **أن الجسد الإنسانى متكيف بشكل أكبر مع نمط حياة الصيادين وجامعى الثمار، وأن حياة الدعة فى المجتمعات الحديثة لا تتوافق مع تركيبه.** وأنا أضيف ـ من دراستى لعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) ـ أن الجسم الإنسانى قد زُوِّدَ **بردود أفعال Reflexes تتناسب مع حالات الطوارئ** التى كانت تواجه الصيادين وجامعى الثمار، كزيادة سعة الرئتين للهواء وسرعة خفقان القلب عند مواجهة الأزمات. ولكن هذه الميزة تتحول فى أجواء **المدن العصرية** إلى مَضَرَّة، نتيجة دخول الهواء الملوث إلى الرئتين. كذلك فإن ما يُفرَز فى الجسم من **هورمون الأدرينالين** الذى يزيد من كمية الدهون فى الدم لتكون وقودًا للعضلات فى حالة الطوارئ لا يتم حرقه فى الإنسان الحديث، بل يؤدى إلى السمنة، ويتحول بعضه إلى كوليستيرول قد يؤدى إلى إصابته بتصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم وأمراض القلب. كذلك فإن **زيادة التوتر** الذى يعين الصياد على أداء مهمته يمثل مشكلة كبيرة للإنسان العصرى، عليه أن يبحث لها عن علاج لدى الأطباء النفسيين.

حياتهم الاجتماعية

رفع فارب حاجبيه وهز رأسه مُؤَمِنا على ما أقول، فقلت له: لنقطع هذا الاستطراد الطبى ونعود إلى نمط حياة أسلافنا وقيمهم الاجتماعية. استطرد فارب قائلًا؛ فى الأرجح كان أسلافنا يعملون ما بين ١٢ – ٢٠ ساعة فى الأسبوع، وهو قدر تحسدهم عليه الحركات العمالية المعاصرة التى تفاخر بأن عمالها يعملون لمدة ٤٠ ساعة أسبوعيًّا فقط! وقد وفر لهم هذا وقتًا كافيًا كانوا ينفقونه فى التزاور والحوار والرسم وصناعة الملابس والحُلِى والموسيقى والرقص.

ولا يعرف هؤلاء الأسلاف مفهوم اختزان الطعام لأوقات الحاجة فى المستقبل! ولماذا يختزنون والأرض معطاءةً بسخاء، حتى إن **مفاهيم الحرص والادخار لم تكن معروفة لديهم؛** لذلك نجد المعاصرين منهم يضحكون ويسخرون من النصائح التى يوجهها لهم بعض المبشرين بأن يمسكوا أياديهم قليلًا وأن يكونوا أقل بذخًا وإسرافًا. كذلك كان **مفهوم الملكية الفردية الخاصة** عندهم ضعيف، ومن ثَمَّ لا يسبغون مركزًا اجتماعيًّا راقيًّا على من يمتلك ثروة (لو امتلكها)[1].

(١) تروى كتب الأنثروبولوجيا قصة تعود لعام ١٩٧١، إذ اُكتشفت فى الفلبين جماعة من الصيادين وجامعى الثمار يسكنون الكهوف، وحاول الفلبينيون اكتساب ودهم، فوضعوا عددًا من السكاكين اللامعة على باب الكهف، وأخذوا يَحُثُّون الرجال على أخذها، فأخذ كل رجل سكينًا وتبقت سكين واحدة على الأرض، رفضوا جميعًا أن يأخذوها، فهم لايتصورون أن يأخذ أحدهم سكينتين بينما لكل رجل آخر سكين واحدة!

ولعل أسلافنا هؤلاء كانوا **من أكثر الناس كلامًا وجدلا**. وإذا زادت حدة الجدل وتوترت الأعصاب ـ حتى لتخال أنهم سيقتتلون ـ سرعان ما يهدأ الموقف، ويبدأ المتخاصمون فى الضحك وتُنسى الخلافات. أما إذا تجاوز الاختلاف حده، تَدَخَّل الآخرون لإصلاح ذات البين، وإذا فشلوا فى ذلك ـ وحتى لا يضطر المتخاصمان للاقتتال ـ يحزم أحدهما متاعه و«**يهاجر**» **ناقلًا ولاءه إلى جماعة أخرى**. ومن الواضح أنهم **يكرهون العنف** الذى يمكن أن يدمر جماعة قليلة العدد. لذلك لا يوجد فى ثقافتهم أية قصص تمتدح القتال، بل إن كلمة «حرب» غير موجودة ضمن مفرداتهم فى أغلب الجماعات، كما أنهم لا يعرفون ولا يمارسون أية ألعاب رياضية تنافسية.

ومن السمات المثيرة فى حياة الصيادين وجامعى الثمار أن **الكوارث الطبيعية** كالجفاف والفيضانات التى يمكن أن تسبب الهلاك لملايين الفلاحين، لا تؤثر فى حياتهم إلا قليلًا! ذلك أن بوسعهم إذا حلت بهم مثل هذه الكوارث أن يحزموا أمتعتهم القليلة وينتقلوا إلى مناطق أخرى.

لذلك فإن هؤلاء **كان يحكمهم «قانون تناقص المردود»**، ومعناه أن نقص الموارد الطبيعية ـ نتيجة للاستهلاك ـ يتطلب فى البداية جهدًا أكبر للحصول على الطعام، ثم يصير هذا الجهد غير مُجدى، فيضطرون إلى الهجرة إلى مكان آخر، حيث تتكرر ـ بعد فترة ـ نفس المشكلة. لذلك كان عليهم دائمًا أن يستخدموا متاعًا خفيف الوزن، لا يزيد على ١٢ كجم للشخص الواحد. كما أن مساكنهم الجديدة سهلة البناء، لا يحتاج الرجل لبنائها لأكثر من يوم واحد.

لماذا لم نعد نراهم؟

سألت بيتر فارب؛ إذا كان نمط حياة أسلافنا الصيادين وجامعى الثمار أسلوب حياة متكامل، وَفَّر للإنسان احتياجاته الاجتماعية والجنسية والنفسية والغذائية، فما بالنا نجد أن هذا النمط قد انقرض، أو كاد؟

هز فارب رأسه وقال: هذا سؤال شديد الأهمية، واجه علماء الأنثروبولوجيا، وبذلوا الجهود للإجابة عنه. يكمن سر التضاؤل السريع فى أعداد الصيادين وجامعى الثمار فى أن المزارعين ـ وهم أقوى من أولئك ـ ومن بَعْدِهم سكان المجتمعات الصناعية ـ وهم أقوى كثيرًا من الاثنين ـ **استولوا على الأراضى التى كان يعيش عليها الصيادون وجامعو الثمار**. وخلال عملية الاستيلاء **قُضِىَ على أعداد هائلة منهم**، إما مباشرة نتيجة قصور شديد فى الأسلحة وعدم

حبهم للقتال، وعندما اضطروا إلى ذلك كان الوقت قد فات. وإما بشكل غير مباشر نتيجة **استغلال أراضيهم** بحيث لم يعد هناك حيوانات تُصطاد ولا نباتات برية تُجمع ثمارها. كما ساعد فى ذلك أيضًا تَعَرُّض الصيادين وجامعى الثمار **لأمراض جديدة عليهم**، نقلها إليهم المستوطن الأوروبى (كالزهرى والسيلان والدرن) ففتكت بهم دون أن يكون لديهم مناعة ضدها. وساعد فى إفنائهم كذلك **تعرضهم لضغوط نفسية وعضوية** مختلفة لم يعهدوها من قبل.

لذلك نجد اليوم أن بقايا الصيادين وجامعى الثمار قد **أُكرهوا على التحول إلى الحياة الزراعية الفردية أو حياة العمال فى المدن**. والقلة القليلة منهم **انحشرت ـ كما لو كانوا معتقلين** ـ فى مناطق هامشية لا تصلح للزراعة، مثل صحراء كالاهارى فى أفريقيا والصحراء الوسطى الكبرى فى أستراليا، والغابات الاستوائية فى الكونجو وجنوب أمريكا، والمناطق القطبية فى سيبريا وشمال أمريكا.

إنتاج الغـذاء

قلت لبيتر فارب؛ ذكرتَ أن نمط الحياة الذى يقوم على «الصيد وجمع الثمار» قد أخلى المسرح ـ مجبرًا ـ لنمط حياة يعتمد على «إنتاج الغذاء». ولا شك أن ذلك قد أحدث تغييرًا كبيرًا فى جميع مجالات الحياة، ولا شك أن إنتاج الغذاء يُعَد **أحد الخطوط الفاصلة العظيمة فى تاريخ الإنسان**، التى تحدد انتقاله من حالة إلى أخرى، فكيف تم هذا الانتقال؟

أجابنى فارب: لقد ظهر إنتاج الغذاء **بشكل مستقل فى مناطق متفرقة من الكرة الأرضية**، بالرغم من اختلاف الظروف الطبيعية بين هذه المناطق اختلافًا بَيِّنًا، والتى انعكست على نوع النباتات التى قام الإنسان بإكثارها فى كل منطقة[1].

وفى معظم أنحاء العالم لم يتطور إنتاج الغذاء إلى أكثر من **مستوى الكفاف** إلا مع بداية الثورة الصناعية. وحتى فى العالم الصناعى المعاصر، ما زال أكثر من نصف بنى الإنسان ينتجون غذائهم الضرورى باتباع أساليب زراعية بدائية بسيطة لا تسد احتياجاتهم.

(١) فى أريحا بفلسطين، حيث الطقس الدافئ الجاف بدأ الإنسان بزراعة القمح ثم الشعير، وفى شمال الصين البارد بدأ بزراعة الذرة البيضاء، وفى تايلاند الاستوائية ابتدأ بزراعة الأرز، وزُرعت الذرة الصفراء فى هضبة المكسيك الباردة الجافة، كما بُدئ بزراعة البطاطا فى جبال بيرو العالية. أما فى أمريكا الشمالية وسهول المكسيك فقد تركزت الزراعة حول الثلاثى الغذائى عالى القيمة: الذرة والفاصوليا والكوسة.

وقد اعتمد إنتاج الغذاء على **عملية التدجين**، التى هى **عملية تبادل منفعة** بين بنى الإنسان (المُدَجِّنين) وعدد من النباتات والحيوانات المفضلة (المُدَجَّنين). وفى هذه العلاقة، **يحصل الإنسان على كميات أكبر من الطعام (نباتات وحيوانات) وعلى بعض المواد الخام (كالقطن والصوف)**، عن طريق استحداث صفات جديدة مفيدة. فمثلًا لم يكن للأغنام صوف غزير قبل تدجينها، وكان الدجاج البرى لا يبيض إلا فى موسم معين، كما كانت الأبقار والجواميس البرية تدر اللبن الحليب عندما تُرضع صغارها فقط. وفى المقابل، **أفادت النباتات والحيوانات المُدَجَّنة** من عملية التدجين، فزادت أعدادها زيادة كبيرة واتسعت الرقعة الجغرافية التى تعيش فيها[1].

الإعداد لإنتاج الغذاء

وأضاف بيتر فارب؛ وقد سبقت عملية إنتاج الغذاء **مرحلة انتقالية** شهدت تغيرات هامة فى نمط حياة الإنسان، كما فرضت عليه استحداث عدد من التقنيات، التى مهدت إلى انتقال الإنسان ـ بشكل تلقائى ـ إلى مرحلة إنتاج الغذاء[2].

وقد بدأت هذه التكيفات فى الظهور منذُ قرابة عشرين ألف سنة، ومن أمثلة ذلك ما حدث حين وجد أسلافنا فى بعض الأماكن وفرة فى القمح البرى، فتجمعوا بجوارها فى **مخيمات**

(١) لعل **تدجين الهنود الحمر للذرة** يُعتبر أعظم تغيير فى أى محصول فى العالم. فقد كانت الذرة البرية الأولى نبتة عشبية صغيرة تحمل كوزًا لا يزيد على حجم إصبع. واليوم يُنتج الإنسان حوالى ١٥٠ صنفًا من الذرة تنمو فى مدى واسع من المناطق مختلفة المناخ على طول العالم وعرضه. والذرة المدجنة اليوم عاجزة عن التكاثر (فتموت وتنقرض) بدون مساعدة الإنسان فى نثر بذورها، ذلك أن الكوز صار مُغَلَّفًا بعدة أغلفة (مثلها فى ذلك الموز والنخيل) كما صارت البذور ثابتة فى الكوز بشكل لا يسمح لها بالانتشار الذاتى. وتُعتبر هذه خسارة تحملتها تلك النباتات مقابل ما حصلت عليه من منافع.

وبالنسبة للحيوان، نجد أن الإنسان فى قارات العالم القديم نجح فى تدجين العديد من **الحيوانات الثديية الكبيرة**، كالأبقار والجواميس والجِمال والماعز والأغنام والحمير والأحصنة وغيرها. بينما فى مناطق جنوب غرب الولايات المتحدة والمكسيك وأمريكا الوسطى كان الحيوان الوحيد الذى تم تدجينه هو **الديك الرومى**، بينما أوشكت الحيوانات البرية الكبيرة (كثور البافالو والأيائل والغزلان والماعز والأغنام) على الانقراض. وقد نجح الهنود الحمر فى تدجين **الكلب** واستخدموه فى أغراض مختلفة منها الأكل أحيانًا، ونتيجة لعجزهم من تدجين ثدييات كبيرة تأخر ابتكار المحراث لحرث الأراضى البكر لزراعتها.

وقد نجحت حضارات جبال الإنديز فى أمريكا الجنوبية فى تدجين ثلاثة من الحيوانات الثديية، اللاما لحمل الأثقال وأكل لحومها (كالجمال فى الشرق)، ولاما الصوف لصوفه، وخنزير غينيا للحمه، والأخير حيوان قارض سريع التكاثر سهل التدجين (كالأرنب).

(٢) يُعتبر ذلك نوعًا من «**التكيف المُسْبَق**»؛ والذى يعنى تطور طراز سلوكى وتِقَنِى فى وقت ما بحيث يصبح ذا فائدة واضحة فى المستقبل بعد تغير الظروف السائدة.

صغيرة، سرعان ما تطورت إلى قرى يسكنها مئات من الناس. أى **أن الاستقرار قد حدث قبل انتقال الإنسان إلى الزراعة**، ويعنى ذلك أن أسلافنا قد تدجنوا (استقروا) قبل أن يبدأوا فى تدجين النبات والحيوان.

ومن الناحية التقنية، طور الصيادون وجامعو الثمار **عددًا من الأدوات** التى أعانتهم فى حياتهم المستقرة الجديدة؛ مثل المناجل البدائية المصنوعة من حجر الصوان ليحصدوا بها القمح البرى، والهاون الحجرى ومدقته لطحن الثمار الجَوزية، وكذلك الأوعية الفخارية لتخزين الأغذية البرية. كل هذه الأدوات استخدمها الإنسان البدائى فى حصاد وطحن وتخزين الحبوب **عندما اتجه إلى الزراعة**.

والأرجح أن **تدجين النبات والحيوان كانا جزأين من عملية تَكَيُّف واحدة**، وأنهما استمرا يتطوران معًا. بل لقد ساعد تدجين الحيوان على حل مشكلة الغذاء الفائض الناتج عن تدجين النبات، فقد كان بالوسع إطعام هذا الفائض للحيوانات المدجنة، التى أصبحت بذلك مخزنًا حيًّا للحم واللبن والصوف.

ومنذ حوالى سبعة آلاف سنة، عندما صار إنتاج الغذاء منتشرًا فى العديد من بقاع الأرض، **ازدادت القرى الزراعية عددًا واتساعًا**، وقُطعت أشجار الغابات أو أُحرقت، وزُرعت الصحارى بالماء الذى جُلب إليها بقنوات الرى، كما رعت الحيوانات المدجنة الأعشاب فصارت الحيوانات البرية لا تجد ما تأكله فتركت المنطقة. لقد أصبح الفلاحون يعتبرون أن النباتات والحيوانات التى يتغذى عليها الصيادون وجامعو الثمار أعشابًا ضارة وحيوانات تسرق منهم مزروعاتهم، وبالتالى يجب القضاء عليها. وهكذا **تغيرت البيئة** حتى **صار من المستحيل على أسلافنا العودة إلى حياة الصيد وجمع الثمار** حتى لو أرادوا ذلك.

قلت لبيتر فارب، هنا سؤال يطرح نفسه؛ **لماذا لم تنشأ عملية إنتاج الغذاء فى وقت مبكر من تاريخ البشرية؟**. فأجابنى، لقد حَيَّر هذا السؤال الكثيرين، ويرجع تفسير ذلك جزئيًّا إلى ما ذكرناه من أن **عناصر الإعداد لم تكن قد اكتملت بعد**. ولكن الحافز الحقيقى لنشوء عملية إنتاج الغذاء يرجع إلى **ازدياد عدد السكان نتيجة لاستقرار الصيادين وجامعى الثمار** فى مخيمات حول المناطق الغنية بالقمح والذرة البرى، إذ أدى ذلك إلى زيادة معدل التبويض فى الإناث نتيجة لقلة بذل المجهود وقِصَر فترة إرضاع الأمهات للصغار بعد توافر الغذاء[1]. فكانت النتيجة أن

(١) ثبت بالفعل أن المرأة فى مجتمع الترحال تلد ٤ - ٥ أطفال فقط فى حياتها، تزيد إلى ٥ - ٦ أطفال فى المجتمعات المستقرة.

زادت أعداد بنى الإنسان فى الشرق الأدنى فى الفترة من ١٠,٠٠٠ سنة إلى ٤٠٠٠ سنة مضت من حوالى ١٠٠ ألف نسمة إلى أكثر من ثلاثة ملايين نسمة.

آثار إنتاج الغذاء

سألت بيتر فارب؛ وهل اقتصر انتقال الإنسان من حياة الصيد وجمع الثمار إلى حياة إنتاج الغذاء على الحصول على كميات أوفر من الطعام، أم صحب ذلك تغيرات فى نمط المعيشة؟ فأجابنى: لقد **حدثت تغيرات جذرية فى أسلوب حياة الإنسان** فى الفترة ما بين ١٠,٠٠٠ سنة و٥,٠٠٠ سنة مضت تفوق عددًا وأهميةً التغيرات التى حدثت فى أسلوب حياته منذ أن خلقه الله إلى ما قبل ١٠,٠٠٠ سنة. فلقد حولت الزراعة الإنسان من نوع محدود العدد إلى نوع تكاد الأرض تضيق بعدده. ويرجع ذلك إلى ازدياد التبويض فى الإناث (كما ذكرنا من قبل)، بالإضافة إلى أن الصغير فى جماعة الصيد وجمع الثمار كان قليل الفائدة للجماعة فى جلب الطعام، بينما الصغار فى المجتمع الزراعى يقومون بمهام تعين الكبار، مما كان حافزًا لكثرة الإنجاب.

ونتيجة **لازدياد أعداد البشر وتزاحمهم فى المستوطنات ثم فى القرى** (وبعد ذلك المدن) نشأت **مخاطر صحية جديدة**. فقد أصبحت الميكروبات والطفيليات تنتقل بسهولة من إنسان لآخر، وأصبحت الحقول بيئة مفضلة للجرذان والبراغيث والبعوض (وكلها تنقل الأمراض)، بل إن الطيور والحيوانات المدجنة شاركت فى نقل الأمراض، وربما كان أكثرها شيوعًا السل الذى انتقل إلى الإنسان من الماشية عن طريق لحمها وحليبها. كما جلب غذاء الفلاحين الغنى بالكربوهيدرات والفقير بالبروتين أمراضًا مزعجة، كالكواشيوركور[1] والسمنة الزائدة وتسوس الأسنان، بالإضافة إلى إصابتهم بأمراض نقص الڤيتامينات كالبرى برى والبلاجرا والكساح.

كذلك صاحب إنتاج الغذاء **تغيرات ضخمة فى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية**، بعد أن جلب هذا التكيف معه نظرة جديدة إلى الأشياء المادية. فإذا كان الصيادون وجامعو الثمار يجعلون الغذاء والمواد الخام والأراضى والأدوات مشاعًا بينهم، فقد اختلف الأمر مع نشوء الزراعة. لقد أصر باذر الحب أن يكون هو الذى يحصده، واقتصرت المشاركة والشيوع على أفراد العائلة الواحدة، **وأصبحت الملكية الفردية من أهم ما يعنى الفرد والمجتمع. نتيجة**

(١) Kwashiorkor: مرض يصيب الأطفال نتيجة لنقص البروتينات فى الغذاء.

لذلك، نشأت أنماط من السلوك لم تكن معروفة من قبل، مثل تَمَلُّك الفرد شيئًا لاستعماله الخاص، وحماية الممتلكات والدفاع عنها وتوارثها.

ونظرًا لأن بعض العائلات امتلكت أرضًا أكثر من غيرها، **اختفى مجتمع المساواة** الذى كان سائدًا بين الصيادين وجامعى الثمار، ليحل محله مجتمع فيه تباين كبير فى الثراء والقوة والمركز الاجتماعى. كما **أصبحت الثروة والنفوذ والمركز أشياء متوارثة**، ربما أعطت بعضَ الناس فى المجتمع سلطة سياسية وميزات اجتماعية لا علاقة لها بقدراتهم. ولأول مرة فى تاريخ الإنسان **انقسمت المجتمعات إلى أغنياء وفقراء وسادة ومَسودين**.

وعلى النقيض من تعدد المهارات التى كان كل صياد وجامع ثمار يمتلكها، فرض تكيف إنتاج الغذاء حدوث **تخصص فى المهارات وتخصص فى العمل**. وقد أدى ذلك إلى التعاون (بأجر وبدون أجر) بين أفراد المجتمع، وقلل مما كانت تتمتع به أُسر مجتمع الصيد وجمع الثمار من استقلال، ولا شك أن بدون هذا التخصص ما كان **للإنجازات التكنولوجية** أن تحدث وتتطور. كما ابتكر الإنسان أساليب غيرت **الخصائص الداخلية للمواد الطبيعية**، فقد أمكن تعديل خصائص الطين والمواد الخام المعادن لإنتاج الفخار والصينى والمعادن.

إن نظرة عابرة إلى الإنجازات التكنولوجية المعاصرة تبين **مدى ما يدين به العالم الحديث لمُنشئ إنتاج الغذاء**. فمن هندسة بناء (كالمعابد والأهرامات والقصور وسدود الرى وقنواته وأبنية المزارع ومرابض الخيل والطرق والتحصينات)، وتخطيط القرى (ثم المدن)، إلى صنع المحاريث وغيرها من الآلات والأدوات الزراعية، إلى العديد من النشاطات الصناعية مثل الغزل والنسيج وصنع الفخار والتعدين والعربات ذات العجلات، وابتكار الأوزان والمقاييس والسجلات....

الفصام ومشكلاته

وأضاف فارب؛ وإذا كان الحال **قد آل بعالمنا المعاصر إلى العديد من المشكلات المستعصية**؛ كالانفجار السكانى وتضاؤل المصادر الطبيعية وتلويث البيئة واستغلال مجموعات إنسانية لمجموعات أخرى، والموت جوعًا، والحروب وغيرها، فإن **جذور هذه المشكلات تنبثق من الانتقال من حياة جمع الغذاء إلى إنتاجه**. والعامل الرئيسى الذى يعيقنا عن إيجاد حلول لمشكلات عالم اليوم هو **التناقض الذى يعانى منه العقل الإنسانى. ذلك أن بيولوجيتنا وأمخاخنا وعقولنا قد تطورت خلال التكيف للصيد وجمع الثمار، بينما تبلورت أقوى معتقداتنا الخُلُقية**

والفلسفية خلال التكيف لإنتاج الغذاء، هذا التكيف الذى سمح لقدرات الإنسان بالتطور بحرية. أى أن بيولوجيتنا قد تشكلت فى ظروف مغايرة لتبلور معتقداتنا ولتطور إمكانياتنا. أليس هذا نوع من الفصام؟!

الفلاحون الدائمون

سمات مجتمع الفلاحين

قلت لبيتر فارب: إذا كان قطار التطور قد وصل بالإنسان إلى إنتاج غذائه وإلى السُكنى فى القرى، وكان أن حل الفلاحون مكان الصيادين وجامعى الثمار، فإن قطار التطور لم يغادر هذه المحطة بعد، وما زال أكثر من نصف سكان الأرض (خاصة فى آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا اللاتينية) يعيشون حياة زراعية. ثم سألته؛ **هل يشترك هؤلاء الفلاحون المنتشرون فى كل بقاع الأرض فى نمط حياتى واحد، أم تتنوع أنماط حياتهم** ـ كما تتنوع مزروعاتهم ـ تبعًا للظروف البيئية والاجتماعية؟

أجابنى فارب: لا شك **أن الفلاحين فى طول الكرة الأرضية وعرضها يتشاركون فى خصائص وصفات أساسية معينة**، وفى الوقت نفسه **هناك تنوع ملفت للانتباه فى تفاصيل حياتهم**، نتيجة لاختلاف الظروف البيئية والسمات الحضارية والحوادث التاريخية التى تعرضوا لها، مثل الحروب والثورات والمجاعات والأوبئة، وأيضًا اعتناق دين جديد.

وللأسف، فإن معظم أسلافنا (وإخواننا) الفلاحين قد **تعرضوا لظلم بَيِّن**. فمع نشوء الدول فى العالم القديم، قام الحكام ببسط حمايتهم على القرى الزراعية المجاورة مقابل حصة مجزية من ناتج الأرض والبضائع المصنوعة، بالإضافة للعمل الإجبارى فى المشاريع العامة. غير أن شهية الأقوياء عادة لا تشبع، فسرعان ما صادروا الأراضى، وأنشأوا طبقة الإقطاعيين، **وأُخذ الفلاحون عبيدًا**. وعلى ركام هذا الفقر والمعاناة قامت إمبراطوريات السومريين والبابليين والمصريين القدماء واليونان والرومان وغيرهم.

لقد صار لزامًا على الفلاحين **إطاعة كل أمر يصدره الحكام، وقبول الإجراءات التعسفية التى تؤثر بشدة فى حياتهم**. ففى معظم دول العالم فى القرون الوسطى، كان محظورًا على الفلاحين تغيير أماكن سُكناهم، وكانت هناك قيود على أنواع الأسلحة التى يُسمح بحملها، وأنواع الثياب

التى يلبسونها وحتى الأطعمة التى يتناولونها. ولم يكن يُسمح لهم بطحن حبوبهم التى أنتجوها أو بيع حيواناتهم التى ربوها أو تزويج بناتهم، إلا بعد الحصول على إذن من السيد الإقطاعى.

ونتيجة لشدة الفقر، كان متوسط ما يحصل عليه الفرد من الفلاحين الحقيقيين **من السعرات الحرارية** لا يتجاوز ١٦٠٠ سعر حرارى فى اليوم، أى **نصف احتياجاته اليومية**، مع **نقص شديد فى البروتينات والعناصر الغذائية المختلفة**، فلم يكونوا يأكلون اللحوم إلا لِمامًا. لذلك فالفلاحون ـ بشكل عام ـ **صغار البنية**، وقد شارك فى ذلك شيوع الأمراض الطفيلية المعوية نتيجة قلة العناية الصحية والطبية.

وقد أكسبت هذه الظروف الحياتية الفلاحين **نمطًا سلوكيًّا يكاد يكون متشابهًا عبر العالم**، فتجدهم محافظين وفرديين وغيورين وشكاكين ومتطيرين، وفى الوقت نفسه فهم يهتمون بالصداقة الحقة وبصورة رجولتهم. وإذا كانت عائلة الفلاح تعيش كأنها وحدة مكتفية بذاتها، فهى تحرص على توسيع دائرة علاقاتها عن طريق النسب. كما يعمل العديد من الفلاحين فى مهن إضافية فى غير أوقات البَذر والحصاد، حتى يزيدوا من دخولهم، سواء فى قراهم أو فى أماكن بعيدة. وينجب الفلاحون كثيرًا، بأمل أن يساعدهم أولادهم فى أعمال الفلاحة، خاصة أن تكلفة تنشئة الأطفال ضئيلة للغاية، وأن معدل وفَيَاتهم مرتفع لقلة ما يلقونه من رعاية صحية.

وينجذب الفلاحون اليوم نحو الحضارة الحديثة، وبالرغم من أن بعض علماء الاجتماع يتنبأون باختفاء نمط حياة الفِلاحة كليًّا فى العصر التكنولوجى، إلا أن ذلك لا يبدو وشيكًا. فما زال ـ مثلًا ـ يتم الحصول على تسعة أعشار المحصول الزراعى فى دول الاتحاد السوفييتى السابق بالأساليب اليدوية البدائية. كذلك **سيظل ميزان الإنتاج والاستهلاك مختلًا لفترة طويلة**. فبالرغم من التناقص الحقيقى فى موارد الطبيعة، فإن ٨٠٪ من إنتاج البشرية يستهلكه ٣٠٪ من البشر هم سكان المجتمعات الصناعية، وليس من المتوقع اعتدال هذا الميزان فى القريب؛ إذ إن **الدول النامية لا تستطيع تقليد ما أنجزته الدول المتقدمة من تحويل الفِلاحة البدائية البسيطة إلى عمليات تكنولوجية ذات كفاءة عالية**، إذ حققت الدول المتقدمة ذلك عن طريق السياسة الاستعمارية التى سمحت بتراكم رؤوس أموال كبيرة وتوفير مواد خام صناعية، وإيجاد أسواق شاسعة لتصريف المنتجات، وهذا ما لا تستطيعه الدول النامية.

الثورة المدنية

مقدمات الثورة ومسارها

قلت لبيتر فارب: نأتى الآن إلى المحطة التالية فى رحلة الإنسان الحضارية. فبعد أن انتقل الإنسان من الحياة الحرة الطليقة التى مَيَّزت نمط معيشة الصيادين وجامعى الثمار، إلى الحياة المستقرة المتحفظة للمزارعين، فإنه قد انتقل إلى الحياة فى المدن، ونَصِفُ هذا النمط من الحياة بـ«**التمدن**». فكيف تمت هذه النقلة الهائلة؟

أجابنى فارب:

كما حدث فى نَشْأَةْ الزراعة، فقد **نَشَأَت الحضارة المدنية بشكل مستقل فى عدة مناطق من العالم**. ويعتقد معظم الأنثربولوجيين أن الزراعة قد نشأت أولًا، ثم نشأت القرى الزراعية، ثم تطورت إلى البَلدة، وأخيرًا المدينة، وذلك يعنى **أن المدن كانت طفيليات تطفلت على الزراعة**. إلا أن بعض المدن القديمة نشأت ونمت **بعيدًا عن المناطق التى تطورت فيها الزراعة** بمئات الأميال، كما حدث فى حضارات ما بين النهرين العظيمة قرب مصب نهرى دجلة والفرات، فقد نشأت ـ مثلًا ـ مدينة (شانيدار) فى العراق قبل حوالى ١١,٠٠٠ سنة على «**صناعة**» زينات معدنية دقيقة.

وقد كانت «**التجارة**» **من أهم العوامل التى أدت إلى نشأة الحياة المدنية**. فقد استقرت مجموعات كثيفة من السكان قرب مصادر **المواد الخام**، وأخذ الناس يدافعون عن حقهم فى تلك المواد، ويقومون **بتصنيعها إلى أدوات** يمكن الاتجار بها فى مقابل منتجات زراعية. وقد كانت **أريحا** (فى فلسطين) بلدة من هذا النوع، قامت منذ حوالى عشرة آلاف سنة، على تجارة الملح والقار والكبريت المستخلَصَة من البحر الميت. بهذا الأسلوب نشأ النظام التجارى فى العالم القديم، وعبر طرق التجارة انتشرت الاختراعات والمهارات والمعتقدات.

وقد تضمنت التجارة فى ثناياها إمكان النهب والسلب، لذلك **زُوِّدَت المدن التجارية الهامة بتحصينات دفاعية**، مثل أسوار أريحا التى بُنيت منذ ١٠,٠٠٠ سنة. وقبل ٦٣٠٠ سنة حدث تغير رئيسى فى الشرق الأدنى، فبدأ بناء ثكنات للجنود بالإضافة للقلاع والتحصينات، مما

يشير إلى نشوء **طبقة متخصصة من الجنود** تبين أن الحرب والرغبة فى السيطرة صارت جزءًا من صميم الحياة المدنية القديمة.

وقد كانت **الكُلفة الاقتصادية للإبقاء على جيش على أهبة الاستعداد (وما زالت) باهظة جدًّا، فأُلقى على كاهل الفلاحين** عبء هائل من أجل توفير الغذاء والسلاح وتغذية الجيش بالأبناء. وقد اشتبكت المدن القديمة فيما بينها فى **سلسلة من الحروب** المتتالية، فالمنتصر الذى نهب اقتصاد المهزوم أصبح هدفًا يطمع فيه الآخرون، لذلك ذكر أفلاطون فى كتابه «القوانين» أن كل مدينة فى حالة حرب طبيعية مع كل مدينة أخرى، وبذلك **أصبحت الحروب ومتطلباتها هى المتحكم فى تشكيل بنية المدينة المادية**، كما أدت فى نهاية المطاف إلى اندثار **الحضارات القديمة** الواحدة تلو الأخرى.

ولأول مرة فى التاريخ الإنسانى **تمكنت أقلية صغيرة جدًّا (الطبقة الحاكمة) من السيطرة على الأغلبية التى كانت تعيش داخل أسوار المدينة، وأيضًا على أولئك الذين كانوا يعيشون فى الأقاليم التابعة للمدينة مهما امتدت رقعتها**. كما **صار التاريخ يحتفل بالأقلية الصغيرة المتحكمة** ويسجل أسماء أفرادها، فصارت الفتوحات تُنسب إلى الإسكندر الأكبر وقمبيز، وبناء الأهرامات يُنسب إلى زوسر وخوفو وخفرع ومنقرع. بينما لا يذكر التاريخ أسماء الذين حققوا إنجازات محورية فى تاريخ البشرية، كاكتشاف النار واختراع العجلة واستخدام النحاس والحديد. ويرجع ذلك أيضًا إلى أن الذين كتبوا التاريخ هم أناس عاشوا فى المدن وكتبوا عن الحياة التى عرفوها، حياة الطبقات الحاكمة فى المدن الكبرى، وليس حياة الفلاحين المجهولين الذين يَكِدّون فى الحقول والمحاجر وفى تشييد المعابد والقصور، ويُقْتلون فى الحروب.

نشأة وتطور الكتابة

قلت لبيتر فارب، من الملاحَظ فى عصرنا الحديث ارتباط الإلمام بالقراءة والكتابة بحياة المدينة أكثر من حياة القرية، **فهل كان للثورة المدنية علاقة بظهور الكتابة؟**. فأجابنى:

لقد دفعت الحياة المدنية نشأة الكتابة وتطورها وانتشارها خطوات واسعة للأمام، فقد كانت ضرورية لتسجيل المعاملات المالية وكذلك لإعطاء القوانين والقرارات الإدراية صفة الديمومة والذيوع.

وقد **نشأت الكتابة** (منذ قرابة ٧–٨ آلاف سنة) فى منطقة واسعة تمتد من بلاد ما بين النهرين

شمالًا إلى الشرق الأدنى شرقًا إلى مصر جنوبًا. وكانت الكتابة فى البداية عبارة عن (**رسوم للأشياء**)، كأن يُرسم بيت ويكون ذلك بمثابة كتابة لكلمة (بيت). وبعد فترة تطورت الكتابة إلى (**رسم الأفكار**)، أى الترميز للفكرة والمعانى المجردة باستخدام رسوم تخطيطية. فدائرة الشمس فى نظام رسوم الأشياء تُعبر عن الشمس، أما فى نظام رسم الأفكار فيصبح رسم الدائرة رمزًا للحرارة أو الضوء أو إله الشمس أو النهار. ثم قام المصريون القدماء والصينيون بتطوير كتابتهم بالنظامين السابقين لتشمل **بعض رموز الأصوات**، مما وَسَّع من مجال استخدام هاتين اللغتين.

ومنذ حوالى ٣٥٠٠ سنة طَوَّرَت **الشعوب السامية** (ومنهم العرب والفينيقيين) نظامًا مختلفًا للكتابة، عبارة عن **أبجدية تعتمد على الحروف وأصواتها**، بدلًا من صور الكلمات ورسومها، كما أُدخلت **كتابة حروف العلة** بعد أن كانت مفهومة ضمنًا. وبعد جهد كبير نجح الرومان فى تحوير الأبجدية اليونانية (وريثة الفينيقية) ليكتبوا بها لغتهم اللاتينية. ثم تبنت معظم شعوب أوروبا وكثير من شعوب العالم الأبجدية اللاتينية لكتابة لغاتها.

لقد كان **اختراع الكتابة وتطويرها** نقطة تحول كبرى فى التاريخ الإنسانى، **إذ سمح بالمحافظة على المعارف الإنسانية وتوارثها وتراكمها، كما سمح بتواصل أفضل بين الناس.**

آثار الثورة المدنية

قلت لبيتر فارب؛ لقد استعرضت مقدمات الثورة المدنية ومسارها، وكذلك العلاقة المتبادلة بينها وبين نشأة الكتابة، ولا شك أنه كان لهذه الثورة تأثير عميق فى مختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، فهلا حدثتنى عن تلك التأثيرات.

قال بيتر فارب، لقد **خلقت المجتمعات المدنية وحدات اجتماعية**، ذات حجم وتعقيد ما كان يمكن لمنتجى الغذاء تصورهما. فقد انقسم المجتمع إلى **حاكم ومحكوم، وقوى وضعيف، وغنى وفقير... كما حدث تغير ملحوظ فى مركز الإناث**، فبعد أن كانت الأنثى جامعة الثمار أو المشاركة فى إنتاج الغذاء على قدم المساواة مع الرجل، أصبح دورها الرئيسى فى الحضارة المدنية هو **إنتاج المزيد من النسل**، لتعويض الجنود الذين يُقتلون والعمال الذين يمرضون نتيجة لظروف المعيشة غير الصحية.

كذلك خلق نشوء المدن **نوعًا جديدًا من العلاقات الشخصية**، ليسمح بتعايش أفراد المجموعات السكانية الكثيفة. ففى مجتمعات الصيد وجمع الثمار، إذا اشتد النزاع هجر الفرد

المجموعة وانضم لمجموعة أخرى، لكن ذلك ليس ممكنًا فى المدن. لذلك وجب على الناس الذين حُشروا فى رقعة ضعيفة أن **يلتزموا بالمزيد من التأدب والتهذيب والتلطف، كما قُنّن السلوك ووُصِّف بقوانين فُرضت من الأعلى**، بعد أن أصبحت الأعراف والتقاليد وحدها غير كافية لتنظيم الحياة. وعادة ما تكون هذه العلاقات ذات غاية نفعية، لذلك ينظر ساكن المدينة إلى الناس لا من زاوية شخصياتهم بل من زاوية الأدوار التى يقومون بها فى المجتمع والحياة.

وإذا كان اهتمام الصيادين وجامعى الثمار، ومن بعدهم منتجى الغذاء، متوجه فى المقام الأول إلى **البيئة**، فقد **أبرزت الحضارة المدنية اهتمام الإنسان بالإنسان**، أى صارت العلاقات علاقات اجتماعية وليست علاقات بيئية طبيعية أو حتى تكنولوجية. وعلى النقيض شاعت فى الحياة المدنية المعاصرة ظاهرة شديدة السلبية تُعرف **بظاهرة (لامبالاة المشاهد)** والتى تعكس قدرًا هائلًا من الأنانية وعدم المبالاة بالآخر فى محنته[1].

وفى الحياة المدنية، **يشغل كل فرد مركزًا محددًا بدقة**، كأن يعمل خادمًا أو صانعًا أو تاجرًا أو جنديًّا أو موظفًا أو عضوًا فى المؤسسة الدينية... ونتيجة لهذا **التخصص** صار كل فرد يتقن عمله بشكل ممتاز، فازداد الإنتاج عدة أضعاف، واتسم بالابتكار والتجديد. وقد أدى ذلك إلى ظهور أحياء فى المدينة تُمارَس فيها صناعات وتجارات معينة؛ كالصاغة والوراقين والحدادين وغيرها.

وأضاف فارب، أما بالنسبة **لبنية المدينة وتنظيمها**، فقد استمر الناس لآلاف السنين يبنون مدنهم بتصميم هندسى متشابه إلى حد كبير، رغم أنهم عاشوا فى ظل أنظمة سياسية مختلفة ومذاهب شتى، **ويشمل هذا التشابه تصميم الأبنية وتخطيط المدن**، وكذلك **النشاطات التى تمارس داخل أسوارها**. وقد **كانت مدن الشرق الأدنى الأقدم أفضل فى كل مناحيها من مدن أوروبا الأحدث منها**. فقد كانت شوارع الأولى أفضل رصفًا، وأنظمة المجارى أكثر كفاءة، وموارد المياه أغزر، والأحياء أحسن تخطيطًا، والبنايات أكبر وأفخم. حتى إننا نجد أن مدينة موهنجو ـ دارو، التى بنيت قبل ٥٥٠٠ سنة على ضفاف نهر الأندوس كانت أفضل فى كل تفاصيلها من مدينة باريس فى عهد لويس الرابع عشر (١٦٤٣ - ١٧١٥م).

(١) ومثال هذه الظاهرة حادثة وقعت عام ١٩٦٤ بإحدى مدن الولايات المتحدة واشتهرت كثيرًا، وراحت ضحيتها فتاة فى ريعان الشباب، بعد أن هاجمها شخص أمام منزلها، فراحت الفتاة تصرخ وتستغيث. وبالرغم من أن ما لا يقل عن ٣٨ شخصًا من جيرانها قد سمعوا صراخها واستغاثتها، فإنهم وقفوا يطلون من نوافذ منازلهم يراقبون الحادث، ولا يتدخلون لإنقاذها أو حتى لاستدعاء الشرطة. وقد برر هؤلاء سلبيتهم بأسباب متعددة، منها: فقدان شعور التعاطف مع الآخرين، والخوف، واللامبالاة وخشية إضاعة وقت كثير!... ولا شك أن كلها أسباب حقيقية، نضيف إليها أن كل مُشاهد كان يفترض أن شخصًا آخر سيتدخل، وكانت النتيجة عدم تدخل أحد!

وحتى زمن قريب، **ظلت المدينة على ما كانت عليه منذ آلاف السنين**، أى مجموعة قرى صغيرة، بها حدائق صغيرة وحيوانات مدجنة ومشاعل لإضاءة الشوارع وأسواق؛ بالإضافة إلى منازل مهلهلة مكدسة بالفقراء وبجوارها منازل فخمة للأغنياء. وكان الناس فى نفس الحى يعرف بعضهم بعضًا ويرتبطون معًا اقتصاديًّا، ويشربون من نفس بئر الماء، وغالبًا ما كانوا يُدفنون متجاورين فى نفس المقبرة.

وقبل قرنين من الزمان حدث **تغير جذرى فى بنية حياة المدينة تحت ضغط التصنيع**. فنشأت **مُدن المصانع** (مثل مانشستر وبرمنجهام فى بريطانيا) شيئًا مختلفًا تمامًا، إذ زالت عنها سمات المدينة القرية، فتزايدت الهوة بين طبقات المجتمع، بعد أن لم يعد هناك أية صلة بين أصحاب المصانع وعمالها. لذلك **نَشَأَت الضواحى نقية الهواء** التى يسكنها الأثرياء، وبقى الفقراء يعيشون فى بؤس وقذارة بالقرب من الأحياء الصناعية الملوثة، أو يسكنون فى مناطق خَرِبَة متداعية تمثل الأحياء القديمة فى وسط المدينة والتى هجرها منذ زمن مَن أنعم الله عليهم.

أما **الآثار البيولوجية لنشأة الحياة المدنية** (على خطورتها) فهى أقل شيوعًا من التغيرات الاجتماعية. وأهم هذه الآثار **انتشار الأمراض المُعدية واستفحالها** (مثل الكوليرا والجدرى والحصبة وشلل الأطفال وجديرى الماء)، ويرجع ذلك إلى سهولة العدوى فى المدن المزدحمة، بالإضافة إلى تجمع النفايات والفضلات التى توفر ظروفًا مثالية لانتشار العدوى. لذلك كانت الأمراض تحدث على هيئة أوبئة تقتل آلاف البشر[1].

ولما كانت الأمراض والمجاعة سببًا فى ارتفاع معدل الوفيات فى المدن، فقد كان السبيل الوحيد لتعويض ذلك الهجرة من **الريف إلى المدينة**. وقد وَلَّد ذلك **ضغوطًا على النظام الاجتماعى برمته**، سواء لأهل المدينة الأصليين أو للمهاجرين؛ لاختلاف عادات وأنماط سلوك كل منهم. **فكانت النتيجة أن أصبح العالم أكثر تمدينًا، وفى الوقت نفسه فقد إنسان المدينة الكثير من إنسانيته.**

(١) لعل أفظع وباء أصاب سكان المدن كان «**الطاعون**». فقد بدأ فى مصر عام ٥٤٠م. ووصل إلى بيزنطة (إستنبول) عام ٥٤٢م، فأدى إلى ١٠,٠٠٠ حالة وفاة فى اليوم الواحد. وكانت النتيجة أن قُتل نصف سكان الإمبراطورية البيزنطية خلال ٢٥عام.

والأشد فتكًا من طاعون بيزنطة كان **الطاعون الذى لُقِّبَ بالموت الأسود**، والذى بدأ عام ١٣٤٦ وانتهى عام ١٣٦١، بعد أن انتشر فى جميع أنحاء أوروبا وامتد إلى أفريقيا والصين. وقد قتل قُرابة عُشر سكان المناطق البريطانية المزدحمة، أما مدينة أفينيون الفرنسية فلم ينجو من الموت غير ربع سكانها فقط.

هل من إيجابيات للثورة المدنية؟!

قلت لبيتر فارب؛ إن استعراضك لتوابع الثورة المدنية يبين أنها قد أفرزت عددًا من السمات، منها: التركيز الكثيف لعدد السكان، وإنتاج فائض من الغذاء، ووجود سلطة سياسية مركزية، وعدم المساواة بين الناس اجتماعيًّا، وانتشار الأمراض، مع تقدم الهندسة المعمارية والتجارة وتطور الكتابة. ومع ذلك لمست من عرضك أن **نظام المدينة ملىء بالسلبيات، أما من إيجابيات؟!**

أجابنى فارب: **بالرغم من العديد من سلبيات المدينة، فلا يمكننا إهمال ما حققته حياة المدينة من فوائد**، ومنها أن الإنسان قد تمكن لأول مرة فى تاريخه من **التحكم (جزئيًّا) فى بيئته الطبيعية**، فحُمِيَت المدن من أخطار الفيضانات، وخُزِّنَت المياه لمواجهة ندرتها فيما بعد، وأحالت مصابيح الشوارع الليل نهارًا...

كذلك نسجت الحضارة المدينة **مجتمعًا يحكمه القانون والعدالة**، فعاشت أعداد كبيرة من الناس معًا فى **وئام نسبى**. كما وَجَّهَت المدينة الطاقات الإنسانية العشوائية وجهات محددة، فتكونت **ثقافات مختلفة ومؤسسات اجتماعية مختلفة الأنشطة**.

وقد وَسَّعت المدينة مدى **نشاطات الإنسان**، وتمكنت من **اختزان المعرفة** بشكل متزايد **ونقلها** إلى الأجيال القادمة، من خلال تطوير المكتبات والسجلات والمتاحف. كما حققت شبكات الطرق ووسائل المواصلات للإنسان **انتقالًا سريعًا**، صاحبه انتقال الأفكار والابتكارات.

وأضاف فارب قائلًا: ولا شك أن هذه الإيجابيات والسلبيات للحياة المدنية تتفاوت من حضارة لأخرى، وتستطيع أن ترصد هذه السمات فى مدينتكم القاهرة إحدى أشد مدن العالم ازدحامًا.

محصلة التمدن محزنة

سألت بيتر فارب، إذا وازَنَّا سلبيات التمدن وإيجابياته، فما محصلة تلك الموازنة؟

أجابنى فارب قائلًا: أرى أن طراز حياة المدينة لا يقدم للجنس الإنسانى ميزات تشجعه على الاحتفاظ بها بالمدنية. **ومن ثَمَّ لم يعد من وسيلة للتخلص من مشكلات التمدن إلا التخلص من هذه الفكرة التى عفى عليها الزمن، وهى فكرة المدينة نفسها!!**

قلت لفارب: مالى أراك تسىء الظن بـ «التمدن» إلى أقصى حد؟

أجابنى: لقد أخطأ الإنسان خطأً كبيرًا حين قصر مفهوم التمدن على الحياة فى المدن، بما يصحب ذلك من سلبيات وإيجابيات. **إن التمدن (فى نظرى) هو أن يصبح الإنسان أكثر انسجامًا مع فطرته.**

وقد عَبَّرَ توماس جيفرسون[1] عن ذلك فى أحد رسائله لصديق عام ١٧٨٧م، قائلًا: «أعتقد أن حضارتنا ستبقى فاضلة لقرون عديدة مادامت زراعية بشكل رئيسى». وفى القرن العشرين نجد فرانك لويد رايت[2] يكتب عن الإنسان المدنى قائلًا: «**إذا كان ما وصل إليه الإنسان هو التمدن، فإنه يكون قد أضاع الهدف الحقيقى للوجود الإنسانى الطبيعى. وهو بذلك لم يقبل بوسائل بديلة لتحقيق وجوده فحسب، بل قَبِل بأهداف وغايات بديلة أيضًا**». أى أنه **قد ضل الطريق.**

ذكرنى ما قاله بيتر فارب بالأسرة التى أعرفها والتى بدأت بحكايتها هذا الفصل.

التحـــديـث

خلال القرن الأخير، تغيرت الحياة الإنسانية فى كل مناحيها بسرعة أكبر وبشكل أشمل مما حدث خلال العشرة آلاف سنة السابقة، لذلك كان العالَم المألوف للشاب يصبح غريبًا عندما يصير شيخًا عجوزًا! ولعل عدم القدرة على التعامل مع مجتمع ديناميكى سريع التغير هو السبب الرئيسى فى **الفوضى والاغتراب وعدم الرضا السائدين حولنا.**

نقلت هذه الأفكار والهموم لبيتر فارب، وسألته عن حقيقتها وخلفياتها وعلاجها؛ فأجابنى: **لقد كان معيار التقدم عبر التاريخ وحتى قرون قليلة مضت، هو مدى نجاح التكيف فى تلبية احتياجات المجتمع، ثم ظهر فى الفترة الأخيرة معيار جديد يُقرن التقدم بالتغيير السريع بغض النظر عن نتائجه!**

وكثيرًا ما تُوَصف التغيرات الحديثة بنعوت «**الأوروبية**» و«**الغربية**» و«**التصنيعية**»؛ لأنها واكبت الثورة الصناعية فى أوروبا الغربية. والحقيقة أن التغيرات المتسارعة الجديدة تشمل المجتمعات الأوروبية وغير الأوروبية.

---

(١) توماس جيفرسون Thomas Jeffereson (١٧٤٣ - ١٨٢٦م) من مؤسسى الولايات المتحدة الأمريكية، والواضع الأساسى لإعلان الدستور الأمريكى، وثالث الرؤساء الأمريكيين.

(٢) فرانك لويد رايت Frank Lloyd wright (١٨٦٧ - ١٩٥٩م): معمارى أمريكى كبير، صمم العديد من البنايات الهامة، من مدرسة التصميم المتناسق مع الطبيعة.

وقد قامت (وتقوم) **عملية التحديث Modernization** على **ثالوث مترابط: التوسع المستمر فى المعرفة، وتطبيق هذه المعرفة فى التكنولوجيا، واستعمال كميات متزايدة من الطاقة.** ولعل **التوصل إلى مصادر جديدة للطاقة واستعمالها بطرق مبتكرة** هو ما يميز المجتمع الحديث عن أى مجتمع سابق.

معايير التحديث

أضاف بيتر فارب، يستخدم علماء الاجتماع عددًا من المقاييس للحكم على مدى التحديث، من أهمها **عدد الأشخاص الذين يعرفهم الفرد بشكل مباشر**. فمنذ قرن من الزمان كان عدد من يعرفهم الإنسان لا يتجاوز بضع مئات أو عشرات من أقاربه وجيرانه والتجار والأصدقاء فى المجتمعات القريبة منه. ومنذ نصف قرن، صار الإنسان (عن طريق وسائل الاتصال المختلفة) يعرف وجه رئيس حكومة أجنبية أو لاعب كرة أو مطرب شهير أكثر مما يعرف وجوه بعض جيرانه. واليوم حدثت طفرة ثورية، فصار الفتى يصادق فى كل دولة من دول العالم (عن طريق شبكة المعلومات) عددًا من الأفراد يزيد على كل من كان يعرفهم والده!. كذلك أتاحت وسائل الاتصال الفورى نقلًا آنيًّا للآراء والأخبار.

ومن المقاييس المهمة الأخرى لمدى التحديث، **مقدار ما يستخدمه الشخص من طاقة**. ففى ظل عملية التحديث اُستعملت الطاقة بنسبة تفوق كثيرًا النمو السكانى، حتى ازداد استهلاك الفرد منها بأكثر من خمسة أضعاف فى النصف الثانى من القرن العشرين. وفى عام ١٩٧٥، كان الفرد فى الولايات المتحدة **يستهلك قدرًا من الطاقة يعادل طاقة مائتى عبد يقومون بأعمال شاقة.**

لقد كان الناس فى حياة الصيد وجمع الثمار وكذلك المراحل المبكرة من الزراعة يستعملون **قدراتهم العضلية**، ويعتمدون على التغذى على النبات والحيوان لتوفير الطاقة لعضلاتهم. ثم استغلت الأنظمة الزراعية المتقدمة نسبيًّا **مصادر إضافية**، كطاقة الحيوانات لجر المحاريث، وطاقة الماء لطحن الحبوب، وطاقة الهواء لتشغيل أدوات الرى. أما المجتمع الحديث **فيستخرج الطاقة من مصادر مختلفة تمامًا**؛ كالفحم، ثم النفط والغاز الطبيعى والكهرباء، ثم الطاقة النووية التى زَوَّدَت الولايات المتحدة عام ٢٠٠٠ بقدر من الطاقة يساوى ما أنتجته المصادر الأخرى مجتمعة فى عام ١٩٤٠.

خدعة تحديثية تكنولوجية

سألت بيتر فارب: وهل أَدَّت ميكنة الزراعة وما صاحبها من تطور فى مصادر الطاقة إلى مردود زراعى أعلى؟ فأجابنى: من المقاييس التى تُستخدم للحُكم فى هذه القضية هو **مقارنة ما يُنفق من الطاقة بما ينتج من طاقة الغذاء، خاصة الحبوب**. وقد تبين أن **الزراعة الفلاحية التقليدية** تُنتج حوالى ١٠ سُعرات (كالورى) من الطاقة مقابل كل سُعر يُستهلك فيها من طاقة الفلاح، بينما تُنتج **الزراعة الآلية الحديثة** قُرابة ٦٠٠٠ سُعر من الطاقة مقابل كل سُعر مبذول فيها من جهد الفلاحين.

لكن **ما يبدو من كفاءة المزرعة الحديثة ليس إلا وهمًا!** ويتضح ذلك إذا أضفنا الطاقة المُستهلكة من مصادر خارجية إلى ما يبذله المزارعون من طاقة. فالفدان الواحد فى مزارع الولايات المتحدة الحديثة يستخدم ١٥ طنًا من الآلات الزراعية تستهلك ٤٤٠ لترًا من البترول، ويحتاج ٢٠٣ رطل من السماد. ويعادل ذلك ثلاثة ملايين سُعر حرارى. وبحسبة بسيطة نجد أن علبة صغيرة من الذرة الصفراء التى تعطى ٢٧٠ سُعرًا تستهلك ٢٧٩٠ سُعرًا، وأن شريحة من لحم البقر تنتج نفس الكمية من السُعرات (٢٧٠ سعرًا) تحتاج إلى ٢٢,٠٠٠ سُعرًا!!

وإذا كان عدد من يعملون بشكل مباشر فى الزراعة قد قل بقدر كبير، فإن هناك أشخاصًا آخرين يعملون فى المصانع التى تنتج الآلات الزراعية والأسمدة الكيماوية، وفى سكك الحديد وسيارات الشحن التى تنقل المنتجات من وإلى المزرعة، وفى مصافى البترول... إلخ، معنى ذلك أن إنجازات الزراعة الحديثة لم تتحقق عن طريق خفض الجهد الإنسانى، بقدر ما تحققت **نتيجة لنقل ذلك الجهد من المزرعة إلى مجالات أخرى من الاقتصاد القومى!**. وإذا كان الفلاح حتى قرن مضى يُعتبر قمة فى الاكتفاء الذاتى، فإنه فى المُزارع الحديث **يعتمد على النظام الاقتصادى العام كأى موظف مكتبى فى أية مدينة كبرى!**

وينبغى ألا ننسى أن الكثير من **الأيدى العاملة التى تم توفيرها من الزراعة** تتجه إلى المدن، لتمارس أعمالًا متدنية لقلة خبراتهم، ويعيش الكثيرون منهم عالة على المعونات الاجتماعية وأحيانًا يلجأون للسرقة. هذا ثمن لا ينبغى أن نغفل عنه لعملية تحديث الزراعة!!

آثار التحديث

سألت بيتر فارب؛ وهل حقق التحديث تغييرات فى مجالات أخرى؟ فأجابنى:

منذ أن طَوَّرَ جيمس واط الآلة البخارية وجعلها صالحة للاستعمال التجارى سنة ١٧٧٥، حدثت ثورة لم يسبق لها مثيل على جميع المستويات. وإذا كانت **الابتكارات التكنولوجية الباهرة** هى أكثر الإنجازات لَفتًا للانتباه، فإن **النتائج البيولوجية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية** للتحديث لا تقل أهمية عن تلك الابتكارات.

فمن حيث **البعد البيولوجى**، كانت أهم النتائج **تضاعف متوسط عمر الإنسان المتوقع** بمقدار ثلاث مرات خلال القرنين الماضيين، كما **زادت أعداد بنى الإنسان** إلى ستة أضعاف.

وكانت أهم **نتيجة سياسية**، اختفاء أسلوب الحكم الوراثى فى معظم الدول، واستبداله **بأنظمة ذات اتجاهات ديمقراطية**. ومع الديمقراطية جاء التوسع فى المسئوليات الحكومية وفى تشكيل الجهاز الوظيفى.

ولعل **التغير الاجتماعى** الرئيسى، هو **تناقص ولاء الفرد لعائلته وبلدته وعشيرته ودينه وحتى لأمته، لحساب ولائه لزملائه فى المهنة وللنظام الوظيفى الذى ينتمى إليه**، حكوميًّا كان أم صناعيًا أم دينيًّا. وكانت النتيجة أن نشأت **ثقافة عالمية** تشمل جميع الأمم الحديثة، وينعكس ذلك فى الشبه الذى تَبَدَّى فى جميع أنحاء العالم فى اللباس والموسيقى والفن واللغة، وحتى فى المفاهيم والأعراف الشائعة.

سألت فارب: وهل انعكس ذلك على شخصية الإنسان؟ فأجابنى: لم يكن ممكنًا حدوث هذه التغيرات دون أن يصاحبها **تغيير أساسى فى الشخصية الإنسانية**. فقد كان لزامًا على الناس أن **يخضعوا لتكييفات نفسية ليتوافقوا مع التعاقب السريع للتغيرات غير المتوقعة وأحيانًا غير العقلانية**. فمثلًا وجد بعض أفراد الجنس البشرى أنفسهم مضطرين إلى التنقل ـ فى إطار عملهم ـ بين أقطار العالم وربما يعيشون خلال حياتهم العملية فى ستة أماكن مختلفة متفرقة فى عدة قارات. ولا شك أن ذلك **يُحَمِّلهم أعباء نفسية واجتماعية هائلة**، إذ يتطلب التعامل ـ كل بضعة سنوات ـ مع رؤساء جدد ومهام جديدة وبيت جديد وصداقات جديدة ومدارس جديدة لأطفالهم، كما يقطع ذلك العديد من أواصر العلاقات العائلية خصوصًا مع الوالدين، وقد أدى ذلك إلى أن يوضع العجائز منهم فى الملاجئ وبيوت كبار السن، وأن يُرسل الأطفال إلى مدارس داخلية.

لقد حدث **تغيير هائل فى العالم بسرعة لم يسبق لها مثيل**، حتى صار كبار السن مذهولين مما يحدث حولهم، كما يجد الشباب صعوبة فى ملاحقة تسارع الأحداث والتغييرات. وفى الوقت نفسه فإن الهدف الذى تسعى هذه التغييرات الحديثة لتحقيقه، وهو ارتفاع مستوى المعيشة، ما زال سرابًا لمئات الملايين من بنى الإنسان.

أَوشك الحوار مع عالم الأنثروبولوجيا المهتم بنشأة الحضارة الإنسانية على الانتهاء. وما كنت لأسمح بذلك قبل أن أحصل منه على خلاصة الرحلة، قلت لبيتر فارب: بعد هذه الرحلة الحضارية الطويلة، **هل تعتقد أن إنسان اليوم أسعد حالًا من أسلافنا الصيادين وجامعى الثمار؟**

ابتسم فارب وأطرق قليلًا وقال: إن ذلك يتوقف على ما تقصده بالسعادة: أهى العمر الأطول؟ أم الاستهلاك الأعلى للطاقة؟ أم المستوى الأعلى من التكنولوجيا؟ أم المعرفة الأعمق؟ أم... أم... ما هو المقياس الذى تحتكم إليه؟

أجبته: **إن المقياس الذى أرجع إليه دائمًا لتقييم أى إنجاز حضارى، هو مدى تَمَشّيه مع إنسانية الإنسان وفطرته، وقدرته على تحقيق الأمان النفسى له**[1].

نظر بيتر فارب إلى الأرض، وهز رأسه وقال: بهذا المقياس، أرى (للأسف) **أن أسلافنا من الصيادين وجامعى الثمار كانوا أسعد حالًا منا**... وافترقنا...

***

مع الحضارتين

المصرية القديمة والعربية الإسلامية

باعتبارى مصريًّا حتى النخاع، ومن عشاق مصر الذين يتنفسون حبها... وباعتبارى عربيًّا مسلمًا، يحركنى اليقين العقلى والقلبى بعظمة عروبتى وإسلامى... ما كان يمكن ـ فى حديثى عن الذات الإنسانية ـ أن أُنهى رحلتى مع ملحمة بناء الإنسان لحضارته، دون أن أُشير إلى مساهمة هذين الرافدين العظيمين فى نهر الحضارة المتدفق.

(١) مناقشة هذا المفهوم بالتفصيل فى الفصل الثامن، بعنوان «جعلونى مسخًا مشوهًا».

حضارة أجدادى المصريين القدماء...

ليس العطاء الأكبر الذى قدمته الحضارة المصرية القديمة للبشرية هو الأهرامات الشاهقة والمعابد المنيفة والمقابر الخالدة، وما يحتاجه تشييدُها من إتقانٍ لعلوم الهندسة والفلك وغيرها!، ولكن **العطاء الأكبر يمكن تلخيصه فى كلمة واحدة، هى «الضمير»، إنه مفاهيم الصواب والخطأ، ما ينبغى ومالا ينبغى، إنه مفاهيم الحرية والعدل والمساواة، وإنكار الذات، والاحترام المتبادل الذى يحكم العلاقات الاجتماعية، والسعى إلى التسامى الروحى، و...، و..**

اقرأ هذه المقولات الخالدة:

«ما أعظم فضل الرجل الذى يتخذ العدالة نبراسًا له وينهج نهجها».

(من أقوال الوزير الأكبر «بتاح حتب»، فى القرن السابع والعشرين ق.م)

«إن العدالة خالدة الذكرى، فهى تنزل مع من يُقيمها إلى القبر... ولكن اسمه لا يُمحى من الأرض بل يُذكر على مر السنين بسبب العدل».

(من قصة الفلاح الفصيح الأهناسى، الذى عاش فى القرن الثالث والعشرين ق.م)

«إن فضيلة الرجل المستقيم أحب (عند الله) من ثور الرجل الظالم» (أى من قربان الرجل الظالم).

(من النصيحة الموجهة للأمير «مريكارع» من والده الفرعون، عاش فى القرن الثالث والعشرين ق.م)

«إن فضيلة الرجل هى أثره، ولكن الرجل السيئ الذكر منسيٍ».

(من شاهد قبر مصرى عاش قرابة القرن الثانى والعشرين ق.م)

«قد يعمل ابنُ الإنسان على تخليد اسمه أبد الآبدين... إن العدالة هى الأبقى... ستعود إلى مكانها والظلم يُنفى من الأرض»

(من أقوال «نفرروهو»، وهو نبى مصرى عاش حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م)

«يا آمون أنت أيها الينبوع العَذْب الذى يروى الظمأ فى الصحراء... إنه لينبوع موصد لمن يتكلم ومفتوح لمن يتذرع بالصمت، فإنه حينما يأتى الصمت، يكون التأمل، وهنالك يجد الينبوع».

(عن حكيم مصرى قديم عاش قرابة ١٠٠٠ ق.م)

إن هذه المقولات أعظم عندى من كل ما تركه أجدادنا المصريين القدماء من أهرامات ومعابد ومقابر و...

فإذا كان للحضارة الإنسانية رافدها المادى ورافدها الأخلاقى، فلا شك أن البعد الأخلاقى هو الأهم. وقد أصاب «إمرسون»[1] حين قال:

«نحن نظن أن شمس حضارتنا قد قاربت غاية ارتفاعها، والحقيقة أننا ما زلنا منها إلى الآن فى أوان آذان الديك ووقت مطلع نجم الصباح، **ففى مجتمعنا الهمجى ما يزال نفوذ الأخلاق فى طفولته**».

لذلك لم أختر موضوعًا لحديثى ما قدمه أجدادى المصريين القدماء للبشرية فى **مجال العلوم التطبيقية (الرافد المادى)** مع سَبْقهم فيه، لكننى اخترت أن أُحدثك (قارئى الكريم) عن سبقهم ـ بل **تأسيسهم ـ للرافد الأخلاقى**. وقد اخترت أن يكون ذلك من فيض **كتاب «فجر الضمير The Dawn of Conscience»** لعاشق مصر والمصريات، **عالم الآثار المصرية جيمس برستد J.H.Breasted**، والكتاب من ترجمة **رائد علم الآثار المصرية د. سليم حسن**[2]:

فجر الضمير

بينما كان الصياد فى عصر ما قبل التاريخ يكافح بين الوحوش الهائلة التى كانت تحيط به، **بدأ يسمع همسًا من عالم جديد كان ينبثق فجره فى باطنه**، وكان هذا الهمس بمثابة بوق يختلف عن همس ألم الجوع أو الخوف الذى يشعر به الإنسان ويدفعه للمحافظة على كيانه. كان ذلك إشارة إلى **بزوغ «فجر الضمير»** الذى صار قوة تمخضت عن **عصر الأخلاق**، ذلك العصر الذى ما زلنا نقف عند أول مرفأ فيه.

فما هو المنبع الذى خرجت منه هذه الأصوات الباطنة، وكيف اكتسبت تلك القوة الآمرة فى حياة الإنسان، وكيف أصبحت قوة راسخة مسيطرة فى المجتمع الإنسانى؟ لا شك أن هذه القفزة كانت تقدمًا عظيمًا وتغييرًا أساسيًّا فى مسيرة الحضارة.

إن المؤرخين يعلموننا أن **التاريخ البشرى ينقسم إلى عصور عظيمة**، مثل عهد الملكية وعهد الإمبراطوريات وعهد الديمقراطيات... إلخ. ويعترف طراز آخر من المؤرخين بأهمية «عصر الآلات وما تبعه من انقلاب صناعى»، حتى إن المتحمسين يُعَبّرون عن رقى الإنسان باصطلاحات تتعلق كلها باستخدام القوة. ومن وجهة أخرى، يُقَسِّم علماء الآثار تاريخ حياة

(١) قس مقاطعة نيو إنجلند.

(٢) قامت بنشر الترجمة الهيئة العامة للكتاب ـ طبعة منقحة، ٢٠١٢.

الإنسان إلى عدة عصور: العصر الحجرى، وعصر استعمال النحاس، وعصر استعمال البرونز، وعصر استعمال الحديد.... بينما يُعدد علم الأحافير الأطوار المتتالية لحياة الحيوان والنبات.

ومع أن هـذه التقسيمات ملائمة وضرورية، فإنها من غير شـك لا تزال ـ من بعض الوجـوه ـ سطحية. أما التقسيم الأكثر فائدة والأعظم أهمية ويدل فى الوقت نفسه على أطوار التقدم الإنسانى، فينبغى أن يشتمل على عصرين؛ «**عصر الضمير والأخلاق**» (الذى بدأ منذ نحو خمسة آلاف سنة)، و«**عصر العلوم**» الذى بدأه «جاليليو» منذ أكثر من أربعمائة سنة. والواقع أن كتابة التاريخ ـ حتى الآن ـ لم تعط سوى القليل من العناية لهذين التطورين الإنسانيين الأساسيين.

مصر.. جنة الخُلد

لقد صار الإنسان أول صانع للأشياء وللأسلحة بين مخلوقات الكون قبل حلول عصر الجليد منذ قرابة مليون سنة، ظل فيها الإنسان يُحَسِّن هذه الأدوات. ولكن من جهة أخرى، لم يمض على الإنسان إلا قُرابة خمسة آلاف سنة منذ أن بدأ يشعر بقوة الضمير الذى صار قوة اجتماعية فعالة. ومن أجل أن ندرك مقدمات ومراحل هذه الملحمة، دعنا نرتدى مُسْوَح الجيولوجيين الذين يقيسون الزمن بعصوره الجيولوجية لا بالسنين.ستكون بدايتنا مع «**عصر تكوين أودية الأنهار العظمى**»، وسيلفتنا بلا شك تَكَوّن **وادى النيل**، بعد أن كانت دلتا النيل الحالية لا تزال خليجًا للبحر الأبيض المتوسط.

بعد هذا العصر، يأتى **عصر** «**نضوب الماء**». فبعد أن كان كل شمال أفريقيا إقليمًا ذا أمطار غزيرة ونباتات وفيرة، أى ميدان صيد نموذجى، بدأ انحسار المطر فى منتصف العصر الحجرىّ القديم، فَحَلَّ الجفاف العظيم الذى حَوَّل هذا الإقليم الخصب إلى تلك البيداء الشاسعة التى نسميها الآن «**الصحراء العظمى**». أما فى الركن الشمالى الشرقى من أفريقيا، فقد حافظت العوامل الجيولوجية على ممر خصب منخفض زاخر بالأعشاب النضرة وبالحيوانات، لقد كان ذلك على ضفتى النهر العظيم عند الجزء السفلى من وادى النيل[1]. لقد أخذت «**جنة الخلد**» **هذه، والتى نسميها الآن مصر**، تجذب إليها صيادى العصر الحجرىّ الذين كانوا يسكنون هضبة

(١) الجزء السفلى من النهر هو القريب من المصب، وهو مصر. والجزء العلوى من النهر هو المنبع الواقع فى قلب أفريقيا.

شمال إفريقيا، بعد أن اضطرهم الجفاف إلى اقتفاء حيوانات الصيد فى هذا الاتجاه، ومن ثم بدأوا يتخذون وادى النيل الضيق موطنًا مختارًا لهم. وقد أقام الجفاف حول جنة الصياد هذه **حاجزًا منيعًا من الصحراء لا يمكن اختراقه من ثلاثة جوانب من حدود مصر** ـ الشرق والغرب والجنوب ـ كما كان يحميها **البحر المتوسط** من الشمال.

لقد تحول وادى النيل الأسفل إلى **معمل اجتماعى منعزل لا مثيل له فى سائر بقاع العالم**، فالنيل هو النهر الوحيد على كرتنا الأرضية الذى ينبع من المناطق الحارة وينساب نحو الشمال مخترقًا نحو ٧٠٠ ميل فى المنطقة المعتدلة بين خطى عرض ٢٥، ٤٥ شمالًا والتى قامت فيها كل الحضارات القديمة. كذلك كان وادى النيل فى عصور ما قبل التاريخ يتمتع بمزية فريدة، إذ لم يكن معرضًا لشدائد عصر الجليد، بل كان منفصلًا عنها ومحتميًا منها بمياه البحر الأبيض المتوسط الملطفة الواسعة الأرجاء.

وفى المقابل كانت حياة صيادى العصر الحجرىّ فى **أوروبا وغرب آسيا** تهددها باستمرار الرياحُ القطبية واندفاعُ الثلوج التى لا تقاوَم، وأيضًا الصراعات بين الجماعات البشرية على الغذاء القليل. لذلك كان التقدم البشرى نحو التطور الاجتماعى فى هذه المناطق لا يلبث أن يَعْثُر وتزل به قدمه فيرجع إلى سيرته الأولى، فيحاول النهوض مرة أخرى، ويعانى العملية نفسها المرة بعد المرة، بهذه العوامل تناوبت القوى المُغِيرَة من طبيعية وإنسانية على وقف التطور الاجتماعى فى هذه المناطق.

فجر الحضارة فى مصر

ولما كانت جنة الخلد (مصر) محمية بالصحارى وبالبحر، عامرة بالماء والخضرة، كان التطور البشرى فيها سهلًا. وقد تكشفت التربة المصرية على حدود الصحراء عن قبور أقدم الجبانات المعروفة فى العالم كله، ووجدنا فيها **خَلَف صيادى العصر الحجرىّ فى وادى النيل** عندما كانوا فى بداية الانتقال إلى عصر المعادن قبل قرابة ٥٠٠٠ سنة ق.م، وكانوا قد استأنسوا أهم الحيوانات المنزلية، وانتقلوا إلى طور حياة الفلاح. بذلك كَوَّنوا أقدم مجتمع عظيم على الأرض، استطاع أن يضمن لنفسه غذاء ثابتًا باستئناس الموارد البرية من نبات وحيوان، كما مَكَّنَهم تغلُّبُهم على المعادن فيما بعد ثم اختراعهم لأقدم نظام كتابى من امتلاك طريق التقدم الطويل نحو الحضارة.

لقد كانت الأحوال المعيشية للجماعات المحلية التى سكنت البلاد حسنة جدًّا، مما جعلها تتوحد تدريجيًّا، حتى أصبحت **أول مجتمع عظيم مؤلف من عدة ملايين يحكمهم ملك واحد وفى أيديهم كل الأسس الرئيسية اللازمة للحضارة.** ففى القرون التى تقع بين ٥٠٠٠، ٣٥٠٠ ق.م قامت **أول دولة متحضرة كبيرة ذات إنجازات غير مسبوقة،** فى نظام الحكم ونواحى الاقتصاد والاجتماع والدين والعمارة والفن والأدب، **لقد بدأ الإنسان المصرى ذلك كله من لا شىء.** فى ذلك الوقت، كانت أوروبا ومعظم غربى آسيا لا تزال مسكونة بجماعات مشتتة من صيادى العصر الحجرىّ.

أما الفترة من القرن الخامس والثلاثين إلى القرن الخامس والعشرين ق.م فكانت **مرحلة «فريدة» فى حياة الإنسان على الأرض،** فقد كان وادى النيل أول مسرح اجتماعى، يمكننا أن نلاحظ فيه **الإنسانَ خارجًا منتصرًا من كفاح طويل مع الطبيعة، وداخلًا مسرح العوامل الاجتماعية الجديدة، ليبدأ كفاحه الشاق بينه وبين نفسه،** وهو كفاح لم يكد يتخطى بدايته حتى يومنا هذا. لقد قدم المصريون القدماء بذلك أول برهان على أن الإنسان أمكنه أن يخرج من الوحشية إلى المَثَل الاجتماعى الأعلى، وأن **يُظهر الحياة الإنسانية بمظهر لم ير الكون كله ـ على ما نعلم ـ أرقى منه**[1].

وأخيرًا نقول، لم يكن لسكان وادى النيل فى عصر ما قبل التاريخ أجداد متحضرون يرثون عنهم أية ثقافة، لقد أنشأوا الحضارة من «الصفر». لقد امتلكوا ذلك السحر الذى حول هؤلاء الصيادين السُّذَج ومساكنهم الصغيرة المصنوعة من الطين أو الخوص إلى مجتمع عظيم يسيطر عليه رجال ذوو سلطان وخيال واسع وأصحاب آمال ضخمة، أحرار لم تغل أياديهم التقاليد، فَعَمَّرَت تلك البقاع التى كانت يومًا أحراش ومستنقعات. ولم يكتف هؤلاء المبدعين بنشر

(١) نشأت فى نفس الوقت تقريبًا فى غرب آسيا (وبخاصة فى بابل) حضارة تمتاز بتقدمها المُطَّرِد فى الشئون العملية والتجارية والقضائية ودراسة الأجرام السماوية، غير أن **الحضارة البابلية** كانت تسودها روح الاقتصاد التجارى والكد فى الحاجيات الأولية، مما حرم التطور الاجتماعى البابلى من الأسس الأولية لمراعاة الغير، والعمل على نفعهم، حتى إن دستور قوانين «حمورابى» يقضى فى العدالة حسب المركز الاجتماعى للمدعى والمذنب. أما الانعدام التام للفوارق الاجتماعية أمام القانون الذى هو من أرقى مظاهر الحضارة المصرية فلم يكن معروفًا فى بابل، وكانت نتيجة ذلك أن المبادئ الأخلاقية فى بابل لم تسهم إلا بالنزر اليسير ـ بل لم تسهم بشىء مطلقًا ـ فى الإرث الأخلاقى الذى ورثه العالم الغربى.
كذلك فإن الادعاء بأن **الحضارة العبرانية** هى صاحبة الفضل على أوروبا فيما تبنته من مفاهيم أخلاقية ادعاء ناقص، فالحضارة العبرانية إنما استمدت إرثها الأخلاقى عن الحضارة المصرية القديمة (بريستد).

هذه الآثار الشاهقة على طول ضفتى النهر، بل **أدركوا كذلك المعنى السامى للقيم الاجتماعية والأخلاق البعيدة عن الأنانية، مما لم ينبثق فجره على العالم من قبل.**

انتهى كلام «بريستد» الذى لخصته من كتابه «فجر الضمير». **ألا تجد فيه الدرس للمصريين المعاصرين الذين يطمحون لأن يستعيدوا لهذه الأمة مجدها؟**

من أجل ذلك كله، عندما زار الفيلسوف اليونانى الكبير أفلاطون مصر فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، عَبَّرَ عن انبهاره بما شاهده بقوله:

«نحن الإغريق نقف كالأقزام إذا ما قُورِنا بالحضارة المصرية».

وتحدث «جون نن» فى كتابه «الطب المصرى القديم» عن دور العنصر البشرى فى بناء حضارة المصريين بقوله:

«لقد امتلك المصريون أهم أسباب التقدم، وهو نظام الإدارة المُحْكَم وموهبة الاختراع، بجانب مهاراتهم التقنية التطبيقية.. إن الشعب الذى استطاع أن يبنى الأهرامات فى الألفية الثالثة قبل الميلاد، جدير بأن تكون له الريادة فى عالم الطب».

ونختم بتلخيص العالِم الفذ د. جمال حمدان لسر عبقرية الحضارة المصرية، كما جاء فى كتابه «شخصية مصر»:

«إن نكاح الإنسان المصرى وطبيعة مصر (أرضها ونيلها) هو الذى أنجب هذه الحضارة، التى تمثلت فى العديد من الإنجازات (غير المسبوقة):

أولها... الضمير

وثانيها... الدين

وثالثها... الهندسة والفن

ورابعها... الطب والتحنيط

وخامسها... الفتوحات»

ألم يصف الرسول الكريم ﷺ رجال مصر بأنهم **«خير أجناد الأرض»**.

الحضارة العربية الإسلامية ـ هويتى

إن كنتُ مصرى الهوية والجذور، فأنا عربى مسلم الانتماء، وسأتناول ـ بشكل مختصر ـ دور الحضارة العربية الإسلامية فى بناء الحضارة الإنسانية ورفعها من هوة التخلف ودفعها للأمام، وذلك من خلال عرض شهادات عدد من مفكرى الغرب الذين بذلوا الجهد والعمر حتى يصلوا إلى الحقيقة.(١)

يقول **المستشرق «سبنسر فاميرى»**: «.. لا يَسَع فلكى واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ اسمًا عربيًّا، ولا يستطيع أى **عالم طبيعى** أن يُحلل ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درسًا عربيًّا، ولا يقدر أى **قاضٍ** أن يبت اليوم فى خلاف دون أن يستدعى مبدأ أملته العرب، ولا يسع أى **طبيب** أن يتأمل أحدَ الأمراض المعروفة منذ القدم إلا أن يهمس بآراء طبيب عربى، ولا يستطيع أى **رحالة** أن يدلف إلى أبعد زوايا آسيا وإفريقيا دون أن يعمد إلى اللغة العربية».

ويقول الفيلسوف الفرنسى «جوستاف لوبون» فى كتابه «حضارة العرب»:

«.. لقد عاشت الجامعات الأوروبية ـ ومنها جامعة باريس ـ لمدة ستمائة عام على ترجمات كتب العرب واتبعت أساليبهم فى البحث، **لقد كانت الحضارة الإسلامية من أعجب ما عرف التاريخ!**»

وتقول **المستشرقة الألمانية «زيجريد هونكه Sigrid Hunke» (١٩١٣ - ١٩٩٩م) فى كتابها «شمس الله تسطع على الغرب»**:«.. إن أوروبا مَدِينَة للعرب وللحضارة العربية، **وإن الدَيْن الذى فى عنق أوروبا وسائر القارات للعرب كبيرٌ جدًّا**. وكان يتعين على أوروبا أن تعترف بهذا الفضل منذ زمن بعيد، ولكن التعصب واختلاف العقيدة أعميا عيوننا وتركا عليها غشاوة، حتى إننا لنقرأ ثمانية وتسعين كتابًا من كل مائة، فلا نجد فيها إشارة إلى فضل العرب وما أسْدَوه إلينا من علم ومعرفة، اللهم إلا تلك الإشارة العابرة إلى أن فضل العرب لا يتخطى دور ساعى البريد الذى نقل إلينا التراث الإغريقى» كما تقول فى الكتاب نفسه: «.. وفى مراكز العلم الأوروبية **لم يكن هناك عالم واحد إلا مد يده إلى الكنوز العربية يغترف منها**، وينهل كما ينهل الظامئ من الماء العذب.. ولم يكن هناك ثمة كتاب واحد من بين الكتب التى ظهرت فى أوروبا فى ذلك الوقت، إلا وقد ارتوت صفحاته بوفرة من نبع الحضارة العربية».

---

(١) هناك العديد من الكتابات المنصفة فى هذا المجال يمكن الرجوع إليها، ومن أشهرها كتاب المستشرقة الألمانية «زيجريد هونكه» المُسمَى «شمس الله تسطع على الغرب». وكتاب «تاريخ ضائع» للمفكر الأمريكى هاميلتون مورجان. وكتاب Muslim Heritage in our world, by salim Al Hassani, 2nd ed.2007

لعل هذه الكلمات الموجزة المنصفة تُغنى عن مئات الصفحات عن دور الحضارة العربية الإسلامية فى بناء الحضارة الإنسانية.

القارئ الكريم...

إنها حقًّا ملحمة... بذل فيها الإنسان جهده ووقته وماله بل ودمه، من أجل أن يثبت أنه **جدير بالخلافة فى الأرض** (سواء دَرَىَ بذلك أم لم يَدْرِ).

إن المُشاهد لأسلافنا الأوائل وهم يفرون مذعورين من الوحوش الكاسرة داخل أعشاب الساڤانا الأفريقية، ما كان ليتخيل أن هؤلاء سيسودون الكوكب فى يوم من الأيام، بل وسيخرجون منه إلى الكواكب المحيطة.

كان العقل ـ وما زال ـ هو أداة الإنسان الأولى، التى مكنته من البقاء، ثم تحقيق **قفزات تكنولوجية ارتقت به سلم الحضارة**. فمن ابتكار الأدوات، إلى اكتشاف النار، إلى اختراع العجلة، إلى الزراعة واستئناس الحيوان، إلى اختراع اللغة ثم الكتابة، إلى اكتشاف المصادر المتعددة للطاقة ابتداء من قوة الهواء والماء إلى الطاقة الذرية، إلى الآلات الميكانيكية، إلى الأجهزة الإلكترونية، إلى وسائل التواصل المتعددة ابتداء من إشارات الأيدى وإشعال النيران والتنقل بالدواب، إلى السيارات والنفاثات والشبكة العنكبوتية. **إنها إنجازات عقلية تفوق قدرتنا على الحصر والسرد وأيضًا على التبؤ بما يحمله المستقبل**.

وإذا كان السياسيون يحدثوننا عن «**سرقة الثورة**»، ويعنون بذلك أن يتم تحويل مسار الثورة حتى يجنى ثمارها مَن لم يضحوا من أجلها ولم يبذلوا جهدًا لإنجاحها، فاسمح لى ـ قارئى الكريم ـ أن أصك اصطلاحًا جديدًا، وهو (**سرقة الحضارة**)، وأعنى بذلك أن يتم تحويل مسار الحضارة حتى تخدم أهدافًا غير التى قامت من أجلها. فإذا كان الإنسان قد قدم ما قدم من تضحيات من أجل أن يحقق **حياة أكثر تلاؤمًا مع طبيعته وفطرته وأكثر قدرة على تحقيق الأمان النفسى له** (وهذا هو المفهوم الحقيقى للتحضر)، فإن جماعات من الانتهازيين الأيديولوجيين والرأسماليين قد سرقوا الحضارة وانحرفوا بها عن الهدف الحقيقى للوجود الإنسانى، وبدلًا من أن يمدوا الإنسان بوسائل بديلة لتحقيق غاياته الحقيقية، فإنهم قد زينوا له أن يَقْبل بأهداف وغايات بديلة أيضًا!

لقـد باعـوا لنا الفنكـوش[1].

(١) إشارة إلى الترويج لسلعة لا يحتاج لها الإنسان، بل سلعة لا وجود لها، بعد إقناعه باحتياجه لها ـ كما جاء فى أحد الأفلام الكوميدية المصرية.

الفصل الثامن

جَعَلُونى مَسْخًا مُشَوّهًا

ـ حقيقتى بين الكينونة والتملك

ـ التملك والكينونة فى نشاطاتنا الفكرية

التعلم • التذكر • الحوار • القراءة • الإيمان • الحب • اللغة

ـ الوعد الكاذب

ـ الكارثة والنجاة

ـ حوارى مع د. عبد الوهاب المسيرى: أنا.. ألعوبة الحضارة المادية

ـ الإنسان والوجود فى عَيْنَى الدكتور المسيرى

ـ الحضارة المادية إفراز للفكر المادى

ـ تفكيك الإنسان ثم إعادة تركيبه: الترشيد البرانى والترشيد الجوانى

ـ صار الإنسان براجماتيًّا

ـ تلاشَىَ دور الأسرة

ـ فقدان المرجعية

ـ حضارة حَفَرَت قبرًا يكفى لدفن العالم

ـ الإمبريالية النفسية

ـ حضارة مهووسة بالجنس

ـ ما بعد الحداثة

ـ الوجه الآخر للتقدم

ـ نحو حداثة جديدة

ـ القارئ الكريم

تهتم الديانات السماوية والفلسفات الوضعية، وكذلك الأساطير والمفاهيم الفلكلورية بأن **تجيب الإنسان عن أسئلته المعرفية العامة**؛ من أين؟ إلى أين؟ لماذا؟...، ثم ترسم له **منهجًا فى الحياة** يحقق به السعادة والوصول إلى غايات وجوده.

ثم كَرَّت علينا **الحضارة المادية الحديثة**، بقَدِّها وقديدها، وأوقعت الإنسان فى براثن **حيرة وضياع واغتراب**، لم يُعانِ مثلها فى أحلك فترات تاريخه. وقد عبر عن هذه الحالة شاعر المهجر، إيليا أبو ماضى، فى أبيات تقطُر بالضياع:

جئتُ، لا أعلمُ من أين... ولكنى أتيتُ
ولقد أبصرتُ أمامى طريقًا فمشيتُ
وسأبقى سائرًا، شئت هذا أم أبيتُ
كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقى؟
لستُ أدرى

لماذا؟ وكيف وصل الإنسان إلى هذا الحال؟ وكيف النجاة؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه فى هذا الفصل...

حقيقتى ... بين الكينونة والتملك

منذ صباى، وحتى اليوم، تتردد فى خاطرى، من حين لآخر، مقولة لسلطان العلماء فى الدولة المملوكية بمصر، العز بن عبد السلام، يقول فيها «**نحن معشر العلماء نعيش فى سعادة لو ذاقها السلاطين والأمراء لجالدونا عليها بالسيوف**». وأحيانًا، يثور فى نفسى تساؤل؛ ما هذه السعادة القصوى المحروم منها من امتلكوا الأموال والرياش والضياع، وفى نفس الوقت قد يُحَصِّلُها مَن عزفوا عن هذا المتاع؟

لقد جُبِلَ العقل البشرى على **إدراك الموجودات (مادية ومعنوية) على هيئة ثنائية، تمثل قطبين متقابلين**، فنجد الأبيض والأسود، والسالب والموجب، والشمال والجنوب، والقوى والضعيف، وغيرها من الثنائيات. ولا شك أن من أهم تلك الثنائيات التقابل التليد بين **الخير والشر**، والذى يتخذ عدة أشكال؛ أقدمها التقابل بين الوجود والعدم، وكذلك التقابل بين الملائكة والشياطين، وبين العلم والجهل، وبين الصحة والمرض وغيرها. ويجسد القرآن الكريم ثنائية الخير والشر وارتباطها بمهمة الإنسان فى الوجود، فى قول الحق ﷻ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[الشمس].

مَرَّت هذه الأفكار بخاطرى وأنا أقرأ كتابًا بالغ الأهمية **لعالم النفس الألمانى الأمريكى إريك فروم Erich Fromm** بعنوان[1] To Have or To Be. ويدور الكتاب حول أن النفس البشرية يتجاذبها نمطان من التوجه؛ النمط الأول وهو المهيمن على المجتمع الصناعى الحديث (رأسماليًّا كان أم شيوعيًّا)، وهو «**نمط التملك**» الذى يَنْصَب على الشعور بالذات من خلال التملك المادى والقوة، ويقوم على الجشع والحسد والعدوان. أما النمط الثانى فيتجه نحو «**الكينونة**» وإثبات الذات من داخلنا، ويقوم على الحب وعلى سمو القيم الإنسانية فوق القيم المادية. إن الفرق الجوهرى بين الكينونة والتملك هو الفرق بين **التوجه نحو الإنسان والتوجه نحو الأشياء**.

وإذا كان التملك أمر بديهى لحياة الإنسان فى هذه الدنيا، فإن ما يرفضه إريك فروم هو **أن يصبح مقدار ما نملكه هو مقياس قيمة الإنسان**، فنتحدث عن شخص يساوى مليون جنيه، ونعتبر أن من لا يملك قرشًا لا يساوى قرشًا، وأن الرجل لا يعيبه إلا جيبه. لذلك ينبغى **النظر إلى كلٍّ من التملك والكينونة باعتبارهما طريقتين أساسيتين لممارسة الحياة**، وأن القوة النسبية لأى منهما هى التى تحدد الفوارق بين شخصيات الأفراد وسمات المجتمعات.

لذلك قامت **الديانات السماوية** بالحث على ألا يطغى نمط التملك على كينونة الإنسان، وإلا خسر إنسانيته. فهاك **رسول الله** ﷺ يخبرنا أن: «من أصبح منكم معافى فى جسده، آمنًا فى

(١) إريك فروم، ولد فى ألمانيا عام ١٩٠٠، وهاجر هربًا من البطش النازى إلى الولايات المتحدة، وعمل كأستاذ لعلم النفس بجامعة نيويورك. وانتقل فى آخر حياته إلى سويسرا، حيث توفى عام ١٩٧٩. وله عدة مؤلفات مهمة منها هذا الكتاب الذى ترجمه سعد زهران وراجعه وقدم له لطفى فطيم، ونشرته سلسلة عالم المعرفة الكويتية فى أغسطس ١٩٨٩م، تحت عنوان «**الإنسان بين الجوهر والمظهر**». وقد نقلنا عن هذا الكتاب أفكار إريك فروم الواردة فى هذا الفصل.

سربه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا»[1]. ويعلن **المسيح ش**: ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله، وفقد نفسه أو خسرها[2].

ويَنحَى **أساتذة البشرية الكبار** نفس المنحى؛ فهاك **بوذا** يُعَلِّم مريديه أن من أجل الوصول إلى أقصى درجات النضج الإنسانى، يجب ألا تشتهى ملكية شيء. وبالرغم من اختلافنا مع الكثير مما تطرح الماركسية، فقد أصاب **ماركس** حين قال: إن الترف لا يقل رذيلة عن الفقر، وأن الهدف من الحياة هو المزيد من تحقيق كينونتنا وليس الاستزادة من ملكيتنا.

ولا شك أن **الإنسان السَّوى** يمارس قدرًا من **نمط الحياة التملكى**، تكون فيه علاقته بالعالم علاقة ملكية وحيازة، بما فى ذلك ذاته نفسها، فتجده فى حديثه يؤكد تلك الملكية؛ فتجدنى أتحدث عن جسدى، صحتى، علمى، اسمى، ممتلكاتى، معارفى، مكانتى الاجتماعية، طبيبى، مدربى، شيخى... وليس فى كل ذلك بأس. أما ما ننكره فهو أن يسيطر النمط التملكى على حياة الإنسان ويصبح مرجعيته، وليس هناك أشهر (ولا أسوأ) من قول فرعون مصر ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف]، لقد أَورَدَتْ كلِمَتَىّ «لى» و«تحتى» فرعونَ المهالك.

وهناك **علاقة بديهية قوية ومباشرة بين التملك والاستهلاك**، فقد صار الاستهلاك أهم مظاهر التملك فى مجتمعات الوفرة الصناعية المعاصرة. وتدفع عملية الاستهلاك الإنسان إلى مزيد من الاستهلاك، إذ سرعان ما يفقد كل استهلاك سابق تأثيره الإشباعى. وهكذا تتلخص النزعة التملكية المعاصرة فى الصيغة الآتية: «**أنا موجود بقدر ما أملك وما أستهلك**».

وإذا كان **النمط التملكى فى الحياة يُذْهِب بجوهر الإنسان وهو كينونته**، فإن له سلبية كبيرة أخرى؛ **فإذا كنت أنا هو ما أملك، ثم فقدت ما أملك، فماذا يتبقى لى من نفسى؟** لن يبقى سوى شاهد (كشواهد القبور) مهزوم متضاءل مثير للشفقة، شاهد على أسلوب حياة خاطئ. ويجعلنى ذلك **أحيا فى خوف وقلق دائمين**؛ من اللصوص والثورات والتقلبات الاقتصادية، ومن الأمراض، ومن اتخاذ القرار، ومن المجهول. وهكذا **أتحول إلى شخص مشغول بالدفاع عن نفسه**، موسوس، وحيد، تتملكنى الحاجة لامتلاك المزيد من الأشياء،التى أنشد فيها مزيدًا من الحماية. ويمتد الخوف ليصل إلى القلق من فقدان الحياة نفسها بالموت، ذلك الخوف الذى لا مهرب منه طالما نعيش وفق نمط التملك.

(١) سنن الترمذى.

(٢) إنجيل لوقا ٩ :٢٥.

أما أسلوب الكينونة، فهو نقيض التملك، ويعنى الارتباط بالعالم بروابط حقيقية أصيلة، كما يعنى الاهتمام بالجوهر الصادق للشخص كنقيض للمظهر الخادع[1].

ويمكن تشبيه نمط الكينونة بسطح أزرق اللون، إذا ما سقط عليه الضوء امتص كل ألوان الطيف وعَكَسَ اللون الأزرق. أى أننا نصف السطح بالزرقة ليس لأنه يمتلك اللون الأزرق بل لأنه يعكسه. أى أن **الشىء يُعرف بما يُعطِى وليس بما يملك.**

وفى أسلوب الكينونة لا يتعاظم الإحساس بالقلق وانعدام الأمان الناشئين من خطر فقدان الممتلكات. **فإن كنت أنا من أكون ولست ما أملك، فلن يسلبنى فقدان شىء أمنى أو ينال من إحساسى بتكاملى وتماسك شخصيتى**، ذلك أن مركزى موجود داخل نفسى، وأن قدرتى على الوجود جزء لا يتجزأ من ذاتى. وبينما يتناقص التملك بالاستخدام، فالكينونة تتعاظم بالممارسة. وإذا اكتملت نظرتى إلى حقيقة الحياة (**المنظور الدينى**) تلاشى الخوف من الموت الذى لن يكون إلا طريق إلى حياة خالدة.

التملك والكينونة فى نشاطاتنا الفكرية

يعيش إنسان العصر الحديث فى مجتمع مُكَرَّس للامتلاك وتحقيق الربح، حتى اعتقد **أغلب الناس أن التملك هو الأسلوب الوحيد الممكن للحياة**، لذلك يندر أن نلاحظ شواهد لنمط الكينونة فى حياتنا اليومية، بالرغم من أن نمطى التملك والكينونة يتنافسان فى جوانب عديدة من حياتنا الفكرية قد تظن أنها بعيدة عن هذه الثنائية، فلنتأمل هذه الأمثلة:

التعلم: فى نمط التملك، ينصت الطلاب للمحاضرة ويسجلون كلماتها فى مذكراتهم حتى يحفظوها ويصبحوا قادرين على استرجاعها ليجتازوا الامتحان بنجاح. أى **يصبح كل طالب مالكًا لمجموعة من العبارات والصِيَغ (ولا أقول المفاهيم) التى تَوَصَّل إليها شخص آخر، دون أن ينتج أو يبتكر شيئًا جديدًا.**

أما فى نمط الكينونة، فعادة ما يكون الطلاب قد أعملوا فكرهم فى الموضوعات التى ستعالجها المحاضرات قبل أن يحضروها، إذ عادة ما تشغل تلك الموضوعات بالهم

(١) كان الإنجاز الرئيسى لفرويد فى علم النفس هو الكشف عن التعارض بين القناع Persona الذى تظهر به شخصية كل منا، وبين الحقيقة المختفية وراءه، وهذا التعارض من سمات متقابلة المظهر والجوهر.

وتثير اهتمامهم، ولا ينظرون إليها باعتبارها كلامًا أجوف. لذلك فهم يستقبلون المحاضرة ويتجاوبون معها بطريقة نشيطة ومثمرة، وتكون المحصلة أن **يصبح كل طالب بعد المحاضرة على غير ما كان قبلها**.

التذكر: يعتمد التذكر على ربط المعلومات بأسلوب يعين على استرجاعها. وفى نمط التملك، يتم ذلك من خلال **روابط ميكانيكية**؛ كالربط بين بنية أو جَرْس الكلمة والكلمة التالية لها، أو عن طريق صلة منطقية خالصة، كالتضاد أو التقارب. ومثال هذا التذكر حفظ الصغار لآيات القرآن الكريم.

أما التذكر فى نمط الكينونة، فيعتمد على ربط ما نريد تذكره ببعض المفاهيم والملابسات الكثيرة المحيطة به، وبالتالى **يصبح التذكر إحياءً للكلمات والأفكار**. ومثال هذا التذكر ما كنت أقوم به عند دراسة الأمراض فى أحد فروع الطب. فكنت أضع لجميع الأمراض نظامًا عامًّا أحفظها (وبالتالى أتذكرها) تبعًا له، فأحدد لكل مرض أسبابه ـ أعراضه ـ علاماته ـ فحوصاته ـ مضاعفاته ـ علاجه... وقد أربط كل مرض بشىء خاص به، كأن أستحضر عند دراسة مرض الشلل الرَّعَاش هيئة الشحاذ الذى يرابط أمام باب المسجد المجاور لبيتى.

الحوار: عندما يتحاور الشخص الذى يحيا بأسلوب التملك، فإنه لا يهتم إلا بإيجاد المزيد من الحجج للدفاع عن رأيه الذى يعتبره جزءًا من ذاته أو من ممتلكاته، ومن ثم **يعتبر أن التخلى عنه يعنى افتقاره أو انتقاص من ذاته**.

وفى المقابل، يصف رئيس مجلس إدارة إحدى شركات البترول العالمية الحوار كما يدور (بأسلوب الكينونة) أثناء اجتماعات مجلس الإدارة، قائلًا: فى البداية، يطرح كل منا رأيه وكأنه يضعه على المنضدة المقابلة ويتخلص من نسبته إليه، **ثم تدور المناقشات دون أى ذاتية أو حساسية**، وبذلك يتم تعديل وترقية تلك الأفكار، وفى النهاية يتبنى كل منا الرأى الذى اقتنع به.

القراءة: يهتم القارئ بأسلوب التملك **بالإلمام بأحداث الفترة التاريخية التى يقرأ عنها، أو بأحداث الرواية** التى يتسلى بها، وربما **يتعجل القفز إلى معرفة حل عقدة الرواية**؛ هل يظل البطل على قيد الحياة؟ هل تقع البطلة فى غرامه أم تقاوم؟ عندها يشعر القارئ أنه قد امتلك الرواية بالرغم من أنها لم تضف إليه شيئًا حقيقيًّا، حتى وإن كانت من تأليف مفكر كبير كنجيب محفوظ أو توفيق الحكيم.

أما القراءة بمفهوم الكينونة، فهى **حوار بين القارئ والكاتب**، يسعى فيه القارئ لفهم الشخصيات التاريخية أو شخصيات الرواية، لينفُذ إلى الدوافع الحقيقية وراء سلوك تلك الشخصيات بصفة خاصة، وإلى أعماق النفس البشرية بصفة عامة.

كما يُنَقِّب القارئ عن الجديد الذى جاء به المؤلف، ويميزه عن المقولات المُعادة التى لا مناص من تكرارها. بل ربما يصل القارئ إلى أن كتابًا كَثُرَ إطراؤه ليس إلا عملًا قليل القيمة، وربما لا قيمة له على الإطلاق. بذلك **تضيف تلك القراءة مفاهيم حقيقية إلى معرفة الإنسان**.

الإيمان: يختلف الإيمان (الدينى ـ السياسى ـ الشخصى) اختلافًا تامًّا فى كل من نمطى التملك والكينونة. فالإيمان فى إطار التملك، يعنى **أن يمتلك الشخص إجابات عن التساؤلات المطروحة دون أن يكون لديه دليل عقلانى عليها**، وعادة ما تكون تلك الإجابات صياغات توصل إليها آخرون يخضع لهم أو يثق بهم. وبذلك يعتقد الشخص أنه يملك المعرفة النهائية الراسخة، ويصبح واحدًا من المالكين السعداء لليقين، وهذا **أمر يريح الإنسان من أحد أشق مهامنا العقلية؛ مهمة التفكير واتخاذ القرار**. وهذا اليقين مقابل لا بأس به لإنسان لا يملك الجرأة أو القدرة على التمحيص العقلى، ولديه الاستعداد للتنازل عن استقلاليته.

أما الإيمان فى إطار الكينونة، فيُعتبر **تَوَجُّه داخلى للشخص، يرفض الخضوع لسلطة تُملِى عليه مفاهيم إيمانية جاهزة**، بل يتوصل الإنسان إلى اليقين من خلال تجربته الذاتية وما تقدمه من أدلة. **وتعتمد الدعوة إلى الإيمان فى القرآن الكريم** على حث الإنسان على التأمل فى الآفاق وفى الأنفس، وعلى إعمال العقل فى الأدلة المنطقية حتى يتوصل من خلالها إلى اليقين الحقيقى.

الحب: الحب لفظ تجريدى ليس له وجود مادى، يصف فعل المحبة، التى تعنى (فى حقيقتها) **نشاطًا إيجابيًّا مثمرًا**، تكون فيه العلاقة بالمحبوب علاقة معرفة ورعاية وتجاوب وفرحة ومسرة ومتعة.

أما إذا زحف أسلوب التملك على الحب تحول إلى **سيطرة واحتواء وسجن**، وصار عملية خنق وإهلاك بدلًا من أن يكون عطاءً للحياة، ويجسد هذا المعنى السلبى للحب اصطلاح نستخدمه كثيرًا لوصف هذه التجربة، وهو«**الوقوع فى الحب**».

وإذا كان المحب فى فترة الخطوبة يطلب ود محبوبه، ويجتهد كل من الطرفين ليُظهر أفضل ما عنده محاولًا أن يكسب مشاعر من يحب، فكثيرًا ما تتغير الأمور تمامًا **مع الزواج، بعد أن يصبح كل منهما مالكًا للآخر**. عندها يبحث كل طرف عما أصاب الآخر بعد أن يشعر أنه قد خُدع، والحق أنهما لا يدركان أنهما قد أصبحا شخصين مختلفين. وفى الأحوال المعتادة يتحول الزواج إلى نوع من الملكية المشتركة، شركة تودِع فيها كل ذات نفسها للاستثمار فى ذات مشتركة، هى مؤسسة الأسرة.

اللغة: تختلف اللغات فى أسلوب بنائها للجمل، فنجد للجُمل التى تصف القيام بفعل ما فى اللغة العربية هيئة واحدة، فنقول مثلًا: أنا ضربته. بينما نجد فى الإنجليزية هيئتين، إحداهما هيئة بسيطة مثل I Killed Him، والأخرى تُعرف بالماضى التام مثل I Have Killed Him. وفى الهيئة الأخيرة، نلاحظ **إضافة فعل التملك Have إلى الفعل الذى مارسه الشخص**، ويحدث ذلك أيضًا فى اللغة الفرنسية[1]. **وكذلك يتم استخدام فعل التملك لوصف العديد من أشكال النشاط الإنسانى؛ مثل** I Have an Idea، **وليس لذلك نظير فى اللغة العربية.**

وقد لاحظ إريك فروم **تَوَسُّع اللغة الإنجليزية خلال القرنين الآخرين فى استخدام الأسماء والأفعال مشفوعة بفعل التملك**، عِوَضًا عن الاستخدام المباشر. ويضرب على ذلك مثالًا بالمريض الذى يذهب إلى طبيبه النفسى قائلًا له: يا دكتور، أنا «عندى» مشكلة، «عندى» أرق، بالرغم من أن «لدى» زواج سعيد. وقبل قرنين كان المعتاد أن يقول المريض أنا أُعانى من أرق بالرغم من أن زواجى سعيد. كذلك لاحظ حجة اللغة نعوم تشومسكى **تزايدًا ملحوظًا فى استخدام الأسماء** (التى هى رموز للأشياء) على حساب التناقص فى استخدام الأفعال (التى تعكس النشاط البشرى).

إن هذا الأسلوب من الكلام فى العصر الحديث يعكس درجة عالية من الاغتراب، فقد تحولت مشاعر الإنسان إلى شىء يملكه، بل أصبحت المشكلة تتملكه، أى أصبح الشىء الذى من صنعه يتملكه.

نلاحظ مما سبق **أن كلا الاتجاهين (التملك والكينونة) غريزة فى النفس الإنسانية**. ويدعم اتجاه التملك دافع بيولوجى قوى يتمثل فى **الرغبة فى البقاء**، أما اتجاه الكينونة فتدعمه **حاجة الإنسان النفسية للتغلب على العزلة بالتعامل اللائق مع الآخرين**. وعلى الإنسان أن يختار أى

(١) Verbe Avoir

هذين الاتجاهين يرعاه وينميه، هذا ـ طبعًا ـ دون إغفال أن قرارنا يؤثر فيه البناء الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع.

فالمجتمع المعاصر يفترض أن نمط التملك هو النمط الفطرى الأوحد فى النفس البشرية، وأنه يستحيل تغييره عمليًّا. ويرى هذا المنظور أن الناس بطبعهم كسالى وسلبيون ولا يرغبون فى العمل إلا إذا كانوا **مدفوعين** بحافز الربح المادى أو تحت ضغط الجوع أو الخوف من العقاب. وإذا كان الحافز البيولوجى للبقاء يُبْرز الجانب التملكى فينا، فإن هذا لا يمنع أن داخلنا رغبة عميقة ومتأصلة لأن نؤكد كينونتنا، وأن نُعَبِّر عن ملكاتنا العقلية والروحية، وأن نكون نشيطين، وأن نهرب من سجن أنانيتنا، وأن ننتمى إلى المجموع.

وقد عَبَّر هِب D.O.Hebb [1] عن لُب المشكلة حين قال: **إن المشكلة السلوكية الأساسية هى الكشف عن أسباب السلبية والخمول، وليس البحث عن أسباب النشاط، إذ إنه فطرى فينا.**

الوعد الكاذب

ابتداء من النصف الثانى للقرن العشرين حدثت بين الكثيرين من فلاسفة العالم الغربى **صحوة فكرية**، تستنكر أن المجتمع الصناعى الغربى حين دفع الناس إلى تبنى النمط التملكى فى الحياة قد جعل شهوة تملك المال والشهرة والسلطة هى المحرك الأساسى للإنسان، مما أدى إلى أن **مُسخت حاجيات الإنسان وتشوهت فطرته**، حتى أصبح الإنسان العصرى **عاجزًا عن تصور مجتمع لا يدور حول الملكية الجشعة.**

ومن هؤلاء الفلاسفة العظام إريك فروم، الذى اهتم بدراسة هذه الظاهرة من خلال مقارنة نمطى التملك والكينونة فى كتابه To Have Or to Be [2]، واعتبرها **مقارنة بين مظهر الإنسان وجوهره.** ويرى فروم أن الحضارة المادية المعاصرة قد أهملت بشكل كامل **حاجات الإنسان النفسية الأساسية، وهى الحاجة إلى الانتماء، والحاجة إلى الهوية، والحاجة إلى الارتباط بالجذور، والحاجة إلى التسامى، والحاجة إلى منظومة توجيهية يحيا الإنسان فى إطارها.** ولا شك أن هذه الحاجات الخمس متطلبات إنسانية موضوعية، لا توجد لدى الحيوان، ولم يخلقها المجتمع، وإنما هى جزء من طبيعة الإنسان وفطرته.

---

(١) دونالد هب D.o.Hebb (١٩٠٤ ـ ١٩٨٥)، عالم النفس الكندى، الذى وُصف بأنه أبو علم النفس العصبى، لاهتمامه بكيفية قيام الخلايا العصبية بالمهام النفسية.

(٢) عَرَّفْنا بإريك فروم وعرضنا طرحه لنمطى التملك والكينونة كما جاء فى كتابه هذا، فى الجزء السابق من الفصل.

وبالرغم من فطرية هذه الحاجات، فإن المجتمعات المعاصرة فرضت على الإنسان مفاهيم تنافى طبيعته وتحبطه وتقيده، وتجعله غريبًا عن حقيقته الإنسانية، **وتنكر عليه تحقيق الشروط النفسية الأساسية لوجوده**. ومثال هذا الخلل الشنيع ما صار يُعرف بـ«**الحلم الأمريكى**»، وهو محاولة المجتمع الأمريكى صهر المهاجرين الجدد فى بوتقة واحدة، متجاوزين جذورهم وانتماءاتهم، وفرض هوية جديدة عليهم، ودفعهم للحياة فى إطار الواقع دون أى إطار توجيهى سوى مصلحة هذا الواقع. إنه **حلم يتعارض على طول الخط مع حاجيات الإنسان النفسية الخمس**. بذلك أصبح الإنسان فى هذا النظام المادى (الرأسمالى والشيوعى) آلة وعبدًا مأجورًا مجردًا من الهوية ويحيا فى اغتراب ويأس. ويصف إريك فروم المجتمع الذى يسعى لمثل ذلك الحلم ويخفق فى إشباع حاجات الإنسان الأساسية بأنه **مجتمع مريض لا يُنتج إلا مسوخًا مشوهة**.

وبعد هذا التشخيص، يضع فروم يده على **الأسباب وراء هذا المرض المجتمعى**، فيقول: لقد ظهرت الحضارة الإنسانية منذ بدأ الجنس البشرى سيطرته الفعالة على الطبيعة، وقد ظلت هذه السيطرة محدودة حتى جاء العصر الصناعى، الذى تم فيه إحلال الطاقة الميكانيكية ثم النووية محل طاقة الإنسان والحيوان، وكذلك إحلال الحاسبات الإلكترونية محل المخ البشرى فى العديد من النشاطات، عند ذلك شعر الإنسان بأنه قادر على كل شىء، كما أشعره التقدم العلمى بأنه عالم بكل شىء. **لقد اعتقد البشر أنهم صاروا أشبه بالآلهة**، أى **كائنات عليا تستخدم العالم الطبيعى كأحجار بناء لعالم جديد من خلق الإنسان!**

وقد مكن التقدم التكنولوجى الهائل الإنسان من الإنتاج والاستهلاك غير المحدودين، وقد شكل ذلك مع الحرية المطلقة ـ خصوصًا فى تحصيل اللذة ـ ثالوثًا مَثَّل **نواة دين جديد اسمه «التقدم»**. فساد الاعتقاد بأن تحقيق الثروة والرفاهية سيحقق **المتعة القصوى والسعادة غير المحدودة للجميع**. ويرى فروم أن العصر الصناعى عجز عن تحقيق هذا الحلم، ومن ثم عجز عن الوفاء بوعده العظيم للبشرية.

ويضع إريك فروم يده على «**مظاهر**» **عجز العصر الصناعى عن الوفاء بوعده**، فيؤكد **أن إشباع كل ما يعن للناس من رغبات دون قيود لم يُوَصِّل للحياة الطيبة**، ولم يكن سبيلًا إلى المتعة والسعادة. كذلك فإن حلم البشر بأن يكونوا سادة أحرارًا قد انتهى بعد أن أصبحنا جميعًا تروسًا فى الآلة البيروقراطية، وبعد أن أصبحت الصناعة والحكومات (عن طريق آلتها الإعلامية) هى التى تشكل مشاعرنا وأفكارنا وأذواقنا، تتلاعب بها كما تريد. وقد ظل التقدم الصناعى مقتصرًا على الأمم الغنية، بل إن الهوة بينها وبين الأمم الفقيرة تزداد

يومًا بعد يوم. وأخيرًا وليس بآخر، فإن التقدم التكنولوجى قد خلق مخاطر إيكولوجية (أى تهدد البيئة الطبيعية) ومخاطر نووية، وكلاهما يمكن أن يكون سببًا فى إنهاء كل أشكال الحضارة، وربما كل أشكال الحياة على ظهر الكوكب. وقد لخص ألبرت شفايتزر Albert Schweitzer [1] الموقف فى كلمته التى ألقاها عام ١٩٥٢ أثناء تسلمه جائزة نوبل للسلام، حين «**تحدى العالم أن يجرؤ على مواجهة الموقف**»، ويقصد بذلك أننا قد صرنا عبيدًا لتلك الحضارة الهدامة.

وكعالم للنفس، يُرجع إريك فروم **إخفاق الوعد العظيم إلى «مقدمتين نفسيتين» أساسيتين** تروج لهما الحضارة المعاصرة؛ الأولى، ادعاء أن الهدف من الحياة هو السعادة، التى تعنى تحقيق أقصى متعة، عن طريق إشباع أى رغبة أو حاجة ذاتية تعن للمرء (وهو ما يعرف بمذهب اللذة الراديكالى[٢])، والمقدمة الثانية هى الاعتقاد بأن الاكتفاء بتحقيق المصلحة الشخصية ـ حتى من خلال الأنانية والجشع ـ يمكن أن يفضى إلى الانسجام والسلام.

وإذا نظرنا إلى المقدمة الأولى؛ **مذهب اللذة الراديكالى**، وجدنا غالبية فلاسفة الغرب ـ ابتداء من القرن السابع عشر ـ يتبنون مفاهيم تؤكد **أن حياة الإنسان من أجل نفسه فقط تعنى تعظيمًا لذاته وليس إنقاصًا لها**. فهذا هوبز Hobbes يعتبر أن السعادة هى التقدم المطرد من شهوة لشهوة. ويصل لاميترى La Mettrie إلى حد تشجيع الحصول على وهم السعادة عن طريق تعاطى المخدرات. ثم هناك دى ساد De Sade الذى يعتبر إشباع الرغبة فى ممارسة العنف والقسوة أمرًا مشروعًا يمكن أن يحقق النشوة للإنسان[٣].

وبانقضاء القرن الثامن عشر ظهرت **نظريات مناهضة تمامًا لمذهب اللذة** على أيدى فلاسفة كبار أمثال كانت وماركس وشفايتزر. لكن، ها هو العصر الحالى، منذ الحرب العالمية الأولى، يشهد **عودة إلى أفكار وممارسات مذهب اللذة الراديكالى**، وأصبحت فلسفة المجتمعات الغربية تدور حول الجمع بين التفانى فى العمل إلى الدرجة التى قد تدفع الناس إلى الجنون وبين التفرغ لتحصيل المتعة بعد ساعات العمل وأثناء العطلات.

وإذا نظرنا إلى المقدمة الثانية، وهى **قبول تحقيق المصلحة الشخصية عن طريق الأنانية والجشع**، وجدنا أن السلوك الاقتصادى فى العصور الوسطى (خاصة فى المجتمعات

(١) ألبرت شفايتزر (١٨٧٥ - ١٩٦٥)، الطبيب والفليسوف الدينى الألمانى، حصل على جائزة نوبل لفلسفته الإنسانية ولتأسيسه لمستشفى ضخم بالجابون لرعاية الأفارقة المعدمين، وهو موسيقى بارع فى عزف الأورج.

(٢) الراديكالى Radical بمعنى جذرى أو أساسى.

(٣) سنُعَرِّف بالشخصيات التى وردت أسماءها بعد قليل.

الشرقية) كان محكومًا بمبادئ أخلاقية، حتى إننا نقرأ فى كتب التراث كيف كان التاجر يرفض البيع لزبون ويرسله لجاره التاجر الذى لم يسترزق اليوم بعد. ثم شهدت رأسمالية القرن الثامن عشر تغييرًا جذريًّا أدى إلى **أن أصبح السلوك الاقتصادى منفصلًا عن النظام الأخلاقى وعن القيم الإنسانية**، حتى لقد أصبحت الآلة الاقتصادية كيانًا قائمًا بذاته، مستقلًا عن احتياجات الإنسان وإرادات البشر. وبدلًا من أن يكون النظام الاقتصادى (وغيره من الأنشطة) خاضع للإجابة عن السؤال: **ما الذى يجب عمله لخير الإنسان؟** أصبح السؤال هو: **ما الذى يجب عمله لخير النظام وتنميته؟**

لذلك أصبحت المجتمعات المعاصرة تنظر إلى المجتمعات التى لا تخضع لمبدأ اللذة الراديكالى ولا تعرف الأنانية والجشع فى تحقيق المصلحة الشخصية باعتبارها **مجتمعات بدائية**، رجالها ونساؤها كالأطفال! لقد أصبح المجتمع الصناعى **يحتقر الطبيعة ويحتقر كل ما ليس من صنع الآلة**، ويحتقر الشعوب التى لا تتفوق فى تصنيع الآلات.

الكارثة والنجاة

يؤكد شوماخر E.F.Schumacher [1] ـ وهو من كبار المفكرين الاقتصاديين البريطانيين، ومن دعاة المذهب الإنسانى ـ أن نظامنا الاجتماعى الراهن يجعل منا كائنات مريضة، ويرى أننا مندفعون نحو كارثة اقتصادية وبيئية ما لم نغير نظامنا الاجتماعى تغييرًا جذريًّا. ويضيف شوماخر؛ **إن الحاجة لتغيير إنسانى عميق لا تنبع من كونها مطلبًا أخلاقيًّا ودينيًّا وحسب، كما أنها ليست مجرد مطلب نفسى رافض للطبيعة المُمْرِضة لنظامنا الاجتماعى، ولكنها قبل كل ذلك شرط لبقاء الجنس البشرى.** لم يعد الاحتياج لحياة خَيِّرة مجرد استجابة للمتطلبات الأخلاقية والدينية، بل **لقد أصبح بقاء الجنس البشرى ـ لأول مرة فى التاريخ ـ يتوقف على إحداث تغيير جذرى فى وجدان الإنسان وقلبه وضميره.**

ويرى إريك فروم أن السبيل لتفادى هذه الكارثة يكمن فى إنشاء **مجتمع «المدينة الفاضلة»** الذى يرتبط فيها الإنسان بأخيه الإنسان برباط المحبة، وتتواصل فيه جذور الأخوة والتكاتف، ويتيح للإنسان التعامل مع الطبيعة بالخَلْق لا بالتدمير، ويكتسب فيه كل فرد شعورًا بذاته باعتبارها ذات قيمة وفاعلية. **مجتمع يوجهه نظام يراعى الجانب الروحى للإنسان، فلا يحتاج إلى تحريف الواقع وعبادة الأصنام.**

(١) شوماخر: ١٩١١ - ١٩٧٧م.

إن ما عرضته حتى الآن عن معاناة ذاتى الإنسانية فى ظل المجتمعات المعاصرة ليس بجديد، بل إنه معروف ومنشور على الملأ. غير أن الحقيقة التى يصعب تصديقها هى أن **المسئولين الموكَلين بشئوننا العامة لا يفعلون شيئًا ذا بال لإنقاذ البشرية**، كما أننا (الذين أوكلنا لهم شئوننا) لا نفعل شيئًا أيضًا! ولكن كيف فقدت أقوى غرائزنا ـ وهى غريزة البقاء ـ القدرة على تحريكنا للمحافظة على وجودنا؟!

يُرجع إريك فروم ذلك إلى أن القادة والزعماء يتظاهرون بأنهم يعملون شيئًا فعالًا لإنقاذ البشرية (مؤتمرات ـ قرارات ـ مفاوضات لنزع السلاح...). إن كلًّا من القادة والمَقُودين يُخَدِّرون ضمائرهم بالتظاهر بمعرفة الطريق السليم والسير فيه (**أسمع ضجيجًا ولا أرى طحنًا**). كذلك أصبحت الأولوية لدى هؤلاء المسئولين (كما شكلها نمط التملك) هى **النجاح والمجد الشخصى**، وليست المسئولية الاجتماعية، ومن ثم تدور قراراتهم حول هذا الهدف.

كذلك من أسباب قتل غريزة البقاء فينا، أن التغيرات المطلوبة لإنقاذ الموقف أصبحت من العمق والجذرية بحيث تجعل الناس **يفضلون وقوع الكارثة فى وقت لاحق على قبول تقديم التضحيات المطلوبة منهم الآن**. تمامًا كالطالب الذى يتكاسل عن بذل الجهد لمذاكرة الدروس، بالرغم من علمه أن ذلك سيؤدى إلى رسوبه فى الاختبار بعد أسابيع قليلة.

ولا شك أن أحد أهم العوامل الرئيسية للتراخى فى درأ الكارثة هو اعتقاد معظمنا أنه ليس أمامنا من بدائل سوى رأسمالية الشركات الكبرى، أو الاشتراكية الديمقراطية، أو الاشتراكية السوفييتية، أو الفاشية التكنوقراطية ذات الوجه المبتسم، أو.... **إن أقل القليل من الجهد لم يُبذل لدراسة إمكانية قيام نماذج اجتماعية جديدة تمامًا والتجريب عليها لإنقاذ البشرية.**

***

حوارى مع د. عبد الوهاب المسيرى

أنا... أُلْعُوبة الحضارة المادية

قد يرى البعض أننى قمت ـ فى الجزء السابق من الفصل ـ بانتقاء آراءٍ لعلماء ومفكرين **يتحاملون على الحضارة المادية المعاصرة** (بالرغم من أنهم من أبناء جلدتها!)، وقد يرون أن الأمر ليس بهذا السوء، ويدفعون بأن هذه الحضارة قد قدمت للإنسانية مستوى غير مسبوق من التقدم والرفاهية وطول العمر، وأنها فى الوقت نفسه لم ترغم أبنائها لأن يحيوا بعيدًا عن

القيم الإنسانية والدينية التى يختارونها، ومن ثم لا ينبغى أن نصفها بأنها «حضارة مُمْرِضة» «شوهت أبناءها وجعلتهم مسوخًا بشرية».

(شكل ـ ١)
الدكتور عبد الوهاب المسيرى
عالِم الاجتماع، والفيلسوف
الإسلامى، وأستاذ الأدب الإنجليزى

كعادتى فى فصول هذا الكتاب، أردت أن أستوضح الأمر وأن أطرحه للنقاش، عن طريق الحوار المباشر مع مفكر ممن خبروا الموضوع وتخصصوا فيه. لم يتطلب الأمر منى عناءً كبيرًا فى البحث، فقد اعتدت أن أرجع فى كل ما يخص الحضارة المادية إلى **أستاذى وصديقى الدكتور عبد الوهاب المسيرى**[1] (شكل -١)، فبالإضافة إلى أنه كان أستاذًا للأدب الانجليزى وعالمًا للاجتماع وأحد أعلم أهل الأرض باليهودية والصهيونية، فقد خَبَرَ الحضارة المادية (بشقيها الرأسمالى والشيوعى). فقد كان فى شبابه ـ لفترة ـ عضوًا فى الحركة الشيوعية فى مصر، كما عاش سنوات طويلة فى الولايات المتحدة ودَرَس ودَرَّس فى جامعاتها، فاستطاع بعينه الناقدة أن يحلل تلك الحضارة وأن يضع يده على إيجابياتها وسلبياتها، وناقش هذه وتلك فى العديد من كتبه. ولإعجابى الشديد ـ وتأثرى ـ بفكر الدكتور المسيرى، كتبت عنه كتابًا بعنوان «**رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية**»، نشرته وزارة الثقافة فى مصر (طبعتين) عام ٢٠٠٨.

الإنسان والوجود فى عَيْنَى د. المسيرى

بدأت حوارى مع أستاذى د. عبد الوهاب المسيرى، وقلت له: قبل أن نتناقش حول الحضارة المادية الحديثة، هلا بينت لى نظرتك إلى الإنسان وإلى الوجود. أجاب طلبى قائلًا:

---

(١) **الدكتور عبد الوهاب المسيرى**: ولد بدمنهور بمصر عام ١٩٣٨ (توفى بالقاهرة عام ٢٠٠٨). تخرج من كلية الآداب ـ قسم اللغة الإنجليزية ـ جامعة الإسكندرية عام ١٩٥٥، ثم حصل على الماجستير من جامعة كولومبيا عام ١٩٦٤ والدكتوراه من جامعة رتجرز عام ١٩٦٩، حيث عمل بالتدريس عدة سنوات، كما عمل مستشارًا ثقافيًّا للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك قبل عودته عام ١٩٧٩ للعمل كأستاذ للغة الإنجليزية بجامعة عين شمس وجامعات السعودية والكويت.
أشهر مؤلفاته «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج معرفى جديد» صدرت فى ثمانية مجلدات عام ١٩٩٩، وهى من أعمق المراجع العالمية فى مجالها. وله العديد من الكتب حول سلبيات الحضارة المادية، مثل «نهاية التاريخ» و«إشكالية التحيز» و«العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة» و«الحداثة وما بعد الحداثة». بالإضافة إلى عدة كتب فى النقد الأدبى وأدب الأطفال وديوان من الشعر.

أرى أن «**الإنسان**» هو أكرم المخلوقات فى الكون، مختلف بشكل جوهرى عن بقية الكائنات، حتى وإن شاركها بعض صفاتها، فهو ـ مثلها ـ يعيش فى الطبيعة لكنه منفصل عنها.

وصفات «**الطبيعة**»، فى الفكر المادى، هى ذاتها صفات «**المادة**»، لذلك كلما وردت كلمة «طبيعة» يجب أن نضع محلها كلمة «مادة»، ولهذا نكتبها «الطبيعة/ المادة».

وأرى أن «**الوجود**» يتسم بثنائية أساسية، أسميها «**الثنائية الفضفاضة**»:فهى ثنائية **الخالق** (خَلَقَ العالم)، **والمخلوق** (الإنسان والطبيعة والتاريخ).

وهى **فضفاضة**: إذ إن الإله مفارق للعالم (فالعالم ليس جزءًا من الإله ولا متحد به)، إلا أنه لم يهجره ولم يتركه وشأنه.

وينتج عن هذه الثنائية الأساسية (الخالق والمخلوق) **عدة ثنائيات**، من أهمها ثنائية **الإنسان والطبيعة** التى ترى انفصال الإنسان عن الطبيعة واستحالة تفسير سماته فى إطارها، لأن **الإله خلقه وكَرَّمه واستخلفه فى الأرض**. لذلك فالإنسان ليس مركز الكون، وإنما وُضع فى مركزه، وليس مالكًا للطبيعة، بل خليفة فيها من قِبَل خالقها (خليفة من الله وليس خليفة عن الله).

والثنائية غير الإثنينية، ففى **الثنائية** ثمة عنصران يتفاعلان ويتدافعان وربما يتكاملان. أما فى **الإثنينية** فهناك عنصران متضادان متعادلان (مثل إله الخير والنور وإله الشر والظلام فى بعض العبادات الوثنية) ولذا يدخلان فى صراع دائم.

والثنائية تقف على طرف النقيض من «الواحدية المادية» التى يؤمن بها الفكر المادى والتى تذهب إلى أن الوجود بأسره (الإنسان والطبيعة) جوهر مادى واحد.

وبدلًا من مفهوم (**الإنسان الطبيعى**) الذى يتحدث عنه الماديون، والذى تنطبق عليه نفس القوانين التى تنطبق على الطبيعة / المادة، أطرح مفهوم **الإنسان الإنسان (أو الإنسان الربانى)**، كائن لا يعلمه فى كُلِّيَّتِه إلا الله، إذ إن هناك جزءًا منه قادر على التسامى وتجاوز عالم المادة. وهو كائن يعيش داخل (**جسده**) المادى، ويتحرك حسب القوانين والدوافع الفيزيائية والبيولوجية والغريزية، ولكن (**روحه**) تتجاوز عالم المادة إلى عالم المُثل العليا والغيب، كائن أقدامه مغروسة فى الوحل وعيونه شاخصة للنجوم، كثيرًا ما يسقط ولكنه قادر دائمًا على النهوض ثم التجاوز والتسامى.

ووجود الله ﷻ هو الضمان الوحيد لوجود هذا الإنسان بجزأيه المادى وغير المادى، فالله هو الجوهر الذى يتطلع إليه الإنسان حتى ينطلق من طينته. ومن ثَم، بغياب الله يتحول الإنسان إلى مادة طبيعية صماء، خاضعة لقوانين المادة، التى يمكن حصرها ودراستها والتحكم فيها، كما يتحول إلى كم مادى يمكن تفسيره فى إطار مجموعة من المعادلات الرياضية الميتة التى يمكن معرفتها والتنبؤ بنتائجها (إذا تعرضتَ لموقف كذا، سيكون سلوكك كذا).

وأضاف د. المسيرى؛ لذلك أنظر إلى «**المكوّن الدينى للإنسان**» ليس باعتباره مجرد قشرة، وإنما هو من جذور الكيان والهوية، وأرى أن **الدين ذو فعالية فى الواقع المادى الذى نحياه** وليس جزءًا مغلقًا من عالم الغيب. وهكذا تتسع الهُوَّة التى تفصل «الإنسان الربانى» عن التصور المادى البسيط، ويتأكد دور عالم الروح فى تفسير ظاهرة الإنسان، أى **أن الدين فى تصورى جزء من الكيان الإنسانى وليس منفصلًا عنه**.

الحضارة المادية إفراز للفكر المادى

أحسست بالنشوة عندما طرح عَلَىَّ د. المسيرى نظرته للإنسان وخالقه، وللدين الذى يمثل العلاقة بينهما. عند ذلك قلت له: آن الأوان لتقدم لى الحضارة الحديثة من وجهة نظرك، فقال:

الحضارة الحديثة ـ فى تصورى ـ هى **حضارة عقلانية مادية** (لا عقلانية وحسب). **فإنجازاتها الضخمة** (التكنولوجيا ـ العلم ـ السيطرة على العالم) هى نتاج رؤيتها المادية التى تطلبت استبعاد الكثير من العناصر الأخلاقية والإنسانية (العناصر غير المادية)، وذلك لتبسيط الواقع بهدف التحكم فيه (إذ لا يمكن التحكم إلا فيما هو بسيط).

أما **إخفاقات الحضارة المادية الحديثة** فلا تقل ضخامة عن إنجازاتها، ومن أهم تلك الإخفاقات: الأزمة البيئية ـ الحروب العالمية ـ فقدان الاتجاه (أى أن لا يعرف الإنسان أين هو ذاهب) ـ ظهور العبثية (أى أن يتصور الإنسان أن العالم لا معنى له وأن الصدفة العمياء تتحكم فيه) ـ تحول الوسائل إلى غايات...، وهـذه الإخفاقـات ـ مثل الإنجازات ـ **من نتاج الرؤية المادية** للحضارة الحديثة.

وتمثل الحضارة الحديثة «**بناءً ماديًّا**» **ذى مستويين**:

مستوى فلسفى (الأفكار المادية، التى هى نتاج العقل المادى).

ومستوى تطبيقى عملى، وهو المتمثل فى مظاهر الحضارة الحديثة، بإيجابياتها وسلبياتها.

والعقل المادى (الذى أنشأ هذه الحضارة) عقل محايد، لا علاقة له بالأخلاق أو بالأسئلة الكلية (الخاصة بمنشأ الإنسان ومآله، والغرض من وجوده فى الكون)، أو بالمقدس أو بما يتجاوز عالم الحواس الخمس المباشر. ويتعامل العقل المادى مع ما يصله من معلومات ومعطيات ولا يمكنه أن يتجاوزها. ولذا فهو يفرز ما يمكن تسميته «**منطق الأمر الواقع**» أو «**أخلاق الصيرورة**» أى أنه لا يعترف بوجود قيم أخلاقية أو إنسانية ثابتة مستقرة، ويرى أن كل شىء ـ بما فى ذلك تلك القيم ـ فى حالة تغير وتحول دائمين، ولذا يفرض على الإنسان أن يستمد قيمه من واقعه المتغير الذى يصير إليه.

والعقل المادى **لا يهتم بالسمات الخاصة للظواهر أو بخصوصيات كل إنسان فرد**، فهو **يركز على الجوانب العامة**، ويمكن تشبيهه بأشعة إكس، التى يمكنها أن تعطينا صورة للهيكل العظمى للإنسان ولكن لا يمكنها أن تنقل لنا صورة الوجه الإنسانى فى أحزانه وأفراحه. وفى نفس الوقت قد **يهتم هذا العقل بالتفاصيل بشكل مبالغ فيه!** لذلك يمكن تشبيهه بالميكروسكوب الذى يُظهِر أدق تفاصيل الخلية دون أن ينقل لنا الصورة الكلية لهذه الخلية.

ولما كان **التاريخ** بنية غير مادية، تتسم بالتركيب والإبهام، فلا يمكن للعقل المادى أن يتعامل معه بكفاءة، خاصة وأن التاريخ من صنع الإنسان ذى الجانبين (المادى والروحانى). لذلك فالعقل المادى **يقدس الأمر الواقع على حساب الحق التاريخى** (أدركت من خلال معرفتى بالدكتور المسيرى أنه يشير بذلك إلى الصراع العربى الإسرائيلى).

ثم أضاف د. المسيرى، نخلص من هذا إلى أن مهمة العقل المادى هى اختزال كل شىء ـ بما فى ذلك الإنسان ـ فى جانبه المادى فقط، بهدف الاستفادة منه. لذلك فهو **يقوم بهدم الإنسان وتفكيكه إلى عناصر مادية أولية**. لذلك يرى الفكر المادى أن العقل يفكر كما تهضم المعدة الطعام وكما تفرز الكبد الصفراء. وهذه الرؤية العقلانية المادية للإنسان ترده إلى طينته وتنزع عنه القداسة وتفقده مركزيته فى الكون.

ولعل «**هوبز**»[1] هو أول مفكر ساير المفاهيم المظلمة للعقلانية المادية، حين أعلن أن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان، وأن التعامل الاجتماعى بين البشر لا يتم بسبب فطرة خَيِّرَةَ فيهم،

(١) Thomas Hobbes: (١٥٨٨ - ١٦٧٩)، من كبار الفلاسفة السياسيين البريطانيين.

وإنما من فرط خوفهم، بدافع غريزة حب البقاء. وقد اتفق معه «**ماكيافللى**»[١] حين أعلن أن الوسائل كلها مبرَرَة من أجل تحقيق السلطان السياسى.

أما «**إسبينوزا**»[٢] و«**نيوتن**»[٣] فقد قدما عالمًا آليًّا تمامًا، لا تُستثنى الذات الإنسانية من قوانينه المادية. وأكد هذا المعنى الفلكى «**لابلاس**»[٤] حين قال لنابليون: إن تصوره لبنية الكون لا يحتاج لافتراض وجود إله.

وأَكَّدَ «**جون لوك**»[٥] أن العقل صفحة بيضاء تتراكم عليها المعطيات المادية، وأن ليس هناك دور لفطرة خَيِّرَة توجهه. وبين **الماركيز** «**دى صاد**»[٦] و«**فرويد**»[٧] أن الإنسان يحوى الذئب داخله (دوافع) وخارجه (سلوك)، وأن ذاته المتحضرة ما هى إلا قشرة واهية تخبئ ظلمة تعوى داخل الإنسان ومِن حوله. ويرى «**داروين**»[٨] ضرورة الصراع من أجل البقاء، وأن البقاء للأقوى. وقد أعلن «**نيتشه**»[٩] أن ما تفرضه الذات الإنسانية من مُثُل وهمية هى إحدى الحيل التى يحاول بها الضعفاء أن يخنقوا حقوق الأقوياء.

ويرى «**ماركس**»[١٠] أن الذات الإنسانية المستقلة وهْم ما بعده وهم، فوراء المُثل والقيم يوجد الصراع الطبقى ووسائل الإنتاج. ويصل هذا الاتجاه إلى قمته فى **فكر ما بعد الحداثة**[١١]، **الذى يُعتبر دريدا**[١٢] **أشهر فلاسفته**، فلا وجود فيه لذات إنسانية تميز الإنسان بما تحمله من قيم ومُثل عما حوله من الماديات، كما لا توجد فيه غاية عُليا للوجود الإنسانى.

(١) Niccolo Machiavelli: (١٤٦٩ - ١٥٢٧)، فيلسوف إيطالى، اشتهر عنه قوله بأن الغاية تبرر الوسيلة.
(٢) Baruch Spinoza: (١٦٣٢ - ١٦٧٧)، الفيلسوف الألمانى اليهودى، من الدعاة لمفهوم وحدة الوجود.
(٣) Isaac Newton: (١٦٤٢ - ١٧٢٧) عالم الفيزياء البريطانى الأشهر، صاحب قوانين الحركة والجاذبية.
(٤) Marquis de leplace: (١٨٢٧ - ١٧٤٩) عالم فلك ورياضيات فرنسى.
(٥) John locke: (١٦٣٢ - ١٧٠٤) فيلسوف السياسة الإنجليزى.
(٦) Marquis de sade: (١٧٤٠ - ١٨١٤) النبيل والفيلسوف والكاتب الفرنسى.
(٧) Sigmund Freud: (١٨٥٦ - ١٩٣٩) طبيب الأمراض العصبية النمساوى، مؤسس علم التحليل النفسى.
(٨) Charles Darwin: (١٨٠٩ - ١٨٨٢)، عالم البيولوجيا البريطانى الأشهر، صاحب نظرية التطور.
(٩) Friedrich Nietzsche: (١٨٤٤ - ١٩٠٠)، فيلسوف الإلحاد الألمانى الأشهر، الذى بَشَّرَ بالإنسان الأعلى (السوبر مان).
(١٠) Karl Marx: (١٨١٨ - ١٨٨٣)، الفيلسوف الاجتماعى الألمانى الشهير، أشهر آثاره كتاب «رأس المال».
(١١) يشرح لنا د. المسيرى معنى «فكر ما بعد الحداثة» فى جزء قادم من حواره.
(١٢) دريدا: Jacques Derrida (١٩٣٠ - ٢٠٠٤م): الفيلسوف الفرنسى اليهودى، وُلد فى الجزائر. اشتهر بمذهبه فى الفلسفة التحليلية الذى يُعرف باسم الفلسفة التفكيكية Deconstruction، التى لا تعترف إلا بالأصول المادية للأشياء والظواهر، وتتنكر لكل ما هو غيبى. له أكثر من أربعين كتابًا.

أصابنى هذا الطرح الرائع شديد الإيجاز للنظرة اللاإنسانية للفكر المادى بالدوار، ثم استجمعت نفسى وقلت للدكتور المسيرى، هذا بالنسبة **للمستوى الفلسفى** فى البناء المادى للحضارة المعاصرة، فكيف انعكست هذه النظرة على بنية المجتمعات المادية، أى على **المستوى التطبيقى العملى**؟ فأجابنى:

يمكن اعتبار أن القرن التاسع عشر قد شهد **انتقالًا تدريجيًّا من الرؤية الآلية للإنسان** إلى **الرؤية العضوية**. فإذا كان «**نيوتن**» قد جعل من الكون ساعة والإله هو صانع الساعات الماهر (الرؤية الآلية)، فإن عالَم «**داروين**»العضوى يختفى منه «الإله» تمامًا؛ فأصول الإنسان تعود لأسلاف القردة العليا ومن قبلها الزواحف. ثم يؤكد «**فرويد**» أن غابة القِرَدة تقع داخل الإنسان على شكل «لا وعى» مظلم وغرائز متفجرة. وقد أجرى العالم الروسى «**بافلوف**»[1] تجاربه على الكلاب ثم طبق نتائجها على الإنسان، فقد كان يفترض أنه لا توجد فروق جوهرية بين كليهما. وأخيرًا يأتى «**فوكوياما**»[2] (فليسوف ما بعد الحداثة) ليزيد الطينة بِله، إذ يقارن الإنسانية ببعض الأشكال التى خُطت على الرمال، ثم تمحوها الأمواجّ! أى أننا **أصبحنا لا شىء**.

تفكيك الإنسان ثم إعادة تركيبه

الترشيد البرانى والترشيد الجوانى:

واستطرد د. المسيرى قائلًا: وهكذا تم **تفكيك الإنسان تمامًا** (رده إلى ماديته)، ثم أُعيد **تركيبه** كمنتج ومستهلك خالى من المنظور الإنسانى، وكان ذلك بإسباغ الرؤية الآلية عليه تارة ثم الرؤية العضوية تارة أخرى، وأخيرًا تحقق منظور ما بعد الحداثة فى أن الإنسان لن يعبد شيئًا، وأنه سينزع القداسة عن كل شىء، حتى عن نفسه.

إن العمود الفقرى لقوة الولايات المتحدة (قمة المجتمعات المادية)يكمن فى أنها قد نجحت فى ضبط سلوك مواطنيها وتوجيههم نحو هدف نهائى واحد: **الاستمتاع والإنتاج والاستهلاك**، وتم ذلك من خلال آليتين تكفلان الانضباط الكامل:

الترشيد البرانى (الخارجى): وهو توجيه سلوك الإنسان نحو الاستمتاع والإنتاج والاستهلاك، وذلك من خلال **النظم والقوانين**.

(١) Ivan Pavlov: (١٨٤٩ - ١٩٣٦) عالم الفسيولوجيا الروسى الأشهر، مُنح جائزة نوبل فى الفسيولوجيا والطب العام ١٩٠٤.

(٢) فوكوياما Y.F.Fukuyama: أستاذ العلوم السياسية والاقتصاد السياسى، أمريكى الجنسية، ولد عام ١٩٥٢ - أشهر كتبه كتاب «نهاية التاريخ» الذى صدر عام ١٩٩٢.

الترشيد الجوانى (الداخلى): وهو جَعْل الاستمتاع والاستهلاك **غاية وحُلم**، يسعى الإنسان إلى تحقيقه.

فى الترشيد البرانى، يجتهد العقل المادى فى **إتقان توظيف الوسائل للوصول إلى الغايات المادية** دون النظر إلى صحة وعواقب هذه الغايات. ألم يفعل ذلك المجتمعان النازى والصهيونى؟! مجتمعان يستخدمان العلم والتكنولوجيا بكفاءة غير عادية فى البطش والقتل للوصول إلى ما لا حق لهم فيه.

ولعل الولايات المتحدة هى البلد الذى تم فيه ترشيد جميع جوانب الحياة. فالإعلام ينجح تمامًا فى **عزل الإنسان الأمريكى عن الأحداث العالمية**، لا أنسى يوم السادس من يونية سنة ١٩٦٧ حين نشرت الصحيفة المحلية خبر اندلاع الحرب فى ثلاثة سطور فى الصفحة الثالثة. وفى أثناء انتخابات الرئاسة (عام ٢٠٠٠) لم أسمع تصريحًا واحدًا عن السياسة الخارجية؛ لأن القضية الأساسية التى شغلت الرأى العام الأمريكى آنذاك هى شخصية المُرَشَّح آل جور، وهل قبَّل زوجته فى شفتيها أمام مؤتمر الحزب الديمقراطى بحرارة زائدة أم حرارة معقولة، وحين كانوا يتطرقون للسياسة كانوا يتحدثون فقط عن تكاليف الرعاية الطبية والضرائب. وينتج عن هذا كله **تبسيط الوجدان السياسى للإنسان الأمريكى وإلغاء قدراته النقدية**، بحيث يمكن للسلطة الحاكمة أن **تملى عليه ما تريد من أفكار يعتنقها بتلقائية وحرية كاملتين!** (الترشيد الخارجى آلية تُيَسِّر الترشيد الداخلى).

ومن أهم **وسائل الترشيد البرانى** عدم تقديم أية ضمانات للعاملين أن يستمروا فى وظائفهم، **فيعيشون فى قلق دائم**، الأمر الذى يزيد من إنتاجيتهم (فالإنسان السعيد المتزن مع نفسه تقل إنتاجيته بعض الشىء، إذ يتبنى أهدافًا إنسانية فى الحياة). وحينما تقرر الشركة تحسين صورتها الإعلامية يقوم أحد المحاسبين بتحديد الميزانية المطلوبة (تبرع لمتحف ـ لمرضى السرطان ـ لمكتبة) ولكن عليه أيضًا أن يحسب الأرباح التى تحققها الشركة من جَرّاء ذلك ومن الإعفاءات الضريبية... إلخ.

ويُعتبر **التليفون المحمول** (رمز الوجاهة وأداة الثرثرة فى بلدنا)، أحد أهم آليات الترشيد، إذ يُمَكِّن المؤسسات الأمريكية من أن تصل إلى كل العاملين فى أى زمان ومكان، مما يعنى مزيدًا من تآكل رقعة الحياة الخاصة لحساب الإنجاز المادى.

وإذا نظرنا إلى **صناعة تصميم الأزياء** تجد أنها تقوم بضبط سلوك المرأة (ترشيده)، إذ تضع لها الخطوط الأساسية التى تتحرك داخلها (الفستان الطويل الأخضر هو الموضة هذا العام، أما

العام الذى يليه فإنه إما يكون كذا أو كذا، «ودوخينى يا لمونة»!) وبذلك يمكن التنبؤ بسلوك المرأة واستيعاب أحلامها داخل خطوط الإنتاج.

وفى الترشيد الجوانى، يصبح الاستمتاع والاستهلاك هما حلم الإنسان الذى يوجِّه ـ من داخله ـ كل جوانب حياته. وبالإضافة إلى هذا الحلم، فإن للترشيد الجوانى جانبًا آخر؛ فالولايات المتحدة تضم شعوبًا ذات أصول عِرْقية ودينية مختلفة، لأفرادها ولاءات متعددة وأحلامٌ مختلفة: فردية وعائلية وقومية ودينية. كل هذا يجعل عملية ضبط مثل هذه المجتمعات مهمة صعبة، ويتطلب هذا **صهرهم فى بوتقة واحدة** عن طريق جمعهم حول أحلام محددة. وتلعب هوليود دورًا أساسيًّا فى عملية الترشيد هذه، فهى تعيد تشكيل صورة الإنسان وأحلامه.

إن «العولمة» هى الترشيد المادى على مستوى العالم، بحيث يصبح سوقًا ضخمة، ويصبح البشر فى كل الدول كائنات ذات بُعد مادى فقط (إنتاج واستهلاك).

ويمكن القول إن المفهوم الكامن وراء معظم الأيديولوجيات العلمانية الشاملة (النازية ـ الماركسية ـ الليبرالية ـ الصهيونية) هو ما يُسمَى بـ «**التطور أُحادى الخط**» **Unilinear**، أى الإيمان بأن **التقدم المادى للمجتمعات هو التطور الوحيد ذو البال**. وتتصاعد عمليات الترشيد المادى إلى أن يتحقق حلم **اليوتوبيا التكنولوجية**، حين تتم برمجة كل شىء، والتحكم فى كل شىء، وضمن ذلك الإنسان، ظاهره وباطنه.

والنتيجة، أن عملية إعادة تشكيل الإنسان وتصاعد معدلات الترشيد فى المجتمع أدت إلى **اختفاء التميز الفردى واختفاء القيم الثقافية والروحية والعقل النقدى**، حتى أصبح الإنسان كائنًا ذا بعد واحد يرتبط وجوده بالمتع والاستهلاك والسلع (**فهو إنسان مستمتع متسلع متشيئ**)، عقله ينشغل بالوصف والرصد وإدراك الآليات، **عاجز تمامًا عن إدراك الأغراض النهائية للوجود**. وفى النهاية تمت الهيمنة الكاملة على الإنسان حتى وُصِفَت الحضارة الحديثة بأنها «**القفص الحديدى**».

وحينما سُئل «فاكيلاف هافل» (رئيس جمهورية التشيك السابق) عن الأسباب التى أدت إلى هذا الوضع، أجاب قائلًا: «هذا الوضع له علاقة بأننا نعيش فى **أول حضارة ملحدة فى التاريخ البشرى**. فلم يعد الناس يحترمون ما يُدعى بالقيم الميتافيزيقية العليا، والتى تمثل شيئًا أعلى مرتبة من ماديتهم، شيئًا مفعمًا بالأسرار. هذه القيم الأساسية كانت تمثل دعامة للناس،

وأُفقًا لهم، ولكنها فُقدت الآن. وتكمن المفارقة فى أنه **حينما أعلنت الإنسانية أنها الحاكم الأعلى للعالم، فى هذه اللحظة نفسها، بدأ العالم يفقد بعده الإنسانى**».

ويضيف د. المسيرى... بعد أن تَأَكَّدَت هذه النظرة عن الحضارة المادية داخلى، **أصبحتُ أكثر قدرة على تفسير العديد من المواقف التى كانت تمر بى أثناء وجودى بالولايات المتحدة.** ثم سألنى؛ هل تريد أن أعطيك بعض الأمثلة؟ أجبته: بالطبع.

قال، كنت مرة أجلس مع ابنى، وهو بَعدُ طفل، نشاهد التليفزيون، وسمعنا من المذيع أن الغرب قد **راكم من الأسلحة النووية ما يكفى لتدمير العالم أكثر من مائة مرة**، ففوجئت بابنى يضحك ملء شدقيه ويخبرنى بشىء بديهى فاتنى، وهو أنه بعد تدمير العالم مرة واحدة، لن يمكن تدميره مرة ثانية، ساعتها ضحكت أنا الآخر، وتدعمت شكوكى بخصوص العقلانية العجيبة للعالم الغربى «المتقدم».

وفى حفلات الكوكتيل، كنت ألاحظ حرص العاملين على أن يثبتوا لرؤسائهم أن حياتهم العائلية مستقرة، وأنها لن تعيق مسيرة العمل والإنتاج، أى **أن الحياة الخاصة تُوَظَّف فى خدمة الحياة العامة**، ولذا كانت زوجات المرءوسين يحرصن على الحديث مع الرئيس أو زوجته ليبرهنَّ على أن كل شىء تمام التمام!.

وقد حدث العكس تمامًا حينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩، إذ دعوت أنا وزوجتى بعض عضوات هيئة التدريس فى كلية البنات وأزواجهن لطعام العشاء فى منزلنا، ففوجئت بأنهن جميعًا تقريبًا حضرن مستقلات. وحينما تأملت الواقعة أدركت أن حياتهن الخاصة لها حرمتها وخصوصيتها وفرديتها، وأنه لا يجوز بأى حال جرها جرًّا للحياة العامة.

صار الإنسان براجماتيًّا

واسترسل د. المسيرى قائلًا: كنت أقابل الكثيرين من الأمريكيين الذين يغيرون ملبسهم ومأكلهم وسلوكهم حسب ما يمليه الإعلام والكتالوجات، فأدركت أن ما يسود فى الولايات المتحدة ليس الفردية وإنما البراجماتية. **والإنسان البراجماتى لا يكترث بالثوابت ولا يهتم بالقيم مثل الكرامة والشهامة، فهو إنسان مرن إلى أقصى حد، وعملى بشكل متطرف، يَقْبل أى شىء طالما أنه يحقق النجاح**، ولذا ينتهى به الأمر إلى **أن ذاته الجوانية تضمر**، ويأخذ فى التكيف مع

ما حوله، **ويستجيب بشكل مباشر لما يأتيه من إشارات ونداءات وإعلانات وبيانات سياسية،** فيعيد صياغة نفسه بسهولة وسرعة حسب آخر الصيحات.

لقد أصابت الإنسان الغربى «**عقدة عدم الثقة بالنفس**» فأخذ يستمد نظرته لنفسه من **الإعلام** الذى كان آخذًا فى التوحش والتغول. وإذا تأملنا ظاهرة «**موضة الملابس**» واجهنا **تناقضًا غريبًا،** فالشخص الذى يقرر أن يرتدى رداء حسب «آخر موضة» هو إنسان متمركز حول ذاته يود إظهارها وتحقيقها بكل قوة، ولكن المفارقة أنه حين يفعل ذلك يكون قد تخلى عن فرديته تمامًا لأن عليه أن ينفذ أوامر مصمم الأزياء بحذافيرها لأن «**الموضة كده السنة دى**»!

ويمكن وصف المجتمعات الغربية المتقدمة بأنها مجتمعات يسود فيها نوع من «**غياب الحرية فى إطار ديمقراطى سلس معقول!**» smooth reasonable democratic unfreedom كما يقول المفكر «هربرت ماركوز». أى أنها مجتمعات شمولية نجحت فى أن تجعل الجماهير تتبنى الرؤية السائدة فى المجتمع، وتسلك حسبها دون قمع بوليسى، بحيث يقتنع الإنسان أن الهدف من الحياة هو الاستمتاع وزيادة الإنتاج والاستهلاك.

وأعتقد أن هيمنة العقل المادى فى الغرب هى المسئولة عن الكُرْه العميق الذى يشعر به الكثيرون تجاه العرب، وعن عدم فهم قضية حق العودة للفلسطينيين وأهمية القدس. **فاللاجئون الفلسطينيون** يعيشون فى وضع مادى مزرٍ ومع هذا يرفض غالبيتهم التعويضات السخية التى يمكن أن تُدفع لهم، وهم لا يزالون يتذكرون بيوتهم فى حيفا ويافا ويحتفظون بمفاتيحها، وهم مستمرون فى مقاومة العدو عبر ما يزيد على مائة عام، ويصرون على أن مدينة القدس هى عاصمة دولتهم. كل هذا، من منظور العقلانية المادية، يبدو أمرًا متخلفًا لا عقلانيًّا يثير الغيظ والحنق، إذ **كيف يمكن لهؤلاء الفقراء أن يتمسكوا بتراثهم ومقدساتهم رغم كل الإغراءات المادية؟ إنهم غير واقعيين، ما الذى حدث لعقولهم؟!**

تلاشَىَ دور الأسرة

قلت للدكتور المسيرى، ألم يكن للأسرة دور فى حماية الإنسان من هذا المسخ والتشويه؟

أجابنى: لقد كانت معظم المجتمعات الإنسانية فى الماضى تحاول «**إدخال الطمأنينة**» على قلب الإنسان، بحيث يحتفظ بتوازنه مع نفسه ومع الطبيعة. ولعل **الأسرة هى أهم المؤسسات**

التى طورها الإنسان لتقوم بتلك المهمة. أما المجتمعات الحديثة (خصوصًا المجتمع الأمريكى) فقد جعلت **الإنتاجية والحركية** هدفها. ويبدو أن الفرد المطمئن المتوازن مع نفسه يقف على طرف النقيض من الفرد المنتج الحركى! فالقلق، يولد نزعة إمبريالية فى الإنسان تجعله يود غزو العالم والهيمنة عليه ليثبت لنفسه تفوقه من أجل أن يحقق شيئًا من الاتزان والطمأنينة.

إن **المجتمع الأمريكى هو مجتمع القلق**، يتحدث عن الاعتماد على النفس ويقذف بأطفاله فى سوق العمالة فى مرحلة مبكرة للغاية، مما يتعارض مع حقوق الإنسان. وفى سن الثامنة عشرة لا بد من أن يترك الفرد أسرته ليعيش بمفرده وليكمل تعليمه. لقد جعل **التآكل الكامل للأسرة** الفرد يعيش منعزلًا ولا يشعر بأى اطمئنان، بل يُترك وحيدًا أمام آلاف الاختيارات والإعلانات، حتى يلتهمه الإعلام الكُفء التهامًا. لقد أصبح الفرد لا يجد أى جهة مرجعية، تكون موضع ثقته ومصدر شرعيته وتضفى معنى على وجوده وتساعده على اتخاذ القرار. **لقد «فقد الإنسان المرفأ فى عالم بلا قلب»** كما يقول عالم الاجتماع الأمريكى «كريستوفر لاش» فى وصفِه لتآكل نظام الأسرة.

قمت بعقد مقارنة، فوجدت **أن عالم الإنسان المصرى أكثر امتلاءً وأكثر صلابة من الإنسان الأمريكى**، فهو قادر على الحب وعلى الكُره، وعلى التعاون وعلى التآمر، وعلى أن يسترجع ذكرياته وأن يتحمس لوطنه وذاته. وهو لا يصدق كل ما يُقال له بسرعة، بل تجده يستمع إلى الإذاعات الأجنبية ليتحقق من صدق ما سمع فى إذاعة مصر. أما الإنسان الأمريكى، فهو مؤمن تمامًا بكل ما يُقال له، وما يُقال له هو كبسولات إعلامية تزيده تبعية خارجية وهشاشة داخلية.

فقدان المرجعية

سألت د. المسيرى، أليس لكل إنسان فى كل حضارة مرجعيته التى ينطلق منها وتعينه على تحديد الصواب والخطأ، **فما هى مرجعية إنسان الحضارة المادية الحديثة التى يمكن أن توجهه** بعد أن فقد مرجعية الأسرة؟

ابتسم د. المسيرى وقال: من أهم سلبيات الحضارة المادية الحديثة «**النسبية المعرفية والأخلاقية**»، التى كان المتوقع أن «تحرر الإنسان» وتفسح له المجال لتأكيد فرديته. لقد أدت هذه النسبية إلى العكس، **فنزعت القداسة عن العالم (الإنسان والطبيعة)، وجعلت كل الأمور**

متساوية، فصار الظلم مثل العدل، والثورة ضد الظلم لا تختلف عن الاستسلام له. وأصبح من العسير للغاية، بل من المستحيل، على الإنسان الفرد أن يتخذ أية قرارات بشأن أى شىء، وأصبح من السهل اتخاذ القرارات بالنيابة عنه والهيمنة عليه سياسيًّا. **لقد قوضت النسبية الإنسان من الداخل وجعلت منه شخصية هشة غير قادرة على اتخاذ أى قرار**، وإن كانت فى الوقت ذاته قادرة على **إقناعه بأى شىء، وكل شىء**.

وبدلًا من أن تجعل النسبية من الإنسان شخصية ثورية تفعل ما تريد، **جعلته شخصية رجعية متكيفة مع الأعم والأغلب** الذى تحدده صفوة من **الشخصيات النيتشوية**[1] القوية المسيطرة من الاقتصاديين والسياسيين والمثقفين؛ لذلك فإن تآكل المعايير الأخلاقية والاجتماعية السائدة فى المجتمعات **تركت الإنسان بلا معيارية (أى بلا مقاييس يُحتكم إليها)**.

مـواقــف

ويمكن تشبيه **ما حدث للإنسان الغربى الحديث فى عالم النسبية** بما حدث لى حينما **ذهبت لسوبر ماركت** حجمه فى حجم مدينة دمنهور، لشراء مستلزمات المنزل. لقد كانت قائمة المشتريات تحوى نوعًا معينًا من الحبوب Cereal، ففوجئت بأن منه عدة أنواع: مَحْلى بعسل النحل أو مضاف له فيتامين أو...، وهذه مقسمة بدورها إلى صنف عادى، وصنف متميز محبب للأطفال، وهذا الأخير ينقسم إلى عدة أشكال: حروف أبجدية أو على شكل ديناصورات ... أمام هذه الاختيارات الكثيرة، وقعت فى حيرة شديدة، ووجدت نفسى مضطرًا إما للاستماع لصوت يصدر من داخلى (هو عادةً صوت آخر إعلان سمعته) أو أختار أى شىء بشكل عشوائى أو أهاتف زوجتى لتصدر لى الأوامر وتعفينى من مسئولية الاختيار.

وقد بيَّن الطب النفسى أن **كثرة الاختيارات المتاحة قد تؤدى إلى مشكلات نفسية**. فحينما يواجَه الإنسان بمثل هذا الموقف، عليه أن يحدد بدقة ما يريد وأن يختار بين سلع الفرق بينها طفيف، وهذا يتطلب جهدًا نفسيًّا كبيرًا، يشكل ضغطًا حقيقيًّا على الإنسان لا قِبَل لكثير من البشر به.

ومن المواقف الكوميدية التى تبين **مدى فقدان المرجعية تقويض النسبيةُ للإنسان الغربى قصتى مع «ميس إيزو» Eizo**. كنا نتجاذب أطراف الحديث عن أشكال القهر فى العالم، فقالت الآنسة إيزو إنها تشعر بالاضطهاد لأنها لا يمكن أن تصبح بابا Pope (أى رئيسًا) للكنيسة

(١) نسبة إلى الفيلسوف الألمانى نيتشه، الذى كان يحلم بالإنسان القوى القاهر (السوبر مان).

الكاثوليكية فى الفاتيكان لأنها أنثى، فقلت (مازحًا بطبيعة الحال) أنا الآخر أشعر بنفس الإحساس بالاضطهاد لأننى لا يمكن أن أُعيَّن بابا للكنيسة الكاثوليكية لأننى مسلم. وبدلًا من أن يضحك الحاضرون التزموا الصمت، وإذا بالآنسة إيزو تُعبِّر عن تعاطفها معى! ولم أدر ماذا أفعل! ولحسن حظى، تَرَكَت الآنسة إيزو المكان، فتشجع بعض الحاضرين وتساءلوا: «ألم تتجاوز الآنسة إيزو حدها قليلًا؟» أى أنهم حتى أمام موقف فى غاية الوضوح والتطرف، لا يتحمل أى إبهام، لم تواتهم الشجاعة الكافية ليعبِّروا عن رأيهم.

وكنت مرة أجلس أمام **التليفزيون البريطانى**، وشاهدت برنامجًا حواريًّا. كان يجلس على المنصة رجل وزوجته وأطفالهما، مع إضافة بسيطة للغاية وهو **عشيق الرجل!** (نعم عشيقه لا عشيقته) الذى يعيش معهم تحت سقف نفس المنزل، بموافقة الزوجة والأطفال. وقد واجه الجمهور إشكالية حقيقية، فمن ناحية توجد الموافقة (وهى الشرط الأساسى والوحيد لأى علاقة جنسية فى العالم الغربى)، ومن ناحية أخرى، يوجد الشذوذ الذى يَسِم هذا الوضع! ولكن **لا توجد أرضية (دينية أو أخلاقية أو إنسانية) يؤمن بها الجميع ويمكن الاحتكام إليها.** وكلما كان أحد الحاضرين يحتج على شىء، كان الزوج يَرُد بكل ثقة، بأن زوجته وأولاده موافقون وسعداء، وأن أى تدخل فى شئونهم سيكون إهدارًا لحريتهم وحقهم فى الاختيار، وعلى المعترض أن يتحلى بسعة الأفق broad-mindedness (وغنى عن القول أن سعة الأفق هذه تفتح الباب على مصراعيه لتَقَبُّل كل شىء أو أى شىء، فليس هناك من يحب أن يوصف بأنه غليظ الطبع ضيق الأفق!). ظل النقاش دائرًا دون مَخرج، إلى أن اكتشف أحد الحاضرين أن الأطفال ليسوا فى سن يسمح لهم بالاختيار. وتنفس الجمهور الصُعَدَاء، إذ وجدوا أرضية فلسفية تعطيهم الحق فى الهجوم على الشذوذ دون الانتقاص من حرية الاختيار، فشنوا هجومهم بشجاعة بالغة، ولزم الرجل وعشيقه الصمت.

ويبدو أن القانون الأمريكى نفسه، بتقبله المفاهيم النسبية، يجعل **إصدار الأحكام أمرًا فى غاية الصعوبة**. أخبرتنى إحدى الزميلات أنها قررت أن تجلس على حِجْر صديقها، بينما كان يقود سيارته، فأوقفهما ضابط الشرطة، الذى تَبَرَّم من منظرهما، ولكن القانون لا يخول له أن يُجَرِّم مثل هذا الفعل، فسَجَّل مخالفة مرورية، على اعتبار أن زميلتى كانت تحجب الرؤية عن السائق!.

يا ويل الفطرة

ظهر عَلَىَّ الضيق الشديد، وسألت د. المسيرى: وهل تستقيم الحياة مع غياب الاحتكام إلى المفاهيم الإنسانية الفطرية؟ أجابنى: لقد أدى الغلو فى النسبية إلى أن **أصبح الكثير من المفاهيم**

الإنسانية الفطرية والأساسية، مثل الإحساس بالسعادة أو البؤس، محل تساؤل، بسبب اختفاء المعايير وفقدان المقدرة على الحكم.

ويجسد ذلك المعنى، مقالًا نشرته مجلة تايم بعنوان «**صحيح الجسم، وثرى، وغير سعيد**»، وَرَدَ فيه أن أكثر الأوروبيين ثراءً وتقدمًا هم الألمان، وهم كذلك أكثرهم بؤسًا وتشاؤمًا، وأن أكثرهم فقرًا الأيرلنديين والبرتغاليين، وهم أكثرهم رضًا. ويضيف المقال: أن **مقاييس التقدم الإنسانى التى اعتمدتها هيئة الأمم المتحدة غير كافية**؛ فقد اعتبرت الدخل والتعليم ومتوسط العمر المقاييس الأساسية: إنه حسب هذا المعيار، فإن أُمة غنية من المصابين بالأمراض النفسية، حصل كل أفرادها على شهادة الدكتوراه ومتوسط أعمارهم ٩٠ عامًا ستحصل على الدرجات النهائية؛ لأن المرض النفسى ليس جزءًا من المعايير. وانتهت المقالة بأن وصفت الإنسان الغربى بأنه «**خفاش يطير، ولكن بتوتر، ولا يعرف إلى أين**».

وإذا تأملنا **نمط حياة الإنسان فى هذه المجتمعات «الثرية البائسة»**، وجدنا: بيت يبعد عن محل عمله ـ علاقات أسرية مُفَتتة ـ علاقة واهية بمحيطه الإنسانى ـ إيقاع حياة رهيب لا يترك مجالًا لأى نشاط إنسانى ـ ساعات عمل قاسية ـ نسبة طلاق عالية ـ برامج تليفزيونية باهتة، كل هذا يؤدى إلى الإحساس القاسى بالوحدة. وللاستدلال على بنية البؤس العميقة التى تخبئها السعادة السطحية، تأمل عدد الساعات التى يقضيها المواطن الأمريكى مع المعالج النفسى، الذى أصبح جزءًا عاديًّا من الحياة اليومية فى الولايات المتحدة (٣٥٪ من شباب إحدى أكثر الدول تقدمًا بالمنظور المادى مصابون بأمراض نفسية). وكذلك لاحظ الاستخدام المذهل للحبوب المهدئة والمنومة وأدوية الاكتئاب النفسى وانتشار المخدرات. كل هذا من أجل أن يستعيد الإنسان الأمريكى بعض التوازن الذى فقده، فلا يمكن تخيل سعادة دون توازن. هذا فى مجتمع جعل تحقيق السعادة الأرضية هدفه الأساسى والوحيد ويُفترض أنه نجح فى تحقيق أهدافه.

ومما يجعل هذا البلاء غائبًا عن كثيرين ممن يعانونه، أن كلمات نحتاجها لوصف واقع هذه المجتمعات (**مثل «ضياع» و«اغتراب» «والطبيعة البشرية»**) غير متداولة وتقع خارج قاموس أنصار النسبية المطلقة، فهى كلمات وثيقة الصلة بعالم الروح والمعنويات!.

ثم أضاف د. المسيرى؛ وقد صاحَبَ انتشار النسبية المطلقة ما يُسمَّى **بالخطاب «السياسى الصحيح»** Politically correct، وهو خطاب متعجرف، يطالِب المرء **بألا يقول شيئًا قد يسىء**

لأحد أعضاء الأقليات. وكل البشر ـ حسب تصور هذا الخطاب ـ أعضاء أقليات: البدينون ـ طوال القامة ـ السود ـ اليهود ـ المُعَوَّقون... كما **يُعَدِد هذا الخطاب الأشياء الصحيحة والمواقف الواجب تبنيها**، ومن ضمنها: الاهتمام بالبيئة ـ الاهتمام بكل الأقليات ـ قبول الشذوذ الجنسى بحُسبانه شكلًا طبيعيًّا من أشكال التعبير عن الهوية. وبعض هذه الأفكار خيِّر ولا شك، ولكن البعض الآخر يعبر عن رؤية مغالية فى النسبية.

وقد انتشر هذا الخطاب السياسى الصحيح فى الجامعات الأمريكية، وأصبح شيئًا مخيفًا يهدد الجميع. فعلى سبيل المثال، قامت أستاذة علم اجتماع فى جامعة كاليفورنيا بتدريب طالباتها على الاستمناء (حتى يمكنهن الاستغناء تمامًا عن الرجال)، فاحتج أحد أولياء الأمور، فاتُّهِمَ بأنه ضيق الأُفق غير قادر على تقبل الجديد. فاضطر إلى اللجوء إلى القضاء، شاكيًا من أنه يُضَيِّع ماله بحسبانه من دافعى الضرائب، إذ لا يمكن لصاحبنا أن يشكو إلا على هذا الأساس. فالقانون الأمريكى قد فشل تمامًا فى تحديد موقف محدد من الإباحية أو العيب.

وهناك الجانب الكوميدى للخطاب السياسى الصحيح؛ فمثلًا يجب ألا يقول الإنسان المتحضر «رجل المرور» بل عليه أن يقول «الشخص المرورى» حتى لا تتضمن عبارته تمييزًا للذكور على حساب الإناث!

لقد أصبح هذا الخطاب السياسى (الموصوف بالصحيح) سيفًا على رقاب الجميع، تتم الدعوة إليه بطريقة متعصبة إرهابية.

غياب المرجعية يَعْدِى الفن

سألت د. المسيرى، وهل تنعكس هذه النسبية المطلقة على حياة الإنسان العامة والخاصة وفقط، أم أنها **تمتد إلى باقى نشاطات المجتمع**؟ أجابنى؛ لقد أَثَّرت النسبية فى كثير من مجالات الحياة، خصوصًا الفنون. فبدأت فى الستينيات من القرن العشرين «**عملية تحرير الفن**» من القيود والحدود الأخلاقية والجمالية، حتى أصبحت تحررًا من أى قيود أو معايير، كما تزايدت معدلات الإباحية والعنف، حتى أصبحت **تحررًا من الفن نفسه!**.

ففى منتصف الستينيات، كان **الفنان** «**آندى وورهول**» يُوَقِّع على علب القمامة وعلب الحساء القديمة فتتحول بقدرة قادر إلى أعمال فنية تُباع بآلاف الدولارات. وكان له فيلم يسمَّى «النوم»، يستمر عرضه لمدة ثلاث ساعات، عبارة عن شخص نائم يتحرك كل ربع ساعة أو

عشر دقائق. كما رأيت **مسرحية بعنوان «أخت فيديل كاسترو»**، وكانت مليئة بالإشارات الجنسية الطفولية مع عرض الأعضاء التناسلية، ولا تنقل المسرحية أية رسالة، فهدفها الأساسى هو أن تصدم الجمهور، ولسبب لا أعرفه، كان الذكور يلعبون دور الإناث، وكانت الإناث تلعبن دور الذكور، ويتم كل هذا باسم الإبداع والنسبية والحرية. وما حيرنى كثيرًا هو أن جمهور المتفرجين عبَّر عن إعجابه الشديد بهذه المسرحية، تمامًا مثلما عَبَّر عن إعجابه بفيلم «النوم».

ظل هذا التيار يتطور إلى أن عبَّر عن نفسه فى أواخر القرن العشرين فى **أعمال ثلاثة فنانين دفعوا بالنسبية إلى أقصى مداها، إذ أصبحت تعنى التحرر من الحدود الإنسانية ذاتها**. أول هؤلاء هو «آندريه سيرانو» وتعود شهرته إلى لوحة بعنوان «**فلتتبول على المسيح Piss Christ**»، حيث وضع الفنان صورة المسيح على الصليب فى البول. وثانيهم هو «روبرت مابلثورب»، وهو مصور فوتوغرافى تخصص فى **تصوير نفسه فى أوضاع جنسية شاذة تتسم بالعنف**. وثالثهم وأشهرهم هو «جويل بيتر ويتكين» وهو مصور فوتوغرافى **يستخدم أجساد الموتى فى أعماله الفنية**. ومن موضوعات ويتكين الأثيرة تصوير الموتى بعد أن يرتدوا بعض الملابس، وصورة رجل يضع مسمارًا فى قضيبه (فهذه هى الطريقة الوحيدة التى يتواصل بها مع الآخرين كما يخبرنا الفنان)، وتُباع النسخة من صوره بـ ٣٥ ألف دولار. وحياة ويتكين لا تقل وحشية (أو نسبية)، فهو يعيش مع زوجته وعشيقتها وينامون فى نفس الفراش، كما يعترف أنه يمارس الجنس أحيانًا مع موضوعاته، أى جثث الموتى!.

محاولة للإنقاذ

سألت د. المسيرى: **وكيف تأقلم المواطن فى هذه المجتمعات مع غياب المقاييس الحاكمة؟** أجابنى: لقد تم ذلك التأقلم عن طريق حيلة نفسية، وهى أن **يتبنى الإنسان أكثر من نموذج**. فعلى سبيل المثال يتغنى المجتمع الأمريكى بأغانٍ تدور فى معظمها حول الحب الرومانسى، ولكن هذا المجتمع نفسه لا يكف عن الحديث عن الصراع من أجل البقاء كقيمة أساسية. وعادةً ما **يتنازع الآباء اتجاهان متناقضان فى تنشئة أطفالهم**: هل يحافظون على براءة أطفالهم وبالتالى رومانسيتهم، أم يعلمونهم فنون الصراع من أجل البقاء فى عالم السوق والتعاقد؟ إن حافظوا على براءتهم أفقدوهم جزءًا كبيرًا من مقدرتهم على الصراع، وإن فعلوا العكس، أفقدوهم جزءًا كبيرًا من إنسانيتهم.

ويقوم الكثير من الأمريكيين (وكثير من البشر) **بتبنى نموذجين: أحدهما للحياة الخاصة**

والآخر للحياة العامة. ولذا قد تجد أستاذًا للفلسفة يدعو للإباحية فى فلسفته، ولكنه فى حياته الخاصة يتمسك بأهداب الفضيلة التى ليس لها أى أساس فى رؤيته الفلسفية. ومرة كنت أحاور واحدًا من هؤلاء، فقال: أنا أؤمن بالنسبية المعرفية ومع ذلك لا يمكن القول بأننى منحل أخلاقيًّا؟ فأجبته من غيظى قائلًا: «إذن ستذهب أنت إلى الجنة أما أفكارك فستذهب للجحيم».

حضارة حفرت قبرًا يكفى لدفن العالم

سألت د. المسيرى؛ وهل ما يصاحب الحضارة المادية من الظوهر السلبية السياسية، مثل **الإمبريالية والنازية والصهيونية والعنصرية**، هو جزء لصيق ببنية الحضارة الغربية الحديثة، أم أن ظروفًا معينة جمعت بينها؟. أجابنى د. المسيرى قائلًا: أبدأ إجابتى بكلمات **للمفكر الكبير روجيه جارودى**، حيث يقول: «إن نمو الغرب كان وليد **نهب ثروات العالم الثالث ونقلها إلى أوروبا وأمريكا الشمالية**، ومن ثم فإن الغرب هو الذى جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفًا، وقد حدث ذلك من خلال مراحل عدة: إبادة هنود أمريكا بدءً من القرن السادس عشر ـ نخاسية العبيد السود التى أصبحت ضرورية لتوفير اليد العاملة ـ السيطرة الاستعمارية على إفريقيا وعلى القسم الأكبر من آسيا لتأمين المواد الخام والاستثمارات ذات الريع الأعظم فى الصناعة وفى التجارة، وذلك عن طريق فرض السعر الأدنى لليد العاملة والأسعار الأعلى للمنتجات المستوردة فرضًا بالقوة...». وأخيرًا ظهر استغلال العالم الثالث على نحو جديد **بنشأة الشركات المتعددة الجنسيات وتوسعها**». وقد أوجز جارودى إنجاز الحضارة الإمبريالية الغربية فى صورة مجازية رائعة عندما وصفها بأنها «**حفرت قبرًا يكفى لدفن العالم**».

بالإضافة إلى كل هذا لا بد أن نشير إلى عمليات **نهب آثار إفريقيا وآسيا**، وأخيرًا متاحف العراق، ألا تلاحظ كيف تغص متاحف البلاد الغربية وميادينها بآثار تلك الحضارات.

لذلك أؤكد **أن «التقدم الغربى» هو ثمرة نهب العالم الثالث**، وأن الحداثة الغربية لا يمكن فصلها عن عملية النهب هذه، وأن نهضة الغرب تمت على حساب العالم بأسره. ومن ثم لا ينبغى أن نتحدث عن «**التراكم الرأسمالى**» كقوة وقفت وراء الحضارة الغربية وإنما عن «**التراكم الإمبريالى**».

ودائمًا أسأل الغربيين ـ خاصة الصهاينة ـ الذين يؤكدون أن تخلف الشرق هو أحد مبررات الاستعمار وليس نتيجة له: **هل لو تقدم الشرق سيفرح الغرب والصهاينة**، أم أن تقدم الشرق

سيصيبهم بالهم والغم؟ ألا يعنى تقدم الشرق انكماش رقعة السوق بالنسبة للغرب، وعمالة غير رخيصة، ومواد خام مرتفعة الثمن، ودولة صهيونية محاصَرَة لا تؤدى أى خدمة للغرب؟

الإمبريالية النفسية

سألت د. المسيرى: بعد أن زَوَّدَت المنظومة الإمبريالية مجتمعاتها بإنتاج مهول (كمًّا وكيفًا)، كيف استطاعت هذه المجتمعات تصريف الفائض من هذا الإنتاج؟ وهل للترويج لعملية الإنتاج / الاستهلاك تأثير على بنية الإنسان النفسية؟

أجابنى د. المسيرى: إن الرأسمالية قررت مؤخرًا **توسيع رقعة السوق لمنتاجاتها**، لا عن طريق الانتشار الأفقى فى الخارج بتكلفته العسكرية الباهظة (**الغزو الخارجى = الإمبريالية العسكرية**) وإنما عن طريق الانتشار الرأسى داخل النفس البشرية ذاتها (**الغزو الداخلى = الإمبريالية النفسية**). ويتم ذلك بأن تُلْقِى فى روع الفرد أن ما تعرضه فى السوق من السلع لا يحقق «منفعته» وحسب، بل و«سعادته» (أى لذته) أيضًا، فيتوحد الفرد بالسلعة تمامًا ويصبح إنسانًا ذا بُعد واحد، غارقًا لأذنيه فى السلعة والمادة، وفى حالة **غيبوبة إنسانية كاملة**.

وتتعامل الإمبريالية النفسية مع الإنسان على أنه **حيوان اقتصادى جسمانى، لا يبحث إلا عن منفعته (الاقتصادية) ولذته (الجسدية)**، فلا يهدف فى حياته إلا إلى تحقيق المنفعة واللذة، وأن يرى أن خلاصه يكمن فى ذلك. وإذا كانت «الحاجة أم الاختراع» فى الماضى، ففى إطار الإمبريالية النفسية يصبح «**الاختراع هو أبو الحاجة**»، لذلك لا بد أن تظهر سلعة جديدة كل يوم. ومن هنا يدخل الإنسان دائرة الإنتاج الآخذة فى الاتساع إلى ما لا نهاية.

وقد نجحت هذه الإمبريالية فى **تجنيد كل الطاقات فى مختلف وسائل الإعلام**، وخاصة **قطاع الأفلام**، الذى يُرَوِّج لصورة الإنسان الذى يعيش فى اللحظة الآنية، يساعده **قطاع الأزياء** الذى يُغيِّر «أذواق» الذكور والإناث والأطفال كل عام مرتين. ولعل أهم القطاعات الأخرى، **قطاع الإعلانات التجارية** التى لا يكف التليفزيون عن بثها.

وكلما نظرت من حولك فى الولايات المتحدة، وجدت **كلمة سيل sale «أوكازيون»** تطاردك أينما ذهبت، فى المحلات والشوارع والجرائد والمكتبات ومنزلك، تحاول أن تقنعك بأن أمامك فرصة ذهبية لأن «تخرب بيت» صاحب المحل المسكين، المضطر إلى تصفية بضاعته.

ويضيف د. المسيرى: حدث لى شخصيًّا **موقف مع شركات الطيران** أحب أن أرويه لك. كنت أرتاح كثيرًا للسفر بالدرجة السياحية، إلى أن رأيت إعلانًا لإحدى شركات الطيران يتحدث عن مدى اتساع كراسى الدرجة الأولى، ويُظهر صورة راكب ممدد على كرسيه الوثير، مقارنةً براكب الدرجة السياحية، الذى يتقلب من الألم فى كرسيه، ويلكزه جاره عن غير قصد. منذ تلك اللحظة أصبح السفر بالدرجة السياحية بالنسبة لى مسألة مؤلمة. هذا هو حالى أنا المدرك لما حولى، الواعى به تمام الوعى، فما بالك بالمواطن الأمريكى التلقائى الطيب؟.

ويرسم صديقى عالِم الاجتماع **كافين رايلى** صورة واقعية ومثيرة لهذه الهجمة الإمبريالية النفسية على الإنسان فى كتابه «**الغرب والعالم**»، تستحق أن أرويها لقرائك، يقول د. رايلى:

«أرادت **شركة الدخان الأمريكية** عام ١٩٢٩ زيادة مبيعاتها عن طريق حث النساء على الجهر بالتدخين، فقامت بناءً على **مشورة محلل نفسانى** بالإعداد لموكب فى عيد الفصح تسير فيه المدخنات فى أحد شوارع نيويورك، وأرسلت سكرتيرة بالشركة تلغرافات لثلاثين من الفتيات من عِلْية القوم فى المدينة، هذا نصها:

(من أجل المساواة بين الجنسين، قررتُ مع غيرى من الشابات أن نوقد مشعلًا آخر للحرية، بتدخين السجائر فى أثناء مسيرتنا بالشارع الخامس يوم عيد الفصح).

وقد أثار الحدث ضجة قومية فى أرجاء البلاد واستجابت النساء ودخَّنَّ جهارًا، وأدركت الشركة **أن العادات القديمة المتأصلة يمكن القضاء عليها عن طريق إصدار نداء مثير، تنشره شبكة من وسائل الإعلام**.

ولما كان المطلوب هو تدخين نوع معين من السجائر، وهو «**لكى سترايك Lucky Strike**» **ذات الغلاف الأخضر**، كان لا بد من **إشعال** «**الثورة الخضراء**»! فقام مشجع مجهول بإرسال مبلغ ٢٥٠٠٠ دولار لأهم منظم للحفلات الراقصة ليرتب **حفلًا أخضر**، وأقام أحد منتجى الحرير مأدبة لمحررى الموضة، كانت قائمة الطعام فيها خضراء وكل الطعام أخضر، وقام أحد **علماء النفس** فحدثهم عن اللون الأخضر. ثم حاضرهم **رئيس قسم الفن** بكلية هنتر عن «اللون الأخضر» فى «أعمال مشاهير الفنانين».

وبشرت الصحف «**بخريف أخضر**» و«**شتاء أخضر**» ليكون اللون الأخضر هو سيد الألوان، فى **الملابس** وفى **الإكسسوارات**، وحتى **ديكورات المنازل والأثاث**، وتم إغراء رئيس حفلة الموضة الخضراء **بالسفر إلى فرنسا** ليضمن تعاون صناعة الموضة الفرنسية والحكومة الفرنسية.

ولما اشتدت الحملة، ركب سائر المنتجين الموجة، فأعلن أحدهم عن **طلاء أظافر** جديد أخضر زمردى، وأدخل آخر **الجوارب الخضراء**. وأخيرًا **انضم المنافسون إلى الحملة**، فعرضت سجاير «كامل» Camel فتاة ترتدى زيًّا أخضر مقلمًا بالأحمر ـ وهى نفس ألوان علبة سجائر لكى سترايك. وهكذا اعترف المنافسون ذاتهم بأن لكى سترايك هى قمة الموضة.

إن قدرة العلاقات العامة والإعلان على التلاعب بالآراء والتأثير فى قرار الإنسان مع التظاهر بتوسيع فرصة الاختيار أمامه، هى قدرة هائلة (أى خداع وأى سرقة)»

ثم أضاف د. المسيرى؛ إن الإعلانات ـ كما نعلم كلنا ـ كذب فى كذب، ومع ذلك نتأثر بها ويتحدد سلوكنا من خلالها.

وضرب د. المسيرى مثلًا آخر لقدرة الإعلانات على الخداع: ماذا أفعل لو كنت فقيرًا، وقد مَلَكَت عَلَيّ السيارة التى فى الإعلان عقلى وقلبى؟ لا داعى للقلق، فصديقك ذو الابتسامة العريضة فى بنك نيويورك للقروض سيساعدك، وكل ما عليك أن تفعله هو أن توقع على ورقة بيضاء صغيرة فتحصل على مفتاح العربة والسعادة. وإن دققت النظر فى هذه الورقة اكتشفت أن **عليك أن ترهن منزلك وأولادك وزوجتك وذاتك وعِرضك وعربتك فى مقابل هذا**، كما أن سعر الفائدة ليس ٤٪ كما تقول اللافتة العريضة؛ لأنه بالحساب المركب تصل الفائدة إلى أضعاف أضعاف ذلك. فإن انتهيت من طوفان السيارات اكتسحك **طوفان السلع الأخرى**؛ معجون أسنان، صابون للأطباق، أنواع جذابة من المكرونة، والعطور والمياه الغازية، والملابس الداخلية والأحذية، والشيكولاته والمنشطات الحيوية والمهدئات، وأدوات التجميل والتخسيس والأهداب والنهود الصناعية....

بلاش عُقد

ويُلَخِّص د. المسيرى نظرته للإمبريالية النفسية قائلًا: إن الحضارة المعاصرة **هى حضارة السهل، بدلًا من المُرَكَّب والجميل**. وتحت شعار «**فلتكن بسيطًا**» **أو** «**لتكن طبيعيًّا**» (يقابلها فى حضارتنا الآن «**بلاش عُقد**») يتم إنتاج مجموعة من السلع البسيطة (مثل الهامبورجر والبنطلون الچينز) والترويج لها عالميًّا. وقد **أُطلق على هذا النمط الإنتاجى/ الاستهلاكى البسيط الذى أفرزته الإمبريالية النفسية اصطلاح «ضد الحضارة» anti-culture**، فهو يهدد كل الأشكال الحضارية وكل الخصوصيات، بما فى ذلك الحضارة والخصوصية الأمريكية التى أنتجته[1] وهذه السلع النمطية تحول الإنسان الفرد إلى **كائن نمطى بلا أبعاد، يفقد خصوصيته وتراثه، ويمكن توجيهه بسهولة كما يمكن التنبؤ بسلوكه واحتياجاته؛ ولذا فهى حضارة معادية للحضارة وللإنسان.**

(١) تعرف الحضارة الأمريكية تقاليد حضارية محلية ثرية، مختلفة تبعًا لاختلاف الهجرات: حضارة الكريول فى لويزيانا ـ حضارة الساحل الشرقى ـ حضارة الوسط الغربى الأمريكى... إلخ.

كل هذا الركام يمكن أن يزول لو توقف الإنسان للحظة واحدة ليتساءل عن جدوى كل هذا، ولكنه بالطبع لا يفعل؛ لأنه إنسان ناجح يتعامل مع الواقع (كما أخبره الإعلان)، فالإمبريالية النفسية قبل أن تغزو الإنسان من الخارج فإنها تغزوه وتقمع إنسانيته من الداخل.

ويتمثل **الغزو الداخلى والتحلل من العقد** فى مظاهر عديدة، أهمها الجنس. لذا نجد أن الإعلانات التليفزيونية ـ سواء فى الولايات المتحدة أو فى مصر ـ **توظف الجنس بلا حياء فى بيع السلع**. انظر إلى هذا الإعلان: تسير السيارة ثم تخرج منها فتاة رائعة الحسن وتطلب منك ألا تتردد فى شرائها: السيارة/ الفتاة، وقد أصبحت إعلانات بنتون وكالفين كلاين (فى ختام القرن العشرين) من أهم الرموز الجنسية فى المجتمع الأمريكى. ولو وجد أصحاب هذه الإعلانات أن بعض **أسفار الإنجيل** قد تساعدهم بشكل أكبر على البيع لما ترددوا فى التخلى عن توظيف الجنس ولوظفوا الإنجيل بدلًا من ذلك.

وقد نجم عن هذا انتشار الإباحية، وهى **إباحية علمية تستخدم الجنس فى توجيه الإنسان**. انظر مثلًا إلى كريم الشعر هذا، إن سحره لا يقاوم، إن استخدمته وقعت كل الفاتنات فى شباكك. وأنتِ يا سيدتى إذا شربت هذا الدواء، فإنك ستتمتعين بجاذبية جنسية كاسحة. وأنت أيها العجوز الكركوب لم لا ترتدى باروكة أو تصبغ شعرك أو تفرد جلدك أو تقصر بنطلونك أو تطوله، اختر ما تشاء من السلع وكله فى سبيل الحيوية والبعث من جديد، ولكنه **بعث جنسى** لا علاقة له بالحياة أو الحب أو الزواج أو الطلاق أوحتى إبليس، فهو **بعث جنسى يدور فى فراغ لا نهائى هدفه الاستهلاك**.

حضارة مهووسة بالجنس

قلت للدكتور المسيرى: حدثتنى عن الباعث الجنسى المقطوع الصلة بكل شىء إلا الاستهلاك، أود أن أعقد **مقارنة بين النظرة للجنس فى الغرب وفى بلادنا**. لقد كانت إحدى **الصور التقليدية الشائعة فى عقولنا** أن الجنس طاقة مادية، إن فُرِّغت يصبح الفرد عاديًّا وطبيعيًّا وسويًّا، أما إن كُبتت فإنها تصبح قوة مدمرة.لذا كان من المفهوم أن **ينشغل الشرقيون بالجنس**، فهم مكبوتون قُمعت رغباتهم الجنسية فى طفولتهم ومراهقتهم، مما أدَّى إلى تشوههم النفسى الكامل، وتحولوا إلى مراهقين أزليين. كما تعلمنا أيضًا أن الأمور مختلفة تمامًا فى الغرب، فهم **يتصرفون بشكل طبيعى ويُصَرِّفون الطاقة الجنسية بلا قمع ولا كبت. فهل معنى ذلك أن**

موقف تلك المجتمعات من الجنس ينسجم بشكل أكبر مع طبيعة الإنسان من موقف مجتمعاتنا المحافظة؟

أجابنى د. المسيرى: حينما وصلت إلى الولايات المتحدة وجدت أن هذا التصور البسيط الذى ذكرتَه والذى آمنتُ به أنا أيضًا **لا يُفَسِّر الأمور**، إذ لاحظت **إقبال الأمريكيين النهم وانشغالهم المتطرف (وأحيانًا المَرَضى) بالجنس**، إلى درجة انتشار حوادث الاغتصاب رغم أن مجال الإشباع الجنسى متاح أمامهم بشكل ديمقراطى مذهل (وهو ما أسميته فيما بعد «**ديمقراطية اللذة**»)، الأمر الذى كان يحيرنى كثيرًا فى بادئ الأمر.

وتساءَلت؛ كيف يمكن أن ننظر إلى هذا **الهَوَس الجنسى** بحُسبانه تعبيرًا طبيعيًّا عن رغبة جنسية طبيعية؟ بل إن بعض الناس هناك يُمارس رغباته الجنسية كإنسان مدمن، لا للخمر وإنما للجنس sexaholic (على وزن alcoholic)، **فيمارسه بشراهة ولكن دون متعة حقيقية**، ومن المعروف أن بعض مدمنى الجنس يودون التوقف ولكنهم لا يملكون من أمرهم شيئًا، شأنهم فى هذا شأن مدمن الخمر الذى يمقت ما يتعاطاه ولا يملك منه فكاكًا.

ولتفسيرهذا التناقض بدأت أتأمل وأتساءل: **لعل الارتواء الجنسى عند الإنسان مرتبط بعناصر مادية وأيضًا غير مادية** (بخلاف الحيوان)، ولعل هذه العناصر غير المادية ليست مجرد قشرة وإنما هى من صميم الإشباع الجنسى عند الإنسان. ولعل الجوع الذى أشاهده فى الولايات المتحدة، والذى ليس له أى تفسير مباشر، يعود إلى «رؤيتهم» المادية، فهم ينظرون للجنس كما لو كان شيئًا طبيعيًّا ماديًّا: مسألة غدد وعضلات وحسب، لا تختلف عن أى عملية بيولوجية أخرى مثل تناول الطعام.

ولعل تطبيعهم للجنس يفسر **رغبتهم العارمة فى ممارسته فى العلن**، بلا أى إحساس بالحرج أو الخصوصية أو الفردية، وأن يصبح الجنس جزءًا من الحياة العامة. وقد يُفسِّر هذا **إصرار الشواذ جنسيًّا على علنية ممارساتهم وضرورة تطبيعها وتقنينها**. وقد تُفسِّر هذه العلنية المرض الغريب الذى يُسَمَّى «**الخوف من الحميمية fear of intimacy**»، فحينما يعتاد البعض ممارسة الجنس فى إطار علنى غير رومانسى (كأن يضاجع رفيقته على عجل فى فندق بجوار محل عمله فى أثناء الساعة المخصصة للغذاء أو فى المقعد الخلفى للسيارة، أو فى حديقة) تصبح هذه الظروف الضاغطة شرطًا لأدائه الجنسى، ويفاجأ هذا الشخص بأنه غير قادر على الأداء داخل

المنزل مع زوجته تحت ظروف رومانسية مريحة؛ لأنه لا يستجيب جنسيًّا إلا تحت ظروف تدعو للسرعة والتوتر وفى رقعة الحياة العامة!.

إن **الصورة «المثالية»** التى تُعَبِّرُ عن نظرة الغرب للجنس هى **صورة چيمس بوند** حين يذهب ليقبض على إحدى الجميلات، فيكتشف أنه وصل قبل موعده فيقرر أن يضاجعها لقضاء وقت الفراغ، وفى أثناء ذلك ينظر إلى ساعته ويكتشف أن الوقت قد حان، فيأخذ الكلبشات من جيبه ويضعها على يديها ويرحل بها. إن الأفلام ووسائل الإعلام الأمريكية تصور الإنسان كما لو كان كائنًا جسمانيًّا، يعيش فى جسده (المادى) وحسب، تمامًا مثلما يصوره دعاة السوق الحرة إنسانًا اقتصاديًّا تحركه الدوافع الاقتصادية (المادية) وحسب.

نزع الإنسانية عن الجنس

إن كثيرًا من الأمريكيين لم يدركوا **أن الجنس مسألة إنسانية مركبة، مرتبطة برؤية الإنسان للكون وهويته الفردية**. وعدم إدراكهم لهذه الحقيقة هو أحد أسباب عدم الارتواء الجنسى، فهم يمارسون الجنس فى إطار مادى نتيجة لتبسيط الإنسان واختزال دوافعه، ويترك ذلك كيانهم الإنسانى بلا إشباع. ولعل بعضهم أدرك إنسانية الجنس على المستوى الفردى، ولكن **مؤسسات الإعلام التى تبحث عن الربح تُشيع صورة الجنس السهل المباشر**، الذى لا تسبقه مقدمات، ولا توجد بعده أى توابع: أطفال وعلاقات اجتماعية وتغير فى الرؤية.

لا شك أن هناك علاقة عكسية بين: إنسانية الإنسان، وبين رغبته الجنسية. **فكلما ضَمُر شعوره بإنسانيته زاد سُعاره الجنسى**، كمحاولة لتعويض الإنسان عن اختفاء عالم الأحلام، إذ **إن عالم الجنس هو البديل المادى والمباشر للمدينة الفاضلة**. إنه ميتافيزيقا من لا ميتافيزيقا له، أو ميتافيزيقا من لا يود أن يتحمل أى أعباء إنسانية أو أخلاقية.

وقد وجدت أيضًا أن عدم إحساس الإنسان الأمريكى بالطمأنينة يجعله يحاول دائمًا أن يصل إلى بعض اليقين، ويحاول أن يأتنس بالغير كى يتغلب على اغترابه، كما يحاول أن يحقق ذاته. ولكنه فى الوقت نفسه يخاف من الارتباط الدائم بالآخر، ففيه نوع من الثبات وهذا هو أخشى ما يخشاه، لذلك وجد ضالته فى الجنس العابر، **فمن خلاله يمكنه أن يصل إلى اليقين والائتناس المؤقتين** (فالعلاقة الجنسية علاقة أكيدة يمكنه أن يدركها بحواسه الخمس فتُدخل شيئًا من الطمأنينة على قلبه) **ولكنه لا يضطره فى الوقت نفسه للارتباط بالآخر**.

الهوس الجنسى ومؤسسة الأسرة

سألت الدكتور المسيرى؛ هل لهذه النظرة إلى الجنس تأثير على مؤسسة الأسرة؟ فأجابنى: إن المجتمعات المادية **تفصل الجنس عن مضمونه الاجتماعى والإنسانى المركب**، ليصبح ترجمة عملية لمبدأ السعادة واللذة. بذلك ينعزل الإنسان عن تراثه وماضيه، بل وعن وجوده الإنسانى المركب، فيعيش فى الجسد يبحث عن المتعة المباشرة التى لا علاقة لها بالخير أو بالشر. وبالنسبة لمثل هذا الإنسان المتمركز حول لذته **تصبح الأسرة أمرًا غير مهم بل تصبح عبئًا**. فكلما فتحت التليفزيون الأمريكى تجد امرأة نصف عارية تبيع لك شيئًا ما. وهذا يُصَعِّد من توقعات الرجل الأمريكى بالنسبة للجنس، فيطلب إلى زوجته أن تكون إحدى ملكات الإغراء، ويحاول هو جاهدًا أن يصبح أحد ملوك الإغراء، مما يسبب الإحباط وعدم الاطمئنان لكليهما. وتسهم شركات التجميل فى تصعيد هذا الجانب، فتزيد من توقعات الذكور الجنسية مما يضطر الإناث لاستهلاك المزيد من مستحضرات التجميل.

هذا إلى جانب **أن الباحث عن اللذة هو إنسان مكتف بذاته، لا يطيق أى حدود أو قيود أو مسئولية**، فهو يود تحقيق رغباته فى التو (الآن وهنا)، خاصةً وأن هذا الفرد يعيش فى مجتمع نفعى مادى، لا يعرف القيم التى تساعده على تجاوز ذاته الضيقة. وفى تصورى أنه لا يمكن الحد من إشباع الرغبات إلا من خلال الإيمان بمَثَل أعلى أو بحلم يتجاوز حدود الفرد وحيزه (كالوعد بالجنة أو الدفاع عن الوطن).

إن مثل هذا الفرد المكتفى بذاته لا يمكنه أن يقبل الانخراط فى مؤسسة الأسرة، فهى مؤسسة تُلقى على كاهله (كأب وكأم) مسئوليات اجتماعية شتى، ولذا **تضمُر مؤسسة الأسرة تمامًا**. ولهذا يزداد العزوف عن الزواج والنسل مع ازدياد الإحساس بأن الأسرة عبء لا يُطاق، وأن مسئولية تنشئة الأطفال تفوق طاقة البشر.

الهوس الجنسى والشذوذ

عدت أسأل د. المسيرى: وهل لهذه النظرة للجنس تأثير على شيوع الشذوذ فى الولايات المتحدة؟ فأجابنى: **لعل البحث عن اللذة الجنسية الخالصة هو الذى يفسر انتشار الشذوذ الجنسى فى المجتمعات الرأسمالية الغربية**. فتبعًا لإحصاء عام ١٩٧٢ يوجد فى الولايات المتحدة ما يزيد

على أربعة ملايين من الشواذ[1]، وتوجد كنائس يديرها وعاظ شاذون جنسيًّا مثل كنيسة لوس أنجلوس، كما أُنشىء معبد يهودى ومدرسة تلمودية لتخريج الشواذ.

وأعتقد أن **الشذوذ هو النتيجة المنطقية لمبدأ اللذة النفعى**، فالإنسان الشاذ يمكنه أن ينشىء علاقة مع شخص آخر من جنسه ليتغلب على اغترابه بشكل مؤقت دون أن يدخل فى علاقات ذات آثار اجتماعية تضطره للدخول فى علاقة حقيقية مع الآخرين (كالزواج).

وحينما كنت فى نيويورك لاحظت أن الشاذات من النساء أصبح لهن وجود وظهور ملحوظ، وهذا «التطور» أو «التقدم» يعود لـ**حركة تحرير المرأة** (التى أسميها **حركة التمركز حول الأنثى**) التى ينادى بعض زعمائها بأن المرأة الشاذة جنسيًّا والتى استغنت كلية عن الرجال هى أكثر النساء تحررًا، وهى المرأة التى حققت المساواة البيولوجية الكاملة مع الرجال، وحققت بذلك **الاكتفاء الذاتى!**.

ويبدو أنه مع الإغراق فى المادية أصبح الفرد غير قادر على الاستجابة التلقائية للدوافع الغريزية العادية، ولذا فهو يحتاج إلى مؤثرات عنيفة وأحيانًا شاذة حتى يمكنه الاستجابة. وقد يفسر هذا تصاعد معدلات العنف فى الحياة وفى الأفلام، كما يفسر أيضًا ارتباط الجنس بالعنف.

الثورة الجنسية

ونتيجة لهذه الإباحية الجنسية والشذوذ الجنسى ظهرت فى الستينيات فى الولايات المتحدة تغييرات جذرية أُطلق عليها «**الثورة الجنسية**».

وتُعَد مسرحية هير **Hair** أى «**شَعْر**» **الغنائية**، التى شاهدتها فى نيويورك فى منتصف الستينيات، علامة أساسية فى تاريخ الثورة الجنسية، فهى تحتفى بانتصار إله الجنس وهيمنته الكاملة على الإنسان، إذ **يصبح الجنس هو المحرك الأساسى للإنسان** فيفقد حريته ومقدرته على الاختيار.

وقد حاولت «**حركة الهيبى**»[2] أن تجعل الثورة على المجتمع وعلى إنسانيته ثورة جنسية،

(١) تبعًا لإحصائية William Institute، وصل عدد الشواذ فى الولايات المتحدة فى أبريل ٢٠١١ حوالى ١١,٧ مليون شخص.

(٢) ظهرت حركة الهيبى Hippie movement كحركة شبابية متمردة على الحضارة المعاصرة فى الولايات المتحدة فى ستينيات القرن العشرين. وتدعو للحياة فى جماعات بأسلوب بدائى يحافظ على الطبيعة، ويهتمون بالفنون خاصة الموسيقى، ويتعاطون المخدرات.

وذلك بأن تجعل التحرر الحقيقى تحررًا جنسيًّا كاملًا. ولكن المفارقة الكبرى هى أن تَحَقُّق هذه الرؤية يعنى أن الإنسان يصبح مسلوب الإرادة تسيطر عليه غرائزه.

ويُعتبر **مايكل جاكسون (الذى لا هو بالذكر ولا هو بالأنثى)**، ممثل النسبية الكاملة وعدم الانتماء لآى شىء، إنه التجسيد الحق للتفكيكية (رد الإنسان لماديته).

وبهذا نفهم الحديث المتكرر والممل عن **الجندر Gender، أى النوع، وليس الجنس Sex**، بحُسبان أن الفروق الجسدية والتشريحية بين الرجال والنساء ليست مهمة، وأن دور كل منهما (ذكر أو أنثى) ليس مسألة مرتبطة من قريب أو بعيد بالخصائص الجسدية، وإنما هى مسألة **اختيار شخصى**، فأنت تستطيع أن تتصرف فى المجتمع كذكر أو كأنثى تبعًا لاختيارك، بغض النظر عن جنسك. وهذه مفارقة تستحق التسجيل: **فى الحضارة التى يصل فيها الاهتمام بالجنس والتركيز على الأعضاء التناسلية حد الهوس، ثمة محاولة إلى تحييده تمامًا و «إلغائه»**.

ولعل تحرر الجنس من الإطار الاجتماعى وتحييده وتطبيعه يتضح فى ظهور «**أشكال بديلة من الأسرة**» (حاول مؤتمر السكان فى القاهرة إسباغ الشرعية عليها)، مثل أسرة تتكون من رجلين أو امرأتين ويحق لهما تبنى الأطفال بل «إنجابهما» عن طريق عمليات التلقيح الصناعى. ولعل هذه التطورات تدفع بعض المنادين بمثل هذه الحرية إلى **التريث قليلًا فى دعوتهم إلى الحرية**، بل عليهم أن ينظروا إلى العواقب اللاحقة التى بدأت تظهر فى مجتمعاتنا بالفعل (انظر إلى التليفزيون المصرى وإعلاناته الراقصة التى لا تنتهى، وتوظيف الجنس فى بيع كل شىء ابتداءً من كريمات الجلد وانتهاءً بالمبيدات الحشرية. وانظر إلى الفيديو كليبات ومحطاتها المليون التى تعمل ٤٨ ساعة كل يوم حتى يترسخ فى أذهان الجميع أن الجسد هو المرجعية النهائية، وأنه هو الذى يسبغ معنى على حياتنا!).

ويرى البعض أن «**قضية الإباحية**» قضية فكرية وبالتالى لا ينبغى إخضاعها لأى رقابة، فهى **إبداع فنى**. ويمكن قبول هذا المنطق لو أثبت لنا كاتب الأدب الإباحى وكذلك مخرجه السينمائى أنه يمارس فى حياته الخاصة فعليًّا ما يدعو إليه نظريًّا، لنتأكد من إيمانه بما يقول، ولنعرف أن الهدف ليس الربح المادى.

ويمكن تلخيص الثورة الجنسية، بأن **الرغبات الجنسية قد انفلتت من عقالها، وبدلًا من أن تحرر الإنسان، حَيَّدته ثم استعبدته**. فانتشرت الإباحية وتم «تطبيعها» بشكل لم يعرفه المجتمع الأمريكى من قبل. فكأن الهدف من الإباحية لم يكن إرضاء الشهوات، وإنما اختزال الإنسان

إلى جسد، فالتعرية تبدأ بالجسد وتنتهى بتعرية الإنسان من تركيبيته وإنسانيته. لكل هذا **يُنظر للجنس بطريقة محايدة للغاية، وكأنه نشاط بيولوجى منفصل عن القيمة**، لذلك يتم الآن الإشارة إلى البغاء بحُسبانه نشاطًا اقتصاديًّا محايدًا، مجرد عمل عضلى لا يختلف عن غيره من الأعمال. ولذا **تُسَمَّى البَغِى فى بعض الأوساط «عاملة جنس» sex worker**.

كنت أحاول أن أشرح هذه القضية لبعض الفقهاء ممن كانوا يتحدثون عن **«الزنا» فى الغرب**، وكأن الغرب لا يزال يدور داخل **إطار الحلال والحرام**. فكنت أقول لهم: عندنا فى مجتمعاتنا إن اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما. المشكلة فى الغرب أن الشيطان لا يحضر؛ لأن المسألة أصبحت طبيعية ومحايدة بدون أى إحساس بالذنب، إلى درجة أنها أصبحت قضية إجرائية محضة: أين؟ متى؟ إلخ. وكنت أخبرهم أننى أرحب بحضور الشيطان، فهو على الأقل يذكرنا بالله، تمامًا كما يذكرنا الشر بالخير، والحرام بالحلال.

ما بعد الحداثة

لم أملك نفسى من الضحك بصوت مرتفع على تعليق د. المسيرى الأخير على الثورة الجنسية، وقررت أن انتقل بالحوار إلى جزئية أخرى. قلت للدكتور المسيرى: أقرأ كثيرًا أن ما أصاب الإنسان الغربى والمجتمعات الغربية من تدهور إنسانى قد دخل بالإنسان إلى **عالم ما بعد الحداثة، أو النظام العالمى الجديد**، فما معنى ذلك؟ أجابنى د. المسيرى:

لقد استمر مفهوم النسبية فى الاتساع حتى قَوَّضَ كل شىء، وقَوَّضَ الإحساس بأى قيم أو مركز، بل قَوَّضَ الإحساس بالوجود الحقيقى للعالم، لقد اكتسحت النسبية كل شىء فى طريقها، **ولم يعد هناك أى أساس لأى شىء، وصار كل شىء نسبى**.

وقد وُصِفَت **«ما بعد الحداثة»** بأنها تحطم كل اليقينيات والمُسَلَّمَات حتى سُمِّيت **«ضد الأساس»** antifoundationalism؛ لأنها **تتعامل مع عالم بلا أساس ولا مركز ولا معيار يُحتَكم إليه، عالم سائل لا قُوام له**. ومن ثم يمكن القول بأن **«ما بعد الحداثة» هى أيديولوجية «النظام العالمى الجديد»**، باعتبار **أن ما بعد الحداثة تُنكر أى معيارية وأى قيم مطلقة يمكن تحكيمها**. وهى **ترفض أن تعطى للتاريخ أى معنى (عصر نهاية التاريخ) أو أن تُعطى للإنسان أى قيمة أو مركزية (عصر ما بعد الإنسان)، وتُسقط كل الأيديولوجيات (عصر ما بعد الأيديولوجيات)**[1].

(١) سبق فيلسوفنا الكبير د. المسيرى بهذا الطرح عن «ما بعد الحداثة» الفيلسوف الأمريكى فوكوياما بسنوات.

ولتوضيح هذه الفكرة ذكرت فى إحدى محاضراتى عن «ما بعد الحداثة» هذه **النكتة المصرية الصميمة**: «أراد أحد القضاة أن يوقظ ضمير الحشاش الذى وقف أمامه فى المحكمة عدة مرات، وسأله: لماذا بالله عليك تدخن الحشيش دائمًا؟ فقال المتهم: حتى أنسى يا حضرة القاضى. فسأله: تنسى ماذا؟ فأجاب: والله مانا فاكر».

إن روح ما بعد الحداثة **تُعبر عن روح عصر رأسمالية الشركات عابرة القارات ومتعددة الجنسيات**، حيث قام رأس المال بإلغاء كل الخصوصيات (لا مانع من أن تتعاون دولتان اقتصاديًّا رغم أن بينهما اختلافات سياسية وعقائدية عميقة). **كما حلت القيمة التبادلية العامة محل القيمة الأصلية للأشياء** (لا مانع أن يُباع حذاء بألفى جنيه لأنه ماركة عالمية مشهورة بينما ثمنه الحقيقى لا يساوى عُشر هذا المبلغ). وهذه هى العولمة، التى يسميها البعض **العولمة الرأسمالية أو العولمة المتوحشة**.

نحن نذهب إلى أن العالم يحكمه الآن **إيقاع ثلاثى**: المصنع (حيث يُنتج الإنسان) ـ والسوق (حيث يشترى ويبيع) ـ وأماكن الترفيه (حيث يُفرغ ما فيه من طاقة وعُقد وقيم)، إنه إيقاع يستوعب كلًّا من الإنسان الاقتصادى والإنسان الجسمانى، ويُشبع جميع رغباتهما البسيطة الطبيعية أحادية البُعد التى لا علاقة لها بأى تركيب إنسانى.

ويمكن القول بأن «**النظام العالمى الجديد**» هو «**عولمة**» **الإمبريالية النفسية** (تعميمها لتشمل العالم أجمع)، وكذلك تعميم مفهوم الإنسان الاقتصادى/ الجسمانى الذى لا يكترث بالوطن أو بالكرامة، ولا يهمه سوى البيع والشراء والمنفعة واللذة.

وهذا **السُعار الاستهلاكى** ليس مسألة انحطاط خُلُقى شخصى وسلوك فردى واختيار حر، وإنما هو وضع اجتماعى شامل يهيمن على الإنسان من الخارج (ترشيد برانى) ويتبناه المرء دون أن يشعر (ترشيد جوانى). وإذا نجح المرء فى مقاومة هذا الغزو فإن أفراد أسرته قد لا يكونون فى مثل صموده. ولن يستطيع المرء أن يفلت من الضغوط الاجتماعية إلا **برد فعل عنيف**، كأن يتحول إلى هيبى زاهد فى الدنيا، والهيبى يجسد رفض المواطن العادى لهذا النظام العالمى الجديد، رغم أنه واقع فى شراك الاستهلاكية، التى تبناها منذ نعومة أظافره من خلال البرامج التليفزيونية والدُمى المختلفة (تُعدُّ العروس باربى وأصدقاؤها من أهم آليات إشاعة الأيديولوجية الاستهلاكية).

الوجه الآخر للتقدم

قلت للدكتور المسيرى: قرأت لعالم النفس الألمانى/ الأمريكى إريك فروم أن الحضارة المادية المعاصرة بعد أن دخلت مرحلة ما بعد الحداثة، تدفعنا إلى كارثة محققة، بل إننا قد صرنا بالفعل فى تخوم تلك الكارثة، فهل هذا صحيح، **وكيف يستقيم أن يؤدى التقدم إلى كارثة؟**

أجابنى د. المسيرى: كنت فى بدايات شبابى أتحدث مع أحد العالِمِين بشئون الزراعة، فأخبرنى إنه لو تم إدخال **ميكنة الزراعة** فى مصر لحدثت كارثة، إذ إن البطالة ستتفشى بين الملايين. كان كلامه مفاجأة كاملة لى؛ لأن الصحف والمجلات كانت لا تكف فى ذلك الوقت عن الحديث عن الميكنة بحُسبانها الحل لكل المشكلات.

وحدث أن سألت **روبرت أُوبنهايمر Robert Oppenheimer، مخترع القنبلة الذرية:** ماذا كان شعورك بعد نجاح مشروعك، ووقوع أول هجومين ذريين على اليابان؟ أجاب باقتضاب شديد: «**لقد تقيأت**»، أى أنه أدرك مدى وحشية ما توصل إليه، حتى إنه قضى بقية حياته يحارب ضد استخدام القنبلة الذرية. وقد ذكَّرتنى إجابته بما كتبه الفليسوف الفرنسى فرانسوا رابليه، عندما قال: «**إذا لم يقترن العلم بالضمير أدى إلى خراب النفس**»، كما ذكَّرتنى بخطيب جامع الحبشِى فى دمنهور حين كان فى نهاية خطبة الجمعة **يستعيذ بالله من عِلْم لا ينفع**. وقد دَعَّمت إجابة أبنهايمر من إحساسى بالاختلاف بين الإنسانى والمادى، وبقصور العلم الطبيعى عن الإحاطة بالمفاهيم الإنسانية والجمالية، وبخطورة انفصال التجريب العلمى عن الأهداف والأغراض الإنسانية، **وبضرورة النظر إلى الإنسان باعتباره الغاية النهائية وليس وسيلة من الوسائل.**

ومن مقدمات الكارثة، أن أصبح **عدم التحكم فى منجزات العلم** سمة أساسية فى عصرنا، وكلما زادت ميكنة العالم وزاد تقدمه العلمى، قَلَّت إمكانية التحكم فيه! وكلما اكتشف الإنسان أو سيطر على شىء ظهرت له آلاف الأشياء الجديدة التى لا يعرفها ولا يمكنه السيطرة عليها، أى أنه **كلما ازداد معرفة ازداد جهلا**. حتى شاع القول بأن **العلم يزداد بمتوالية عددية، فيزداد الجهل بمتوالية هندسية!**[1]

(١) فى المتوالية العددية **يضاف مقدار ثابت إلى الرقم السابق**، مثل: ٥ - ٧ - ٩ - ١١.
وفى المتوالية الهندسية **يُضاعَف الرقم بمقدار ثابت**، مثل ٥ × ٢ = ١٠ × ٢ = ٢٠ × ٢ = ٤٠.
لذلك **فالزيادة فى المتوالية الهندسية تكون أضعاف المتوالية العددية.**

ومن أمثلة ذلك الموقف، **تجربتنا مع الذَرَّة**، التى حطمناها لنؤسس الفردوس الأرضى، وانتهى بنا الأمر إلى أننا صرنا نمسك بكرة اللهب، أى الأسلحة النووية التى يمكنها تدمير العالم عشرات المرات، وتطلق عادمًا نوويًّا لا نعرف كيف نتخلص منه. وقد سُحِبَت من أحد أصدقائى العلماء فى الولايات المتحدة ميزانية البحث بحجة توفير الاعتمادات، بعد أن اكتشف أن **أفران الميكروويف** تسبب أضرارًا جسيمة للإنسان. وينطبق نفس القول على **شاشات الكمبيوتر والتليفونات المحمولة** التى لا نعرف حتى الآن أثرها على عينى الإنسان وأذنيه ودماغه.

انظر كذلك إلى **الأغذية التى تحتوى على مكونات مُهندَسة أو مُعدَلة وراثيًّا** تُضعِف جهاز المناعة، ويطلقون عليها «**أغذية فرانكشتاين**»، وقد طُرِد أحد العلماء الإنجليز من مركز الأبحاث الذى يعمل به لأنه أَكَّدَ هذه المقولة.

إن كثيرًا من العلماء الذين حققوا اكتشافات فى حقل الهندسة الوراثية يقفون الآن ضد إجراء التجارب فى هذا المجال خوفًا من عواقبها الوخيمة، وذلك بعد انفصال النزعة التجريبية عن النزعة العقلية والأخلاقية والإنسانية، لقد **أصبح التجريب غاية فى حد ذاته، بغض النظر عن نتائجه التى قد تودى بالإنسان!**.

إن الأخطاء فى التجارب العلمية فى الماضى كانت تتم داخل دورة الطبيعة ولا تتحدى قوانينها، ولهذا كانت دورة الطبيعة قادرة على معالجة مثل هذا الخلل، حتى إن التلوث الإشعاعى ـ الذى يستمر لآلاف السنين ـ يظل داخل دورة الطبيعة التى تُصلحه. **أما تجارب الهندسة الوراثية فتختلف عن التهجين القديم فى أنها تتجاهل تمامًا حدود البيولوجيا**، إذ يمكن إضافة جينات من الفيروسات أو البكتريا أو الحيوانات إلى الشفرة الجينية لأنواع الحيوانات والنباتات التقليدية، فتأتى بمخلوقات لا يمكن لدورة الطبيعة أن تتعامل معها؛ فهى **مخلوقات تقع خارج نطاق حلقة التطور الطبيعية**. وقد ظهرت أخيرًا مشكلة «**التلوث الجينى genetic pollution**»، وهو انتقال الجينات التى تم إدخالها على أحد النباتات (بقصد جعلها أكثر إنتاجية وأكثر مقاومة للمناخ) إلى نباتات أخرى (أعشاب ضارة على سبيل المثال)، مما يجعلها أشد فتكًا ويجعل القضاء عليها صعبًا أو مستحيلًا.

مطلوب عمل «دراسة جدوى» للتقدم

قلت للدكتور المسيرى؛ لا شك أن الإنسان قد حقق تقدمًا هائلًا فى ظل الحضارة المادية الحديثة، وفى نفس الوقت خسر الكثير فى العديد من الجوانب، ألم يأن الأوان لفتح الملفات، **ومقارنة عائد التقدم بتكاليفه الباهظة**؟ ... فقال:

إن جوهر الحضارة الغربية هو الإيمان بمفهوم «التقدم» السريع والدائم وبأى ثمن، حتى **أصبح التقدم العلمى هدفًا فى حد ذاته**. ولكن يبدو أن مشكلة البيئة فى المجتمعات الصناعية قد تفاقمت، فبدأ المفكرون، بل المواطنون العاديون، يتحدثون عن «تكاليف» التقدم.

إن النموذج الغربى فى التنمية والاستهلاك مبنى على **غزو الطبيعة والسطو عليها** (تبين الإحصائيات التقليدية أن ٢٠٪ من سكان العالم من أهل الغرب يستهلكون ٨٠٪ من مصادرها الطبيعية). والآن، ماذا بعد أن «تقدمت» الصين والهند وأصبح هناك بليون سيارة جديدة تسير فى الطرقات، يلوث عادمها جو الكرة الأرضية وتحرق الأكسجين، خاصةً بعدما «تقدمت» البرازيل هى الأخرى، وبدأت فى اجتثاث الغابات الاستوائية المطيرة التى تنتج ثلث الأكسجين فى العالم، لتؤسس المصانع والطرقات وتحقق «التقدم المنشود» على الطريقة الغربية، فهذا حقها القومى.

وإذا كانت **فكرة التقدم الغربية تستند إلى لا محدودية الموارد الطبيعية**، فإن الممارسة أثبتت عكس ذلك، فهناك معادن آخذة فى الاختفاء، وهناك **أنواع من الحيوانات والنباتات تنقرض سنويًّا**، وهناك **مشكلة النفايات** الآخذة فى التزايد بشكل مخيف، حتى إننا سنحتاج ـ لو استمر التقدم على معدله ـ فى غضون عدة أعوام إلى ستة كواكب فى حجم الكرة الأرضية كمصدر للمواد الخام وكوكبين آخرين للتخلص من نفايات الاستهلاك الوحشى المرتبط بالتقدم. وبطبيعة الحال، هناك **النفايات النووية**، التى لم نعرف طريقة جيدة للتخلص منها بعد. **إن التقدم الذى كان من المفروض أن يحقق سعادة الإنسان الأرضية أصبح يهدد وجوده على هذا الكوكب**. ومن المفارقات الساخرة أن الثورة العلمية التى نجحت فى تطوير السلاح بشكل غير مسبوق فى تاريخ البشرية، فشلت حتى الآن فى حربها ضد الأنفلونزا.

ولننظر إلى جانب آخر، هل **جهاز الإنسان العصبى** قادر على استيعاب كل هذه الأحاسيس والأفكار والمعلومات وأخبار المجازر والكوارث التى تُرسَل إليه يوميًّا من بيئته المحلية والعالمية؟. وهل من قبيل المصادفة أن الجلطة الدماغية على مستوى العالم العربى والعالم أجمع آخذة فى التزايد فى السنوات الأخيرة؟.

وأتساءل، هل مجرد «إنتاج» سلعة ما يُعتبر «تقدم»، أم أن **مقاييس التقدم والتخلف تقع خارج نطاق الأشياء والكم**. وإذا كان الحديث عن **تلوث البيئة (الطبيعة الخارجية)** أصبح أمرًا شائعًا فى الغرب، فإن الحديث عن **تلوث الإنسان (الطبيعة البشرية)** أصبح هو الآخر أمرًا مطروحًا بشدة. إن المجتمعات الاستهلاكية تظن أنها قادرة على إشباع جميع رغبات الإنسان

مُسقطة احتياجاته الروحية من الحُسبان، إذ تتجاهل ازدواجية الإنسان ومن ثم تسبب البؤس للبشر. ولذا أطالب الآن بفتح ملفات «ثمن التقدم» **ومقارنة عائد التقدم بتكاليفه، وأن ننظر للتقدم المادى فى إطار ما يُحدِث من «تخلف إنسانى»**.

كل هذا جعلنى أتحفظ على مصطلحات يقبلها البعض بشكل مطلق، مثل «التقدم التكنولوجى» و«التجريب العلمى». وهذا لا يعنى أننى أرفض **المعرفة العلمية** رفضًا كاملًا (كما يفعل غلاة السلفيين) ولا أننى أقبلها قبولًا كاملًا بحُسبانها المعرفة الوحيدة الممكنة (كما يفعل غلاة العلمانيين)، كل ما فى الأمر أن **قبولى لها أصبح مشروطًا وغير مطلق**.

كيف تعاملوا مع الفطرة

سألت د. المسيرى؛ إذا كانت **الحضارة المادية عوراء**، لا تنظر إلا إلى الجانب المادى فى الإنسان، وفى نفس الوقت فإن للإنسان **ميلًا غريزيًّا لعالم الغيب**، وهذا الميل هو ما يجعل للإنسان ميلًا فطريًّا للتدين، فكيف يتعامل الإنسان المادى مع هذا الميل؟ أجابنى د.المسيرى:

ثمة ظواهر غريبة انتشرت فى الولايات المتحدة، منها زيادة قارئى الطالع والكف (كان آل ريجان لهم قارئة الطالع الخاصة بهم فى البيت الأبيض). كما ظهرت العبادات القديمة الجديدة، مثل عبادة الشمس أو الإيمان بالقدرات الخارقة للهرم، وعبادة جايا (أى كوكب الأرض)، والإيمان بالأطباق الطائرة. ويرجع ذلك إلى أنه رغم تزايد معدلات النسبية وتفشى أخلاقيات السوق فإن **الإنسان يظل بحاجة لإشباع الجانب الإنسانى فيه**، لذلك لجأ إلى الإيمان بما أُسَمِّيه «**ميتافيزيقا دون أعباء**»، فهذا يعطيه الشعور الميتافيزيقى الذى يبحث عنه، ولكنه فى الوقت ذاته لا يُحَمِّله أى أعباء أخلاقية كما تفعل الديانات، مثل الكسب الحلال وأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك وغض البصر.

قلت للدكتور المسيرى، يدعى الغربيون أن الإنسان كلما تحضر (بالمفهوم المعاصر) كان ضميره أكثر يقظة، حتى أقنعونا أن الحضارة الغربية **حضارة الانضباط عن طريق الإحساس (الجوانى والفردى) «بالذنب» guilt، أما حضارتنا فهى حضارة الإحساس (البرانى والجماعى) «بالخجل أو العار» shame. يريدون أن يشعروننا أن الإنسان الغربى ينضبط من داخله، ولذا فهو أكثر تَحَضُّرًا**، أما الذى يتم ردعه اجتماعيًّا من الخارج بشكل دائم، فهو إنسان غير متحضر، فما رأيك فى ذلك؟.

ابتسم د. المسيرى وأجابنى: لقد تبخرت أسطورة إحساس الإنسان الغربى بالذنب بغتة

عام ١٩٧٧، حين انقطع التيار الكهربائى عن نيويورك بضع ساعات، وبدأ الناس يتحركون كالقطيع ويقومون بنهب كل ما تقع عليه أيديهم، بل اشتركت بعض السيدات البيض من الطبقات الثرية فى كرنفال السرقة. أَخبَرت أصدقائى الأمريكان ساعتها أننى شاهدت الليلة السابقة تَبَخُّر إحدى الأساطير الحاكمة والمقولات المرجعية فى حياتنا جميعًا، وعلينا ألا نتحدث عن «الضبط الفردى الجوانى» وإنما عن «**الضبط العلمى ـ وربما البوليسى ـ الكهربائى**».

نحو حداثة جديدة

سألت د. المسيرى؛ إذا كانت الحداثة قد أدت إلى ما بعد الحداثة، ذلك المنظور الذى أدى إلى نزع إنسانية الإنسان وجَعَلَه مسخًا مشوهًا، **فهل معنى ذلك أن من الأفضل رفض التقدم؟**

أجابنى د. المسيرى: إن ما أقول لا يعنى رفض تطور المجتمعات، ولكن المطلوب هو حداثة جديدة؛

حداثة «تتبنى العلم والتكنولوجيا ولا تضرب بالقيم الإنسانية عرض الحائط».

«تنمى وجودنا المادى ولا تنكر الأبعاد الروحية لهذا الوجود».

«تحيى العقل ولا تميت القلب».

«تعيش الحاضر دون أن تنكر التراث».

وهى مسألة ولا شك صعبة، ولكنها ليست مستحيلة.

من أجل التقدم نحو هذه الحداثة البديلة ينبغى:

١ - فصل الحداثة البديلة عن مفهوم الاستهلاك والتقدم المادى، وربطها بمفهوم الطبيعة الإنسانية والإنسانية المشتركة، بحيث يمكننا أن نحدد **هدفًا للحداثة غير الإنتاج والاستهلاك.**

٢ - توسيع مفهوم التقدم، بحيث يضم **المعنوى والروحى** بالإضافة إلى المادى والملموس.

٣ - أن نعيد تحديد معدلات الاستهلاك **فى إطار احتياجات البشر المادية والمعنوية**، فلا تكون زيادة الاستهلاك هدفًا فى حد ذاتها.

وبهذه الطريقة قد يمكننا أن نحقق مشروع الحداثة البديل، وأن نحقق التقدم دون أن نفقد إنسانيتنا واتزاننا، ودون أن ندمر الكوكب.

كان شعورى تجاه حوارى الشيق مع د. عبد الوهاب المسيرى مزيجًا من الشجن العميق وخفة الانتشاء. وقلت له وأنا أُوَدعه: إن كتابى هذا يدور حول الذات الإنسانية، وسيكون بعنوان «أنا: تتحدث عن نفسها»، فَهَلّا لخصت لى فى كلمات ما استقر عليه وجدانك ـ حتى الآن ـ حول **تعريف الذات الإنسانية**. فقال: ختام كلماتى (التى أتمنى أن تنقلها عنى حيًّا ومَيْتًا) التى أُعَرِّف بها الإنسان هى أن:

«الإنسان كائن حر، يصنع التاريخ،

جزء من الطبيعة ومستقل عنها، ولا يمكن أن يُردَّ إليها

كائن له منتجاته الحضارية التى تمنحه خصوصيته القومية والإنسانية

إنه الإنسان الربانى (عكس الإنسان الطبيعى/ المادى)»

القارئ الكريم

يرى إريك فروم (عالم النفس الكبير) أن السبيل إلى تفادى الكارثة التى تدفعنا إليها الحضارة المادية المعاصرة هى إنشاء **مجتمع المدينة الفاضلة**، مجتمع يوجهه نظام يراعى الجانب الروحى للإنسان، فلا يحتاج إلى تحريف الواقع وعبادة الأصنام. وكذلك يرى أستاذى الدكتور عبد الوهاب المسيرى أن النجاة تكمن فى **بعث الإنسان الربانى**، الكائن الذى يعيش داخل جسده المادى بينما تتجاوز روحه عالم المادة إلى عالم المُثل العليا والغيب، كائن أقدامه مغروسة فى الوحل وعيونه شاخصة للنجوم، كثيرًا ما يسقط ولكنه قادر دائمًا على النهوض ثم التجاوز والتسامى.

وباعتبارى مفكرًا إسلاميًّا، يحمل على كتفية هموم البشرية، **أرى فى منهج الإسلام السبيل لبعث الإنسان الربانى، بثنائيته (الجسد والروح)، والسبيل أيضًا لتحقيق مجتمع «المدينة الفاضلة» على أرض الواقع**، تلك المدينة التى لا تشكلها مثاليات نظرية، بل تمثل **مجتمعًا صالحًا للتطبيق فى كل زمان ومكان.**

ومن أجل طرح هذه القضية، يبدأ القرآن الكريم بتأكيد أن **نمط التملك منبوذ عند الله** ﷻ، بل ويتوعد بالويل من يرى حقيقة الوجود فى التملك ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①

ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ ﴾ [الهمزة]. وفى الوقت نفسه، يحث القرآن الكريم على **تبنى نمط الكينونة** فى الحياة، فيؤكد أن نمط الحياة القائم على احترام إنسانية الإنسان وسماته البشرية هو النمط الوحيد الجدير بتقدير رب الكون ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء]. وبالرغم من وضوح وتكرار التحذير من نمط التملك والترغيب فى نمط الكينونة إلا أن ذلك لا يمنع الإنسان من المكابرة والمجادلة ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الكهف].

ويصل الإنسان إلى تحقيق ذلك عن طريق **الالتزام بالحياة الفاضلة** ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر]. ويُحَمِّل القرآن الكريم الإنسان **مسئولية استخدام عقله وحواسه وبصيرته من أجل الحفاظ على كينونيته الإنسانية** ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد].

وصدق الله العظيم